

الجملُ الرَّضيَّةُ

في التعليقِ على العقيدة الواسطية



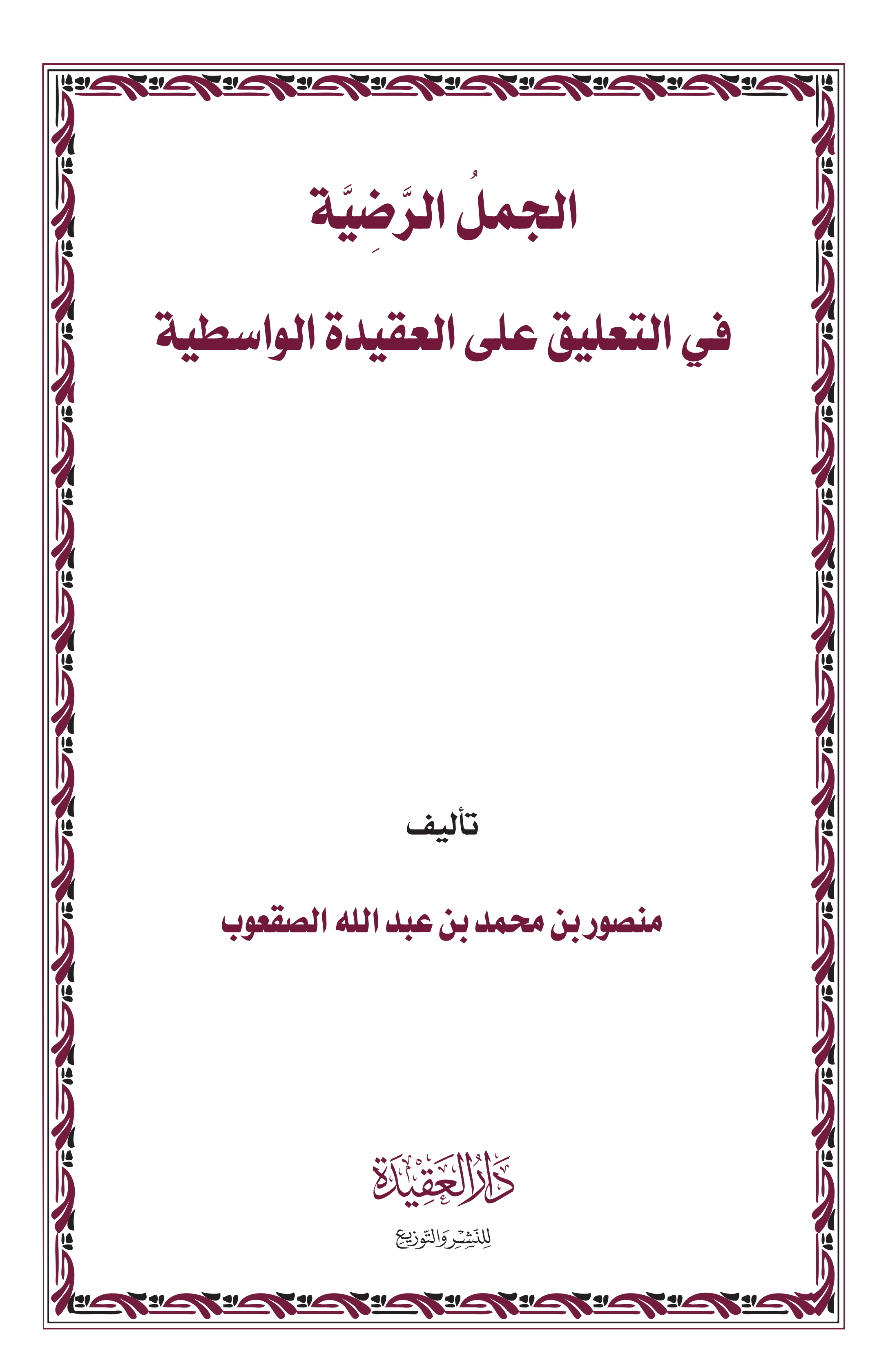
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رقم الإيداع:

ردمك:

١٤٤٢هـ ـ ٢٠٢١م

دار العقيدة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
هاتف 0503310067



الجملُ الرَّضِيَّة

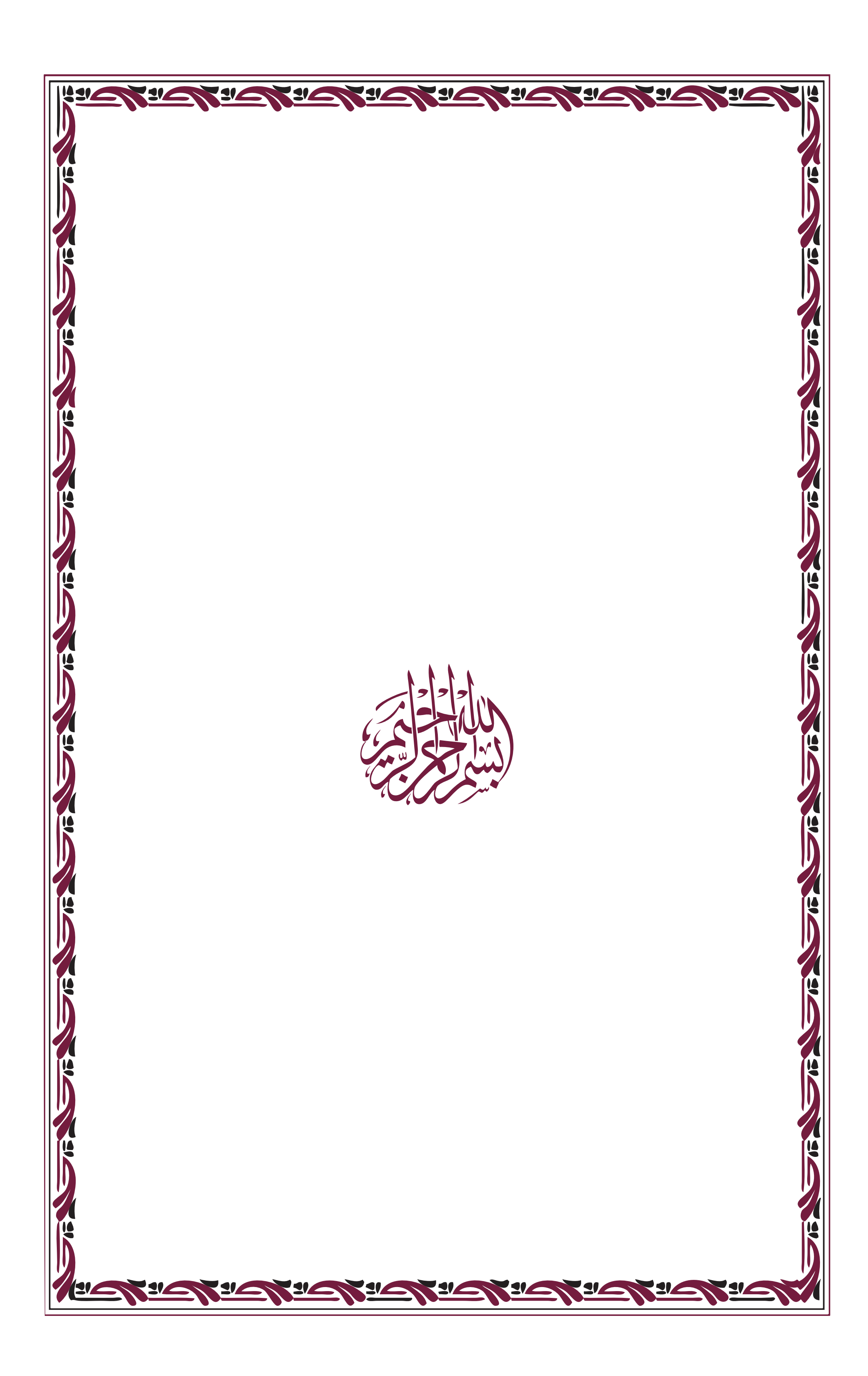
في التعليق على العقيدة الواسطية

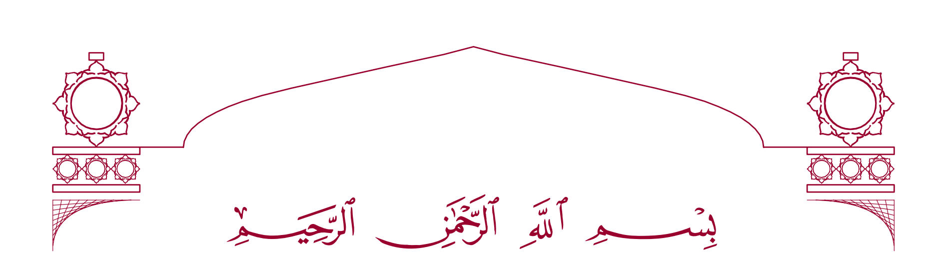
تأليف

منصور بن محمد بن عبد الله الصقعوب

دار العقيدة

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنَّ مِن أهمِّ العلوم التي ينبغي على طالب العلم أن يُتقنها، ويُكثِر من دراستها، عِلمَ الاعتقاد؛ فَبِه يتعبَّدُ لربِّه على بصيرة. وقد قال الإمام أبو حنيفة: (الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام، ولأَنْ يتفقَّه الرجل كيف يعبد ربَّه خيرٌ له من أن يجمع العلم الكثير).

وقد تتابع العلماء - قديمًا وحديثًا - على التصنيف في هذا العلم؛ ما بين عقائدَ مسندةٍ، وما بين متونٍ محرَّرة، وما بين نثرٍ ونظمٍ، وغير ذلك من مصنَّفات مطوَّلة ومتوسِّطة ومختصرة. فعلم العقيدة، وعلى منهج أهل السنة والجماعة، زاخر بالمصنفات النافعة المفيدة.

بَيْدَ أن الله قد كتب لمتن «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ) قَبولًا عظيمًا،

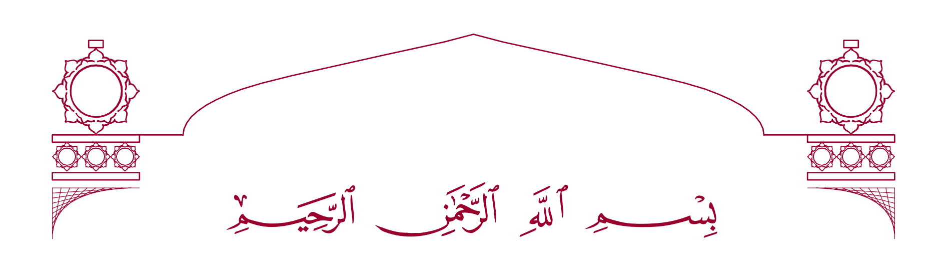
فَكَثُرَ انتفاع الناس بها؛ دراسة وحفظًا واستشراحًا.

وهذا الشرح - الذي بين يديك - هو إسهامٌ متواضعٌ في توضيح مقاصدِ المتن، قد كنت كتبته لنفسي قبل سنوات، ورغبت في نشره بعد إعادة النظر فيه؛ لعلَّه أن يفيد مَن يطالعه، وأنا موقن أن في الشروح غيره كفاية، ولن يأتي المرء بجديدٍ في المضمون، فالعلم من قرونٍ استقرَّ، بَيْدَ أن للناس مشاربَ متعددةً، والأساليب في إيضاح العبارة متنوِّعة، فقد يناسب لشخصٍ ما لا يناسب لغيره، وما أنا إلا عالةٌ على من سبقني لشرح المتن، ومَن كتب في أبواب الاعتقاد، حاولت تخليص مضمون كلامهم، وإضافة ما قد أراه يستدعي الإضافة.

ولا أنسى أن أتقدَّم بالشكر للدكتور دغش العجمي الذي تولى تحقيق متن «الواسطية» تحقيقًا موفَّقًا، وأتحفني بتحقيقه ليكون المعتمدَ في الشرح.

واللهَ أسألُ أن ينفع بهذا العمل، وأن يطرح له القبول، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح والإخلاص والقبول، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلَّى اللَّه وسلَّم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين



قوله: (الحَمْدُ للَّهِ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيدًا).

ابتدأ المؤلفُ رسالته بحمد الله، وهي الجادَّةُ المتَّبعة عند أهل العلم في تصانيفهم[(١)]، **وهذا الأمرُ - وهو الابتداء بالحمدلة - إنما هو:**

◈ اقتداء بالقرآن الذي صُدِّرت أول سورة فيه بالحمد، وهي «سورة الفاتحة».

◈ واقتداء بالنبي ﷺ في خُطَبه، حيث كان يَبدأ فيها بحمد الله[(٢)].

والحمدُ لغةً: خِلَافُ الذَّمِّ[(٣)].

---

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يستحب البُداءة بالحمد لله لِكُلِّ مُصَنِّفٍ وَدَارِسٍ وَمُدَرِّسٍ وَخَطِيبٍ وَخَاطِبٍ وَمُزَوِّجٍ وَمُتَزَوِّجٍ وَبَيْنَ يَدَيْ سَائِرِ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ». «المجموع» (١/ ٧٣).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (٨٦٨).

(٣) يُقَالُ: حَمِدْتُ فُلَانًا أَحْمَدُهُ. وَرَجُلٌ مَحْمُودٌ وَمُحَمَّدٌ؛ إِذَا كَثُرَتْ خِصَالُهُ الْمَحْمُودَةُ غَيْرُ الْمَذْمُومَةِ انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٢/ ١٠٠).

وشرعًا: هو الثناءُ على المحمود بالصفات والأفعال الحسنة.

وعرَّفه شيخ الإسلام بأنه: ذِكرُ صفاتِ المحمود؛ مع حبِّه وتعظيمه وإجلاله[(١)].

وقال ابن القيم: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبِّه وإجلالِه وتعظيمه[(٢)].

والحمدُ أبلغُ من المدح؛ إذ إن الحمد فيه إخبارٌ بمحاسن الغير مع الحب، أما المدحُ ففيه إخبار بمحاسن الغير، ولا يلزم أن يكون مع الحب[(٣)].

وقال القرطبي: «الصحيح أن الحمد ثناءٌ على الممدوح بصفاته من غير سَبْق إحسان، والشكر ثناءٌ على المشكور بما أَوْلَى من الإحسان»[(٤)].

❍ **فائدة:** صُدِّرت كلمةُ (الحمد) بالألف واللام؛ لِتَحمِلَ معنى الاستغراق، **والمعنى حينها:** أنَّ جميعَ أنواع المحامد كلها لله: ملكًا واستحقاقًا، فجنس الحمد مستحَق ومملوك لله تعالى[(٥)].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٧٨، ١٠/ ٢٥٢).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٥٣٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٥٣٦).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٤).

(٥) وعلامة (أل) التي تفيد الاستغراق: أنه يمكن أن يحلَّ مكانها (كُل) ونحوها.

وقوله: (لله).

لفظ الجلالة علمٌ، وهو أعرفُ المعارف على الإطلاق، وهو علَمٌ على ذاته سبحانه، المستحِق لجميع المحامد.

واختُلف: هل هو جامدٌ أو مشتق؟[(١)].

والصواب: أنه مشتق، وقد اختُلف مِن أي شيء اشْتُقَّ؟

فقيل: إنه مِن: تألَّه، إذا تذلَّل؛ فمعناه: المتذلَّلُ له، المفتَقَرُ المُحْتاجُ إليه.

والصواب: أنه مشتقٌّ مِن: أُلِهَ يُؤلَهُ، إذا عُبِد، فهو إلهٌ **بمعنى**: مألوه، أي: معبود، فالإله هو المألوه الذي تألهه القلوب[(٢)].

وأصلُه: «الإله» فحُذِفَت الهمزةُ، وأُدغِمت اللامُ في اللام، فقيل:

---

(١) فقال بعض العلماء - ومنهم السهيلي وابن العربي-: إنه غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادةً يُشتَق منها، واسمه - سبحانه - قديم، لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق.
وأجاب ابن القيم عن هذا بقوله: لا ريب أنه إن أُريد بالاشتقاق هذا المعنى فهو باطل، ولكن من قال بالاشتقاق لم يُرِد هذا المعنى، ولا ألَمَّ بقلبه، وإنما أراد أنه دالٌّ على صفة له - تعالى- وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى من العليم والقدير؛ فإنها مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادةَ له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء، فهو جواب من قال بالاشتقاق في (الله)، ثم الجواب عن الجميع: أنَّا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقيةٌ لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولِّدة منها تولُّد الفرع من أصله. «بدائع الفوائد» (١/ ٣٩) بتصرف يسير.

(٢) وقيل غير ذلك، قال السفاريني: «ومَن قال بعدم الاشتقاق فقد سَلِم من هذه التكلفات، والله أعلم». «لوامع الأنوار البهية» (١/ ٣١).

«الله»، **ومعناه**: اللهُ ذُو الأُلُوهِيَّةِ والمَعبُوديَّةِ على خَلْقِه أجمعينَ[(١)].

وهذا الاسمُ (الله) يتناول معانيَ سائر الأسماء الحسنى بالدلالات الثلاث: المطابَقة، والتضمُّن، واللزوم[(٢)]، وقد ذُكِر في القرآن (٢٣٦٠) مرَّة.

قوله: ﴿الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

الله ﷻ أرسل رسوله بالهدى - وهو العلم النافع -، وبدين الحق - وهو العمل الصالح -؛ لِيُظهرَه، ويُعليَه، ويَنصُرَه، ظهورًا بالحُجة والبيان، وبالسيف والسِّنان، حتى يَظهر على مخالفيه، وعْد الله له، ووعْدُه سبحانه لا يتخلَّف.

وقد وقع هذا للمسلمين؛ ففتحوا البُلدان، ونشروا الدِّين شرقًا وغربًا في أقل من ثلاثين عامًا، وهذا مِصداق نُبوة النبي ﷺ، وقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»[(٣)]، فانتشر في المشرق إلى أرض الهند، وفي المغرب إلى البحر الأطلسي، حيث لا عمارةَ وراءه حينها، وأظهره الله على سائر الأديان.

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٢١).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٥، ٥٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان.

قوله: (وكفى بالله شهيدًا).

أي: كفى بالله ﷻ شاهدًا أن محمدًا ﷺ رسولُه، وهو ناصِرُه ومُعليه، وكفى بشَهادته سبحانه إثباتًا لصِدقه، وكفى به شهيدًا في عِلمه واطلاعه على أمر محمد ﷺ في صِدق نبوته، والله من أسمائِه الشهيدُ؛ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصّلت: الآية ٥٣]، فهو سبحانه مشاهِدٌ لكل شيء، ويشاهِدُ رسوله، فلا يليق به أن يُقِرَّه لو كان يكذب عليه، ويخبرُ عنه خلاف ما أمر عليه، ويؤيده وينصره، ويُجْري على يديه المعجزات والآيات، وهو مع هذا كاذبٌ عليه ومفترٍ؛ فدل هذا على صدق نبوة محمد ﷺ[1].

قوله: (وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا. وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم تَسْلِيمًا مَزِيدًا).

❁ تحت هذه الجملة أمور:

١/ **قوله**: (**أشهد**)؛ أي: أقرُّ وأعترف أنه لا معبود بحقٍّ في الوجود إلا الله.

والمراد: أن المؤلف أعقب الحمد بالشَّهادتين، وهما اللتانِ يَعصمان الدم والمال، (شهادة أن لا إله إلا الله)، **ومعناها**: لا معبود بحقٍّ إلا الله، ففيها إفرادُ الله بالعبادة، وترْك عبادة ما سواه، ويكون ذلك بإقرارٍ

(١) أشار إلى هذا المعنى ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٢٧ - ٣٢٨).

واعترافٍ ويقين وعدم شكٍّ، ثم شهادة (أن محمدًا عبده ورسوله).

٢/ هذه الكلمة - الشهادتانِ - هي أولُ وأعظمُ واجبٍ على العباد على الإطلاق؛ لحديث معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في بعْثه لليمن: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**»، وفي لفظ: «**ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»[١]، خلافًا لمن زعم أن أول واجبٍ هو النظرُ في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، أو القصدُ إلى النظر، أو الشكُّ[٢]، فهذا خطأٌ؛ لأن معرفة الله قد فُطر عليها الإنسان؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠][٣].

٣/ هذه الكلمة هي مِفْتاح الجنة، كما ثبت في الأحاديث، من قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[٤]، ولكنه لا يكفي مجرد النطق بهذه الكلمة لدخول الجنة، بل لا بد من تطبيقها والعمل بموجَبها، **قال ابن تيمية:** «من اعتقد أنه بمجرد تلفُّظه بالشَّهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار، فهو ضالٌّ مخالف للكتاب والسنة

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس.

(٢) وهم: أهل الكلام، من المعتزلة، والأشعرية، وغيرهم. انظر: «درء التعارض» لابن تيمية (٨/ ٣٤٨)، و«لوامع الأنوار البهية» (١/ ١١٤).

(٣) ولهذه الكلمة ركنانِ: النفي: (لا إله) نافيًا لجميع المعبودات.
والإثبات: (إلا الله) مثبتًا العبادةَ لله سبحانه.
ولها سبعة شروط: العلم، واليقين، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والانقياد، والقبول، ونظَمَها بعضهم، فقال:

عِلْمٌ يَقِينٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقُكَ مَع ... مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُول لَهَا
وزِيدَ ثَامِنُهَا الكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... غَيْرِ الإلهِ مِنَ الأَوْثَانِ قَدْ أُلِهَا

(٤) ومن ذلك ما أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤)، عن أبي ذر: أن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**».

بالإجماع»[١].

٤/ **قوله: (توحيدًا):** مصدر: وَحَّدَ يوحِّد توحيدًا؛ أي: جعَله واحدًا فردًا[٢]، وإنما سُمِّي دين الإسلام توحيدًا؛ لأن مبناه على أن الله واحدٌ في مُلكِه وأفعاله، وواحدٌ في ذاته وصفاته لا نظيرَ له، وواحد في أُلوهيته وعبادته لا نِدَّ له[٣].

٥/ **قوله: (محمدًا):** هو اسم النبي ﷺ، وهو أحد أسمائه، قيل:

(١) انظر: «المستدرك على مجموع الفتاوى» (١/ ١٦)، و«مختصر الفتاوى المصرية» (ص٩٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص٣٢٤).

(٣) انظر: «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (ص١٧).

وللتوحيد ثلاثة أقسام:

١- **توحيد الربوبية: وهو:** الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبِّر لجميع الأمور، وهذا النوع أقرَّ به كثيرٌ من المشركين، ولم يُدخِلهم في الإسلام بمفرده، حتى يأتوا معه بالألوهية.

وضد توحيد الربوبية: اعتقاد مدبِّرٍ أو خالقٍ مع الله سبحانه.

٢- **توحيد الألوهية:** وهو: إفراد الله بالعبادة، وهو الذي وقع فيه الخصومة بين النبي ﷺ وكفار قريش، ومَنْ بعدهم من المشركين.

وضِدُّ توحيدِ الألوهية: الإعراضُ عن عبادته، أو عبادةُ غيره معه.

٣- **توحيد الأسماء والصفات:** وهو: أن يُوصَف الله بما وصَف به نفسه وبما وصَفه به رسوله، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وقسَّمه بعض العلماء إلى قسمَين، هما:

١- **التوحيد الفعلي:** وهو المسمى بتوحيد الألوهية، ويتضمن أفعال القلوب وأفعال الجوارح، كالصلاة والحج، فهو إفراد الله بأفعال العبيد.

٢- **التوحيد القولي الاعتقادي:** ويشمل أقوال القلوب، وهو اعتقادها، وأقوال اللسان، ويندرج تحته: توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الربوبية.

سُمِّي به لكثرة خصاله الحميدة[1]، وهو اسمه المذكور في التوراة[2].

٦/ قوله: (عبْدُه): وُصِفَ النبيُّ ﷺ بالعبودية لله، وهذا يقتضي التشريفَ والتعظيمَ، واللهُ وصَفَ نبيَّه بالعبودية في أشرفِ أحواله، **وهي ثلاثة أحوال:**

١- عند ذكر الإسراء، كما في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسرَاء: الآية ١].

٢- عند ذكر الوحي، كما في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النّجْم: الآية ١٠].

٣- في سياق التحدي، كما في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣].

٧/ قوله: (عبده ورسوله): هذه الجملة فيها إشارةٌ إلى طائفتَين من الناس، كلتاهما غَلا في جانب:

١- **أهلُ الإفراط:** الذين غَلَوا في النبي ﷺ ورفعوه عن منزلته، وارتكبوا ما نهاهم النبي ﷺ عنه من الغلو في حقِّه، مِن صرْف بعض أمور الألوهية له، والاعتقاد أن له في تصريف الأمور يَدًا، وغير ذلك، وهؤلاء يُرَدُّ عليهم بأن النبي ﷺ عبدٌ، ومقتضى العبدِ أنه لا يَملك.

٢- **أهل التفريط:** الذين يشهدون أنه رسول الله حقًّا، ولكنهم نبَذوا ما جاء به وراء ظهورهم، وخالفوا رأيه وما جاء به، وهذا خِلاف شَهادة أن

---

(١) انظر: «سبل الهدى والرشاد» (١/ ٥٠٧)، و«التيسير شرح الجامع الصغير» (١/ ٣).
(٢) انظر: «تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل» (٢/ ٦٧٣).

محمدًا رسول الله، التي تقتضي الإيمان به، وطاعته، وتصديقه، فما أثبته وجب إثباته، وما نفاه وجَب نفيه، وهؤلاء يُرَدُّ عليهم بأن النبيَّ ﷺ رسولُ الله.

٨/ قوله: (صلى الله عليه): صلاةُ الله على عبدِه: ثَناؤهُ عليهِ عندَ المَلائِكَةِ[(١)]، فمن صلَّى على النبي ﷺ، فإنما يَسأل الله أن يثني على نبيه في الملأ الأعلى[(٢)].

٩/ عبَّر المصنِّف بالرسول، والفرق بين النبي والرسول:

أن الرسول: هو من أُوحِي إليه الشرعُ وأُمر بتبليغه، مشتقٌّ من الرسالة.

والنبي: مشتقٌّ من النبأ[(٣)]، وهو الإخبار؛ لأنه مخبِرٌ عن الله، وهو: من أُوحِي إليه بشرعٍ، ولم يُؤمَر بتبليغه[(٤)]، وعلى هذا فكلُّ رسولٍ نبيٌّ ولا عكس.

وقيل: الرسول من جاءَ بتشريعٍ جديد، والنبي من جدَّد ما اندرس من رسالة مَنْ قبله، وقيل في تعريفهما أقوالٌ أخرى[(٥)].

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» عن أبي العالية، في كتاب التفسير، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾ [الأحزاب: الآية ٥٤].

(٢) وقيل: المراد به: الرحمة، ورَدَّه ابن القيم من عدة أوجه. انظر: «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص١٥٨- ١٧٠).

(٣) انظر: «النبوات» لابن تيمية (٢/ ٨٨٣).

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ١٥٥).

(٥) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥٠)، «النبوات» لابن تيمية (٢/ ٧١٤).

١٠/ **الأنبياءُ أكثر من الرسل**؛ فقد ورد أن عِدتهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا، وأما الرسل **فقيل**: إنهم كعِدَّة أصحاب بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولًا[1].

وقيل: إنه لا يُعرف عددهم[2]؛ لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: الآية ٧٨].

وأولو العزم منهم خمسةٌ، همْ في الفضل على الترتيب المذكور:

مُحَمَّدٌ إِبْرَاهِيمُ مُوسَى كَلِيمُهُ   فَعِيسَى فَنُوحٌ هُمْ أُولُو العَزْمِ فَاعْلَمِ

١١/ **قوله**: **(وعلى آله)**: آلُ الإنسان همْ أهل بيته؛ لأن إليه مآلَهم وإليهم مآله[3]، ومِن ثَمَّ فآلُ النبي ﷺ: هم أهل بيته.

وإذا وردت (آله) فإن لها حالتَين:

◈ إن وردت ولم يُذكَر أتباعه: فالمراد بِالآل: أتباعُه على دِينه، فتشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين:

آلُ النَّبِيِّ هُمُ أَتْبَاعُ مِلَّتِهِ   مِنَ الأَعَاجِمِ والسُّودَانِ والعَرَبِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ آلُهُ إِلَّا قَرَابَتَهُ   صَلَّى المُصَلِّي عَلَى الطَّاغِي أَبِي لَهَبِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨)، وابن حبان (٣٦١) عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قلت: يا رسول الله، كم وفَّى عدة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جَمًّا غفيرًا**»، اللفظ لأحمد، ولفظ ابن حبان: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وعشرون ألفًا**»، قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر جمًّا غفيرًا**».

(٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٤٢٣).

(٣) «معجم مقاييس اللغة»، لابن فارس (١/ ١٦٠).

◈ وإذا ذُكِر أتباعُه وآلُه: فالمراد بآلِه: مَن آمن مِن أهل بيته.

❍ **فائدة**: قال السفاريني: كثيرًا ما يَجمع المصنِّفون في الصلاة بين الآل والصحْب، ويعطفونهم عليهم - مع شمول الآلِ لهم في مقام الدعاء على المعتمد، كما اختار القاضي أبو يعلى وابن قدامة في «المغني» - لرغْم أنوف المبتدعة من الرافضة وأشباههم - أذلَّهم الله[(١)].

١٢/ قوله: (وسلَّم): السلام بمعنى: التحية، والسلامة، ومن أسماء الله (السلام)؛ لسلامته من النقائص والعيوب[(٢)]، قال ابن القيم في «النونية»[(٣)]:

وَهوَ السَّلَامُ عَلَى الحَقِيقَةِ سَالِمٌ ... مِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

وإنما جمع المصنِّف بين الصلاة والسلام؛ امتثالًا لقولِه تعالى: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٦]، وقد حكى النووي كراهة الاقتصار على أحدهما، فلا يُقال: (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ) فقط، ولا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فقط[(٤)]، ونقله ابن كثير عنه في تفسير آية «الأحزاب»؛ لأن مقتضى آية «الأحزاب» الجمع بين الصلاة والسلام[(٥)].

ولكن أجاز ابن الجوزي وابن حجر وغيرهما الاقتصار على أحدهما، بلا كراهةٍ، ما لم يكن ذلك باستمرار، وإن كان الأَوْلَى والأكملُ الجمعَ

---

(١) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ٥٤).
(٢) انظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي (ص٢٠٨).
(٣) «الكافية الشافية» (ص٢١٠).
(٤) انظر: «شرح النووي على مسلم» (١/ ٤٤).
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٩).

بينهما[١].

وقوله: أَمَّا بَعْدُ؛ اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ).

هذه الجملة تحتها مسائل:

١/ **قوله**: **(أما بعد)**: يُؤتى بها للانتقال من المقدِّمة إلى صُلبِ الموضوع.

والإتيانُ بها سُنَّةٌ؛ نصَّ على ذلك غيرُ واحدٍ؛ لأن النبي ﷺ كان يأتي بها في كلامه، وليس من الفصيح ذِكر (ثُمَّ) قبلها[٢].

٢/ **قوله**: **(هذا اعتقاد)**: **الاعتقاد لغةً**: مأخوذٌ من العَقد، وهو الربط والحزم والشَّد والتوثيق، تقول: اعتقدتُ كذا؛ أي: عقدتُ عليه القلبَ، والجمع: عقائدُ[٣].

والعقيدة اصطلاحًا: هي الأمور التي يجِب أن يُصَدِّقَ بها القلبُ، وتطمئن إليها النفْس، حتى تكون يقينًا ثابتًا لا يمازجها رَيب، ولا يخالطها شكٌّ[٤].

٣/ **قوله**: **(الفرقة الناجية)**: هي الطائفة والجماعة الناجية التي سَلِمت

---

(١) انظر: «فتح الباري»، لابن حجر (١١/ ١٧١)، و«لوامع الأنوار» (١/ ٤٩).
(٢) انظر: «فتح الباري» (٢/ ٤٠٠)، و«إرواء الغليل» (١/ ٣٦- ٣٧)
(٣) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٨٦)، و«المعجم الوسيط» (٢/ ٦١٤).
(٤) انظر: «الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة» لعبد الله الأثري (١/ ٢٤).

من الهلاك والشرِّ في الدنيا والآخرة، بابتعادها عن البدع والشرك، ومخالفة أمر الله، فحصلت على السعادة بسبب استقامتها على الحق، وتمسُّكها بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وهذه التسميةُ مأخوذة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ إِلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى إِلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إِلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»[(١)]، وفي حديث آخر: «**كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»[(٢)]، **فمَن تمسَّك بهذا الاعتقاد نَجا بإذن الله.**

ولا يلزم من هذا الكلام أن يكون مَن خالف في شيء من الاعتقاد هالكًا، وإنما يختلف المخالِفون لهذا الاعتقاد؛ فقد يكون مجتهدًا مخطئًا يغفر الله له خطأه، وقد لا يكون بلغَهُ في ذلك مِن العلم ما تقوم به الحُجة عليه، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته.

قال ابن تيمية: «موجَب هذا الكلام أن مَن اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد، ومَن اعتقد ضدَّه فقد يكون ناجيًا، وقد لا يكون ناجيًا، كما يقال: مَن صمت نجا»[(٣)].

٤/ قوله: (المنصورة)، أي: التي أعانها الله وأيَّدها، وقوَّاها على مَن خالفها، وجعَل العاقبة لها؛ لتمسُّكها بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وقد ورد في حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ**

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٩١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد (١٢٢٠٨) من حديث أنس بن مالك.

(٣) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣/ ١٧٩).

عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[١]، وهذه الطائفة قال عنها الإمام أحمد: إن لم يكونوا أصحابَ الحديث فلا أدري مَن هم[٢].

وقال القاضي عياض: إنما أراد -أحمد بن حنبل-: أهلَ السنة والجماعة، ومَن يعتقد مذهب أهل الحديث[٣]. ا.هـ.

وفي هذا بشارةٌ عظيمةٌ أن الحقَّ لا يزولُ بالكُلية، وهذا من معجزات النبي ﷺ، وقد ورد في حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا** - أَوْ قَالَ: **مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»[٤].

٥/ قوله: (إلى قيام الساعة)، أي: ساعة موتهم، وذلك يكون بمجيء الرِّيح التي تَقبض رُوح كل مَن في قلبه ذرة من إيمان، وهي الساعةُ في حقِّ المؤمنين، وإلا فالساعةُ لا تقوم إلا على شرارِ الخلق، وبهذا جمع ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين حديث: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: اللهُ**»[٥]، وحديث: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ**»[٦]، وبين حديث: «**لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ**

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٣).
(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٤).
(٣) انظر: «إكمال المعلم» (٦/ ٣٥٠).
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).
(٥) أخرجه مسلم (١٤٨) من حديث أنس بن مالك.
(٦) أخرجه مسلم (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

اللهِ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»[(١)].

٦/ قوله: (أهل السنة والجماعة):

السُّنَّة لغةً: السيرة والطريقة - حسنةً كانت أو قبيحة[(٢)] - وهي عند أهل الاعتقاد: ما يقابل البدعة، وهي ما سنَّهُ النبي ﷺ وشرعه من العقائد والأعمال[(٣)].

والجماعةُ لغةً: الفِرْقَةُ مِن الناس، والمراد بهم هنا: المتمسكون بالسنة، والمعتنون بفَهْمها، المحكِّمون لها في القليل والكثير.

۞ وأهل المنهج الحق لهم عدة أسماء:

١- أهل السنة: وإنما سُمُّوا بذلك؛ لانتسابهم لسُنة النبي ﷺ دون بقية المذاهب والمقالات، فهم لا ينتسبون إلا إلى الكتاب والسنة، خلافًا لأهل البِدَع الذين تارةً ينتسبون للمقالة، كالقدَرية والمرجئة، وتارةً إلى القائل، كالجهمية، وتارةً للفعل، كالروافض والخوارج.

٢- أهل الجماعة: سُمُّوا بذلك؛ لأنهم مجتمعون على الكتاب والسنة، ولأنهم ينهَون عن الفُرقة والاختلاف، ولا يلزم من هذا أن يكونوا جماعةً كثيرين، بل إذا وُجِد المتمسكون بالحق فهُمُ الجماعة، **قال ابن مسعود**: «الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك»[(٤)]، **وقال**

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٤) من حديث عقبة بن عامر.
(٢) «المصباح المنير» (١/ ٢٩١)، «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٦١).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٣٠٧) «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» (ص١١٦).
(٤) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٢٠)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد =

نعيم بن حماد: «إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن يفسدوا، وإن كنت وحدك؛ فإنك أنت الجماعة حينئذٍ»(١).

وقال ابن القيم: «قد شذَّ الناس كلهم زمن أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا، فكانوا هم الجماعة، وكانت القضاة حينئذٍ والمفتون والخليفة وأتباعه كلهم هم الشاذُّون، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة»(٢).

٣- **أهل الحديث**: سُمُّوا بذلك؛ لأن مستندهم النص من كلام الله تعالى ورسوله ﷺ.

٤- **السلف**: لأنهم على منهج سلف الأمة، وهم القرون المفضَّلة.

٧/ أهل السنة والجماعة قد تميَّز منهجهم بميزات، من أبرزها ما يلي:

١- أن أهل السُّنة ليس لهم اسمٌ يُسمَّون به إلا اسم «**أهل السنة والجماعة**»، أو «**أهل الحديث**»، فهو الاسم الذي عُرفوا به، وهذا بخلاف أصحاب البِدَع الذين تَسمَّوا بأسماء وألقاب أو عُرِفوا بها، فصارت عَلَمًا عليهم.

٢- توسُّطهم بين الناس، وعدم الإفراط أو التفريط، وهذا مبنيٌّ على أن مذهبهم هو المذهب الوسط.

٣- ثباتهم على منهجهم؛ لقناعتهم أنه الحق، وعدم تقلُّبهم كما هي عادة أهل الأهواء، ولذلك رُوِي عن عمرَ بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال:

= أهل السنة» (١٦٠).

(١) أخرجه البيهقي في «المدخل إلى علم السنن» (٩١٠).

(٢) «إعلام الموقعين» (٥/ ٣٨٩).

«من جعل دينه غرَضًا للخصومات، أكثَرَ التنقُّلَ»[(١)].

٤- اتفاقهم على أمور العقيدة، وعدم اختلافهم مع اختلاف الزمان والمكان، وهذا ما يمكن أن يُسمَّى به الوَحْدَة الفكرية عندهم، فأهل السنة في أيِّ قرن من القرون، وفي أي مكان، لو اختبرتَ الواحدَ منهم لوجدتَه يحمل من العقيدة والمنهج - مع القناعة التامة بذلك - مثلَ ما يحمله الآخَر.

قال قِوامُ السُّنَّةِ الأصبهاني: «ومما يدل على أن أهل الحديث هم على الحق: أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنَّفة من أولهم إلى آخرهم، قديمِهم وحديثهم، مع اختلاف بُلْدانهم وزمانهم، وتباعُد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار، وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة، ونمط واحد، يَجْرون على طريقة لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، ونَقْلهم واحد، لا ترى بينهم اختلافًا ولا تفرُّقًا في شيء ما وإن قلَّ، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم، وجدتَه كأنه جاء عن قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهلْ على الحق دليل أبيَنُ من هذا؟»[(٢)].

٥- الحرص على جماعة المسلمين ووحدتهم، فهمْ - دائمًا - يحضون على الوحدة وينبِذون الفُرقة والتفرق، وهذا واضح في منهج السلف القائم على أن أيَّ اتفاق بين المسلمين لا يكون إلا على أساس

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» - رواية محمد بن الحسن - (٩١٨)، و الدارمي في «السنن» (٣١٢).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٢٢٤- ٢٢٥).

الرجوع إلى الكتاب والسنة، وتحكيمهما، فهمْ أهل السنة والجماعة المجتمعون على الحق، الحريصون على جمع الناس على كلمة الحق[(١)].

قوله: (هُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).

عقيدةُ أهلِ السنة والجماعة تدور حول هذه الجملة:

والإيمان لغةً: قيل: التصديق، ومنه قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: الآية ١٧]، أي: بمصدِّقٍ[(٢)].

وقيل: الإيمان لغةً: الإقرار بالشيء عن تصديقٍ به؛ بدليل أنك تقول: آمنتُ بكذا، وأقررت بكذا، وصدَّقتُ فلانًا، ولا تقول: آمنت فلانًا[(٣)].

شرعًا: قولٌ، وفعل، واعتقاد، يَزيد بالطاعة ويَنقص بالمعصية.

وسيأتي بيانه عند الكلام عن مسألة الإيمان.

وقد ذكر المؤلف أن الاعتقاد الحق هو الالتزام والإيمان بالأصول السِّتَّة، التي وردت في حديث جبريل[(٤)]، وهي أركان الإيمان، **وهي كما يلي:**

---

(١) هذه الميزات مأخوذة بتصرف من «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» د. المحمود (١/ ٧١).

(٢) «العين» للخليل بن أحمد (٨/ ٣٨٩).

(٣) «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩، ١٠)، من حديث أبي هريرة، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب.

١/ **الإيمان بالله: ويتضمن:**

١- إثباتَ وجودِه سبحانه.

٢- وأنه متصفٌ بصفاتِ الجلال والكمال، منزَّهٌ عن كل عيبٍ ونقص.

٣- وأنه المستحق للعبادة، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه.

٢/ **الإيمان بالملائكة:** وهم عالمٌ غيبي غيرُ محسوس - أي: لا يُدْرَكُونَ بالحواس -، لا يَعلم حقيقتهم وصفاتهم إلا الله، خلَقهم الله من نور، وهم مطيعون لله طاعةً تامةً، قائمون بأمره، لهم تصرُّف في أمر الخلق بإرادة الله، ولا يَقدِرون على شيء مِن تلقاء أنفسهم.

والإيمان بهم يتضمن:

◈ الإقرار الجازم بوجودهم.

◈ أنهم خلْق من خلْق الله، مربوبون مسخَّرون.

◈ أنهم كما وصفهم الله: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٢٦].

◈ نؤمن بأسماء مَن عَلِمنا أسماءهم، أما مَن لم نَعلَم اسمه فنؤمن به إجمالًا.

◈ نؤمن بوظائف مَن عَلِمنا وظائفهم مما ذُكِر لنا.

وقد دل الكتاب والسنة على أن الملائكة موكَّلون بأصناف المخلوقات:

◈ فمنهم الموكَّل بأداء الوحي إلى الرسل، وهو الرُّوح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

---

(١) قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٩٣]، وأخرج البخاري (٤٩٢٩)، =

◈ ومنهم الموكَّل بالقطر، وهو ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

◈ ومنهم الموكَّل بالصُّور، وهو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢).

◈ ومنهم الموكَّل بقبض الأرواح، وهو مَلَك الموت وأعوانه(٣).

◈ ومنهم الموكَّل بأعمال العِباد، وهم الكرامُ الكاتبون(٤).

◈ ومنهم الموكَّل بحفظ العبد مِن بين يديه ومِن خلفه، وهم المعقِّبات(٥).

◈ ومنهم الموكَّل بالجنة ونعيمها(٦).

◈ ومنهم الموكَّل بالنار وعذابها، وهم مالكٌ ومَن معه من الزَّبانية(٧).

= ومسلم (٤٤٨)، من حديث ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي...

(١) أخرج أحمد (٢٤٨٣) من حديث ابن عباس: أن اليهود قالت للنبي ﷺ: «لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر، لكان...».

(٢) أخرج الترمذي (٢٤٣١) وقال: حديث حسن، وأحمد (١١٠٣٩) عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ؟!**».

(٣) قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السَّجدَة: الآية ١١].

(٤) قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

(٥) قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرَّعد: الآية ١١].

(٦) روى مسلم (١٩٧) عن أنس بن مالك، قال: قال ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟**» وروى البخاري (٢٨٤١)، ومسلم (١٠٢٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**من أنفق زوجين في سبيل الله، دعاه خزنة الجنة، كل خزنةِ بابٍ: أي فُلُ، هَلُم**».

(٧) قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزُّخرُف: الآية ٧٧]، =

◈ ورؤساؤهم تسعة عشر[(١)].

ومنهم الموكَّل بفتنة القبر[(٢)]، ومنهم حملة العرش[(٣)].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدَّثِّر: الآية ٣١][(٤)].

٣/ **الإيمان بالكتب المنزلة**: وهي التي أنزلها على رسله؛ وهي القرآن والإنجيل، والتوراة، والزَّبور.

والإيمان بذلك يتضمن: الإيمان بأنها كلام الله، وأنها حقٌّ ونورٌ وهدًى، فيجب الإيمان بأن الله أنزلها، ولكن كثيرًا منها حُرِّف وبُدِّل، ونؤمن بأن لله سوى ذلك كُتبًا أنزلها على أنبيائه، لا يَعرف أسماءَها وعددَها إلا سبحانه[(٥)].

أما ما يختص بالقرآن: فالإقرار به واتباع ما فيه، وذلك قدْرٌ زائدٌ على غيره من الكتب.

= وأخرج البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥) من حديث ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «... **ورأيت مالكًا خازن النار**...».

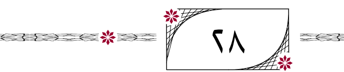
(١) قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٢٧ - ٣١].

(٢) أخرج البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠)، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأقعداه، فيقولان له**: ...» الحديث.

(٣) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: الآية ٧]، وروى مسلم (٢٢٢٩) من حديث ابن عباس قال: قال ﷺ: «**ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه، إذا قضى أمرًا سبَّح حملة العرش**».

(٤) انظر: «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (٢/ ٦٥٩- ٦٦٧).

(٥) «الإيمان» لابن تيمية (ص٢٤٤)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٤٢٤).



٤/ **الإيمان بالرسل**: وهم الذين بعثهم الله يبلِّغون دِينه للعباد.

والإيمان بهم يكون بالاعتقاد بأنهم صادقون فيما أخبروا به، وأنهم بلَّغوا الرسالة، وأدَّوا الأمانة، وبيَّنوا الدِّين أعظم بيانٍ، وأنه يجب احترامهم، ولا نفرِّق بينهم، وكذا الإيمان بمَن سمَّى الله في كتابه من رسله، وأن لله رسلًا وأنبياءَ غيرهم، لا يَعلمهم إلا الله، فنؤمن بهم إجمالًا، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤].

وأما ما يختصُّ بالنبيِّ ﷺ: فبطاعته فيما أمر، وتصديقه في كل ما أخبر من أمور الغيب السابق والمستقبَل، واجتناب ما نهى عنه.

٥/ **الإيمان باليوم الآخر**: وهو كل ما يكون بعد الموت، ويأتي الكلام عليه في فصل مستقلٍّ.

٦/ **الإيمان بالقدَر خيره وشره**: ويأتي الكلام عليه في فصل مستقل.

وقوله: وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ).

تحت هذه الجملة مسائل:

الأولى: قوله: (ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصَف به نفسه): دلَّ هذا على أن الإيمان بالأسماء والصفات من الإيمان، فمَن جحد صفاتِ الله فليس بمؤمن، وقد قال تعالى عن كفار قريش: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرّعد: الآية ٣٠]، وكذا من عطَّلها أو شبَّه صفته تعالى بصفة خلْقه.

الثانية: قوله: **(بما وصَف به نفسه، وبما وصَفه به رسوله)**: صفات الله تعالى توقيفيةٌ، ليس لأيِّ أحدٍ أن يُثبِتَ لله سبحانه صفةً من تلقاء نفسه، **وإنما طريقنا لإثبات صفات الباري سبحانه أحدُ أمور ثلاثة**:

١- أن يُذكَر الاسم من أسمائه سبحانه في القرآن، أو في السنة، فيُشتَق منه صفة، **والقاعدة**: (أن كل اسم يتضمن صفةً)، فحين يَذكر الله أن من أسمائه: العزيز، أو الرحيم، فمِن صفاته: العزة، والرحمة.

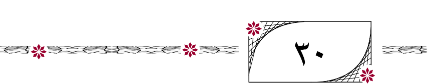
٢- ورود الصفة في القرآن أو السنة، كما نص الله في القرآن على بعض الصفات، فقال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: الآية ٦٤]، ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٧]، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غَافر: الآية ٣].

◈ وفي السُّنَّة: «**يَمِينُ اللهِ مَلْأى، سَحَّاءُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ**»[١]، وهكذا.

٣- قد تُؤخَذ الصفة من الفعل، فإن الله تعالى قد أخبر عن نفسه في القرآن أفعالًا يفعلها، فتُشتَق له منها صفاتٌ، ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤]، فمِن صفاته: الكلام، وكذا الإرادة، والاستواء، وغيرها، بينما لا يُشتَق له منها أسماء، فلا يُسمَّى بالمتكلِّم، والمُريد، والمستوي؛ لأن باب الصفات أوسعُ من باب الأسماء، فلا يلزم من إثبات الصفة أن نُثبِت لها اسمًا[٢].

❑ **والخلاصة**: أن صفات الله توقيفية، مِن الله أو عن رسوله ﷺ، لا

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة.
(٢) انظر: «معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى»، للتميمي (ص٣٤)، «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ١٤٤).



بآراء الخلْق، قال الإمام أحمد: «لا يُوصَف الله إلا بما وصَف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يُتجاوز القرآن أو الحديث»[(١)(٢)].

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٢٥٢).

(٢) **فائدة: ذكر العلماء الفرق بين أسماء الله تعالى وصفاته من أوجه:**

١/ أسماء الله تعالى دالة على الذات وما تضمنته من الصفات، فهي أعلام وأوصاف.
بخلاف الصفات فإنها نعوت الكمال القائمة بالذات، وليست أعلامًا على الذات.
فمثلًا: السميع هو الله، والبصير كذلك، والحكيم، والعليم... وبقية الأسماء كذلك.
أما الصفات فليست أعلامًا على ذاته سبحانه، وإنما صفات قائمة به تعالى.
فصفة السمع - مثلًا - ليست هي الله، وإنما صفة قائمة به تعالى، وهكذا البصر، والحكمة، والعلم... وبقية الصفات.

٢/ كل اسم من أسماء الله تعالى دالٌّ على صفة، دون العكس، فليس كل صفة يُشتَق منها اسمٌ لله تعالى.
فمثلًا: من صفات الله تعالى: الاستواء، والإرادة، والإتيان، والكلام، وليس من أسماء الله: المستوي، أو المريد، أو الآتي، أو المتكلم، فهذه الصفات لا يؤخَذ منها أسماء.

٣/ أسماء الله لا تُؤخذ من أفعاله، بخلاف الصفات فإنها تُثبت من الأفعال، فلا يؤخذ -مثلًا- من كون الله تعالى يغضب ويسخط ويحب ويُبغِض اسمُ: الغاضب أو الساخط أو المحب أو المُبغِض.
لكن هذه الأفعال تدل على إثبات صفة الغضب والسخط والحب والبغض لله تعالى.
ولذا قالوا: باب الصفات أوسع من باب الأسماء.

٤/ يُدعى الله تعالى بأسمائه، فيقال مثلًا: يا عليم، يا كريم، يا رحيم؛ لأن الدعاء بها هو دعاء الله نفسه.
بخلاف الصفات فإنها لا تُدْعى؛ لأن الصفة غير الموصوف، فالصفات ليست هي الله، فلا يقال مثلًا: يا عِلمَ الله، يا رحمةَ الله، يا كَرَمَ الله، يا قوةَ الله... إلخ.
ومَن فعل هذا فقد جعلها مستقلةً عن الله، فكأنه اتخذها إلهًا مع الله!
ولا يلتبس هذا بأمر التوسل بالصفة؛ فذلك جائز ومشروع، كما يتوسل المرء بأعماله الصالحة وتوحيده واتباعه لنبيه، فكذا يتوسل بأسماء الله تعالى وصفاته. =

= وقد جاء في الحديث: «... **بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ** ...»، و«**أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ**».

فهذا من باب التوسل بالصفة، لا من باب دعاء الصفة، وفرق بين الأمرين.

٥/ الأسماء يُعبَّد لها، فيقال: عبد العزيز، عبد العظيم، عبد الرحيم... إلخ.

بخلاف الصفات؛ فإنها لا يُعَبَّد لها، فلا يقال: عبد العِزة، عبد العَظَمة، عبد الرحمة... إلخ.

وتشترك الأسماء والصفات في أمور:

١/ جواز الحلف بهما، فكما يجوز الحلف بأسماء الله تعالى، يجوز الحلف بصفاته أيضًا.

كأن يُقال: وعِزةِ الله، لَعَمْرُ اللهِ... إلخ.

وفي البخاري (٦٦٢٨): كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ**».

ومن أهل العلم من فصَّل في الصفات، فأجاز الحلف في نوع منها دون نوع.

٢/ جواز الاستعاذة بهما، فكما تجوز الاستعاذة بأسماء الله تعالى تجوز بصفاته أيضًا، ومنه: قوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**» أخرجه مسلم (٢٧٠٨)، وقوله: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**» أخرجه مسلم (٤٨٦).

٣/ أن كلًّا منهما توقيفي، فلا يُثبَت لله تعالى إلا ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ.

انظر: «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى».

◈ **وهاهنا فوائد متعلقة بهذا الموضع:**

١/ اعلم أن للصفات عدةَ تقسيماتٍ؛ فالصفات من حيث تعلُّقُها بذات الله وأفعاله تنقسم إلى قسمَين:

١- **صفاتٌ فعلية**: وهي كل صفةٍ تعلقت بمشيئته وإرادته، وتُسمى: الأفعالَ الاختيارية، كالمجيء والنزول والاستواء ونحوها.

٢- **صفاتٌ ذاتية**: وهي التي لا تنفكُّ عنه بحالٍ، كالغِنى والقدرة واليدَين، ونحوها من الصفات التي هي من لوازم ذاته.

والصفات الذاتية نوعانِ:

أ- **معنوية**: كالحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة، ونحوها.

ب- **خبرية**: كاليدَين، والوجه، والعينَين، ونحوها مما هي بالنسبةِ لنا أبعاضٌ وأجزاء.

وتنقسم من حيث إثباتها ونفيها إلى قسمَين: =

= **١- صفات ثبوتية**: وهي ما أثبته الله ﷻ لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ؛ كالاستواء، والنُّزُول، والوجه، واليد، ونحو ذلك، وكلها صفات مدْح وكمال، وهي أغلب الصفات المنصوص عليها في الكتاب والسنة، ويجب إثباتها.

٢- صفات سلبية: وهي ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، وكلها صفات نقصٍ؛ كالموت، والسِّنة، والنوم، والظلم... وغالبًا تأتي في الكتاب أو السنة مسبوقةً بأداة نفي؛ مثل (لا) و(ما) و(ليس)، وهذه تُنفَى عن الله ﷻ، ويُثبَت ضدها من الكمال. انظر: «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١٢٣) «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٧٨)، «صفات الله الواردة في الكتاب والسنة» لعلوي السَّقَّاف (ص٣٢).

٢/ **طريقةُ أهل السنة والجماعة في الصفات**: هو الإجمالُ في النفي، والتفصيل في الإثبات، مثاله قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى: الآية ١١] فأجمل في النفي، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: الآية ١١]، فصَّل في الإثبات.

٣/ **أسماء الله تعالى وصفاتُه لها نَظَرانِ**: فبالنظر إلى الذات: هي من قَبيل المترادِف، فكلها صفاتٌ لله، وهو سبحانه واحد، وبالنظَرِ إلى الصفات هي متباينة، فكل صفةٍ تدل على معنًى غيرِ الذي في الصفة الأخرى. انظر: «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٥٦٩)، و«بدائع الفوائد» (١/ ٢٨٥).

٤/ **أسماء الله وصفاتُه حقيقيةٌ**، وليست من قَبيل المجاز، خلافًا للمبتدعة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم، ولازِمُ كلامِ هؤلاء: أن الله لا يكون حيًّا حقيقةً، ولا قادرًا حقيقةً، بل مجاز، وكفى بهذا ضلالًا!. انظر: «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٣٧٠)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ١٩٦، ١٩٧)، و«بدائع الفوائد» (١/ ٢٩٠).

٥/ لا يلزم من اتحاد الاسمَين تماثلُ مسماهما؛ فإن الله سمى نفسه بأسماء تَسَمَّى بها بعض خلْقه، فالله رؤوف رحيم، والنبي ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، وكذا في الصفات، ولا يلزم من ذلك التشبيه، فسمْعُ الله وبصره وعِلمه وقُدرته ليست كصفات المخلوق؛ فصفات كل موصوف تناسب ذاته وتليق به، ولا مناسبةَ بين الخالق والمخلوق.

٦/ أسماء الله وصفاته وأفعاله كذلك بعضها أفضل من بعض، وليس في هذا تنقُّص للمفضول، إنما بعضها أفضل من بعض في الثناء على الله، وأدل على كماله سبحانه، قال ابن تيمية: والنصوص والآثار في تفضيل كلام الله - بل وتفضيل بعض صفاته - على بعض متعددة، وقول القائل: «صفات الله كلها فاضلة في غاية التمام والكمال، ليس فيها نقص» كلام صحيح، لكنْ توهُّمُه (أنه إذا كان بعضها أفضل من بعض كان =

الثالثة: أهل السنة يثبتون الأسماء والصفات، ويحذِّرون من أربع طرائق يقَع فيها مَن ضلَّ في هذا الباب، وهي:

١/ التحريف: وهو التغييرُ لألفاظِ الأسماء والصفات ومعانيها، **ويتبينُ من هذا التعريفِ أن التحريفَ في الأسماءِ والصفات ورَد على وجهينِ:**

١- **تحريف اللفظ:** كقراءة بعض الضُّلَّال قولَه تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة[١].

٢- **تحريفُ المعنى:** كقولهم في قوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤] أي: جرحه بأظافر الحكمة تجريحًا[٢]، وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥]؛ أي: استولى[٣]، وقولهم في: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفَجر: الآية ٢٢]؛ أي: جاء أمره[٤].

= المفضول معيبًا منقوصًا) خطأٌ منه؛ فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه أفضل من بعض، ولهذا يقال: دعا الله باسمه الأعظم، وتدل على أن بعض صفاته أفضل من بعض، وبعض أفعاله أفضل من بعض. «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٨٩).

وقد ذكر ابن القيم في «بدائع الفوائد» (١/ ٢٨٤) وابن تيمية في مواضع عديدة من كتبه مسائلَ كثيرةً متعلقة بقواعدَ في الأسماء والصفات، وجمع كثيرًا منها ابن عُثيمين في رسالته النافعة: «القواعد المثلى في أسماء الله وصفاته الحسنى»، فلْيُرجَع إليها؛ فهي نافعة في بابها، وذكر بعض ذلك الشيخ الرشيد في «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية».

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٥٩١)، «البحر المحيط» لأبي حيان (٤/ ١٣٩).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٥٩١)، «البحر المحيط» (٤/ ١٣٩).

(٣) ممن فسَّر الاستواءَ بالاستيلاء الزمخشريُّ في «الكشاف» (٣/ ٥٢) قال: «لما كان الاستواء على العرش - وهو سرير الملك - مما يردف الملك، جعلوه كنايةً عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش، يريدون مَلَكَ وإن لم يقعد على السرير البتة» وانظر أيضًا: «تفسير السمرقندي» (١/ ٥٣٧).

(٤) انظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٩)، و«تلخيص البيان في مجازات القرآن» =

قال ابن القيم: «التحريفُ نوعانِ: تحريف اللفظ، وتحريف المعنى، فتحريفُ اللفظ: العدولُ عن جهته إلى غيرها؛ إما بزيادةٍ، أو نقصانٍ، أو تغيير حركة إعرابية، أو غير إعرابية، فهذه أربعة أنواع.

وتحريف المعنى: العدول بالمعنى عن وجْهه وحقيقته، وإعطاء اللفظ معنًى لفظٍ آخَر، بقدرٍ ما مشترك بينها»[(١)].

واعلم أن ما يفعله المبتدعة في صفات الله من تحريفٍ للمعنى إنما يسمونه تأويلًا، ويُسمُّون أنفسهم بأهل التأويل، **ولكن المؤلِّف عبَّر عنه بالتحريف دون التأويل**؛ لأنه اللفظ الذي جاء في القرآن: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٤٦]، وهذا أَوْلَى وأدل على المعنى، ثم إنه أشدُّ تنفيرًا عن هذه الطريقة المخالفة لطريقة السلف.

ثم إن التحريف مذموم، بخلاف التأويل؛ فإن منه ما هو مذموم، وما هو محمود[(٢)].

٢/ **التعطيل**: وهو جحْدُ الصفاتِ، وإنكارُ قيامِها بذاته سبحانه، ونفي ما دلَّت عليه من صفات الكمال.

وأول مَن قال بالتعطيل: الجَعْدُ بن دِرْهم، فقتله الأمير خالد القَسْري، والي العراق، وأخذها عن الجَعدِ الجَهْمُ بن صفوانَ، وإليه نُسِب هذا المذهب، فقتله سَلْم بن أحوز، أمير خراسان.

= (٢/ ٣٢٤).

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٣٨٧).

(٢) أشار إلى هذا العثيمين في «شرح الواسطية» (١/ ٨٧).

والذي قال بالتعطيل من الطوائف هم الجهمية، وسبب ذلك: الزعم منهم أن إثباتها يقتضي التشبيه، أو التجسيم، ونحو ذلك.

واعلم أن مقالة التعطيل أصلُها مأخوذةٌ من اليهود والمجوس والصابئين، وإخوانهم من ضُلَّالِ الأمم؛ فإن الجعد بن درهم أخذها عن أبان بن سمعانَ، وأبانُ عن طالوتَ ابن أخت لَبيد بن الأعصم الذي سحَر النبيَّ ﷺ[1].

واعلم أن تعطيل الله عن صفاته وأسمائه قد عدَّهُ ابن القيم شرًّا من الشرك؛ وذلك لأن المعطِّل جاحدٌ للذات، أو لكمالها، وهو جحدٌ لحقيقة الألوهية؛ فإنَّ ذاتًا لا تَسمع ولا تُبْصِر، ولا تغضبُ ولا تَرضى، ولا تفعل شيئًا، وليست داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة هي والعدم سواءٌ، والمشرك مقرٌّ بالله، لكن عبَد معه غيره، فهو خيرٌ من المعطِّل للذات والصفات[2].

ولأجل هذا عدَّ العلماءُ الجهميةَ كفَّارًا؛ نصَّ على ذلك عدد كبير من العلماء، وحكاه الطبراني واللالِكائي عن خمسمائة عالِم، قال ابن القيم في «نونيته»:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البلْدَانِ
واللَّالكائي الإمامُ حَكاهُ عنْـ ... ـهمْ بلْ حَكاهُ قبْلَه الطَّبَراني[3]

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٥/ ٢٠).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٣) وذكر ابن القيم في «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص١٣٠) **أن التعطيل ثلاثة أقسام**:

١- **تعطيل المصنوع عن صانعه**: كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا أن هذه المخلوقات=

٣/ **التكييف**: وهو أن يجعل لصفة الله كيفية وصفة وحالة معلومة نعلمها.

وليس مذهب أهل السنة ألَّا نعتقد لها كيفيةً، بل لها كيفيةٌ، لكننا ننفي علْمنا بالكيفية.

ومن المعلوم أن كيفية صفات الله مما استأثر الله بعلمه، فلا سبيل لنا إلى الوصول إليها، فنحن لا نعلم كيف هي ذاته، والصفةُ فرعٌ عن الذات، فكما أننا لا نعلم كيف ذاته، فكذلك صفاته.

وقد سُئِل مالك عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥]: كيف استوى؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(١).

فالاستواء معلومٌ في لغة العرب، ولكن كيفية استواء الله مجهولةٌ بالنسبة لنا، لا يَعلم حقيقتها وكيفيتها إلا هو سبحانه، والإيمان به واجب؛ للأدلة على وجوب الإيمان بالأسماء والصفات، والسؤالُ عن الكيفيةِ بدعةٌ، ورُوِي هذا الجواب أيضًا عن رَبيعة بن عبد الرحمن(٢)، وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ(٣).

= قديمة ولا خالق لها، وأنها تتصرف بطبيعتها.

٢- **تعطيل الصانع عن كماله المقدس**: بتعطيل أسمائه وصفاته، كتعطيل الجهمية والمعتزلة ونحوهما، وهذا هو المراد هنا في باب الصفات.

٣- **تعطيل حق معاملته**: بترك عبادته، أو عبادة غيره معه.

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٦٤).

(٢) المصدر السابق (٦٦٥).

(٣) المصدر السابق (٦٥٨).

واعلم: أن هذه المقولة من مالكٍ هي جوابٌ شافٍ في جميع مسائل الصفات، فحين يَسأل إنسانٌ عن مجيء الله أو نزوله، أو سمعه أو بصره، فلك أن تقول: المجيء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب؛ لأن العلم بكيفية الصفات هو فرع عن العلم بكيفية الذات.

وأهل السنة لا يكيِّفون صفات الله؛ لأمرينِ:

١- **أنه ليس لديهم علمٌ بهذا**، والقول في هذا بلا عِلم من أعظم الذنوب، ولمَّا ذكر الله كبار الذنوب ذكَرَ منها: ﴿**وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ**﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٩].

٢- أن كيفية الشيء لا تُدرك إلا بأحد أمور ثلاثة:

١- مشاهدته.

٢- مشاهدة نظيره.

٣- **خبر صادق عنه**، وهذا كله منتفٍ في حق الله[(١)].

٤/ التمثيل: وهو التشبيه، يقال: مَثَّلَ الشيءَ بالشيءِ؛ أي: سوَّاه وشبَّهه به، فالشبيه والمثيل والنظير ألفاظ متقاربة[(٢)].

والمعنى: أن صفات الله لا تُمَثَّل بصفات خلْقه، فلا نقول بأن صفة الله مثل صفة المخلوق؛ فإنه سبحانه لا مِثل ولا شبيهَ ولا نظير له، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا صفاته، ولا أفعاله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشّورى: الآية ١١].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣/ ٣٣)، و«شرح الواسطية»، للعثيمين (١/٩٨).

(٢) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٢٩٦)، و«النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٢٩٥).

والتشبيه أو التمثيل الممنوع قسمانِ:

١- تشبيه المخلوق بالخالق: كتشبيه النصارى عيسى بالله، واليهودِ عُزيرًا بالله، والمشركين أصنامَهم بالله، وهذا النوع أعظم الذنوب، ومحبِطٌ لجميع الأعمال، وهو الذي أُرسِلت الرسل وأُنزِلت الكتب لأجله(١).

٢- تشبيه الخالق بالمخلوق: كقول المشبِّه: للهُ يدٌ كأيدينا، وسمعٌ كأسماعنا، وهذا هو الذي صُنِّفت كُتب الاعتقاد للردِّ على قائله(٢).

فإن قيل: كيف نجيب عن قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»(٣)، فهذا قد يُفهَم منه التمثيل والتشبيه؛ إذ لا يُعقل صورةٌ إلا مماثلة للأخرى، **فكيف الجمع؟**

١- اختلف الناس في مرجع الضمير في قوله: «**عَلَى صُورَتِهِ**»، فمنهم من قال: إن الضمير يعود على المضروب، وهو مرويٌّ عن ابن خزيمة(٤).

ومنهم من قال: إن الضمير يعود إلى (آدم)، وهو مرويٌّ عن أبي ثور(٥).

والصواب المقطوع به: أن الضمير يعود إلى الله، **وقد حكى ابن تيمية**

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢٥٩).
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٦١٢).
(٤) «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٨٤).
(٥) انظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٠٩).

اتفاق السلف في القرون الثلاثة المفضَّلة على أن الضمير يعود إلى الله، **قال**: لكن ظهر لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة، جعل طائفةٌ الضمير فيه عائدًا إلى غير الله تعالى، حتى نُقِل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم، كأبي ثور وابن خزيمة وأبي الشيخ الأصبهاني وغيرهم؛ ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة[١].

ثم ذكر ابن تيمية ثلاثة عشر وجهًا في عود الضمير إلى (الله)[٢].

٢- عندنا أصل عامٌّ في الصفات، وهو أنه سبحانه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى: الآية ١١]، فنحن نثبت له الصفات على ما يليق بجلاله، مع اعتقاد نفي التشبيه.

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي عندي - والله تعالى أعلم - أن الصورة ليست بأعجب من اليدَين، والأصابع، والعين، وإنما وقع الإلْف لتلك؛ لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه؛ لأنها لم تأتِ في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حدٍّ»[٣].

٣- لا يلزمُ مِن كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مماثلًا له من كل وجه؛ بدليل أن النبي ﷺ قال: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ**...»[٤]، فهمْ على صورة البشر لا القمر، لكن على صورة القمر في

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٦/ ٣٧٦ - ٣٧٧).
(٢) المصدر السابق (٦/ ٤٢٣).
(٣) «تأويل مختلف الحديث» (ص٣٢٢).
(٤) أخرجه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة.

الوضاءة والحسن والجمال ونحو ذلك، لا من كل وجهٍ.

وإذا تقرر هذا، **فإما** أن نُجْري النص على ظاهره مع نفي التمثيل، وهذا مذهب جمهور السلف.

وإما أن نقول: بأن إضافة الصورة لله هي من باب إضافة المخلوق إلى خالقه[(١)]، فقوله: **(عَلَى صُورَتِهِ)** مثل قوله تعالى في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحِجر: الآية ٢٩]، وليس المراد أنه أعطاه من رُوحه، وإنما الرُّوح التي خلقها الله وأُضِيفت لله من باب التشريف، فكذا الصورة إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التشريف، كأنه ﷻ اعتنى بهذه الصورة، ومن أجل ذلك نُهِي الإنسان عن ضرب الوجه، ونظير ذلك قول: بيت الله، وناقة الله، وعبْد الله.

وهذا ما قرره العلّامة العثيمين[(٢)].

الرابعة: اعلم أن كل معطِّل للصفات فهو واقع في التشبيه، وبالعكس، وبيان ذلك أن يقال: إن المعطِّل لم يفهم من صفات الله إلا ما يليق بالمخلوق، فأراد بزعمه الفاسد تنزيهه عن ذلك، فوقع في التعطيل، فشَبَّه أولًا، وعطَّل ثانيًا.

وكذلك المشبِّه عطَّل الصفة التي تليق بالله، ووصفه بصفات المخلوق، فعطَّل الله عن صفاته أولًا، وشبَّه ثانيًا، فكل معطِّل مشبِّه، والعكس، وهذا الذي قرره ابن تيمية في «الحموية»، وبيَّن أن مذهب السلف بين التعطيل والتمثيل؛ فلا يمثِّلون صفات الله بصفات خلْقه، كما

(١) انظر: «أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات» (ص١٦٩).
(٢) «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/١٠٨).

لا يمثِّلون ذاته بذوات خلْقه[(١)].

الخامسة: يُقَرِّرُ أهلُ السنة في هذا الباب ثلاثة أمور:

١- أسماء الله: وهذه لا يجوز أن تُطلَق على الله إلا إذا ثبتت بها النصوص، فلا يُسمى الله إلا بما سمَّى به نفسه أو سماه به رسوله.

٢- صفات الله: وهذه كذلك، فلا يُوصَف الله إلا بما وصف به نفسه، قال الإمام أحمد: لا يُوصَف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يُتجَاوَزُ القرآن والحديث[(٢)].

٣- الإخبار عن الله: وهذا يجوز بما لم يَرِد، بقيدِ أن يكون مما فيه معنًى حسنٌ متحقِّق في الله، قال ابن تيمية: «يُفرَّق بين دعائه والإخبار عنه؛ فلا يُدْعى إلا بالأسماء الحسنى، وأما الإخبار عنه فلا يكون باسم سيئٍ، لكن قد يكون باسم حسنٍ أو باسم ليس بسيئٍ وإن لم يُحكَم بحُسْنه، مثل اسم (شَيء)، و(ذات) و(موجود)، إذا أُرِيد به الثابت»[(٣)].

وقال ابن القيم: «ما يَدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه؛ فإنه يُخْبَرُ به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا»[(٤)].

---

(١) «الفتوى الحموية الكبرى» (ص٢٦٧)، وانظر: «الصواعق المرسلة»، لابن القيم (١/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٢٥٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٤٢).

(٤) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١).

وقوله: بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: الآية ١١]، فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، ولَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَإِنَّهُ سبحانه أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ).

❐ اعلم أن لأهل السنة في منهجهم في الأسماء والصفات سِماتٍ، أشار لها المصنِّف في هذا الكلام، وهي:

١- أهل السنة: **يعتقدون أن الله ليس كمثله شيء**، فهو فردٌ واحدٌ في أسمائه وصفاته، وكذلك يعتقدون أنه سميع بصير، ويثبتون له ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله من الأسماء والصفات، ولا تنافيَ بين هذين الأمرين، وقد وردا في آية واحدة، وهي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: الآية ١١].

٢- من سمات أهل السنة: **أنهم لا يحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه**، أي: لا يغيِّرونه ويفسِّرونه بغير معناه؛ ولذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن الكفار: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٤٦]، قال ابن كثير عنها: «أي: يتأولونه على غير تأويله، ويفسِّرونه بغير مراد الله، قصدًا منهم وافتراءً»[١].

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢٣).

٣- مِن سماتهم: أنهم لا يُلحِدون في أسماء الله وآياته، والإلحادُ هو المَيل، فأهلُ السنة لا يَميلون ولا يعدلون عن الحق.

وقد عرَّفَ ابنُ القيمِ الإلحادَ في أسماء الله بأنه: العدولُ بأسماءِ الله وصفاتِهِ وآياته عن الحَقِّ الثابت(١).

٤- مِن سماتهم: أنهم لا يَسألون عن صفات الله بـ(كيف)، ولا يقولون: صفةُ الله كذا وكذا، وتقدم الكلام عن التكييف، وأن أهل السنة يعتقدون أن لصفات الله كيفية، وأنها صفات حقيقة، ولكنَّ عِلمَ الكيفيةِ مما لا نعلمه، فنقف على ما نعلمه، وهو إثبات الصفة، مع اعتقاد أن لها حقيقة تَليق بجلال الله سبحانه.

---

(١) وذكر: **أن الإلحاد في أسماء الله وصفاته أنواع:**

١- **أن يُسمَّى الأصنام بها:** كتسميةِ اللاتِ من الإله، والعُزَّى من العزيز.

٢- **تسميته سبحانه بما لا يليق بجلاله:** كتسمية النصارى له أبًا، والفلاسفةِ له موجِبًا.

٣- **وصْفُه سبحانه بما يُنزَّه ويَتقدَّس عنه من النقائص:** كقول أخبث اليهود: إن الله فقير، وقولهم: يَدُ الله مغلولة.

٤- **تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها، وجحْد حقائقها:** كقول الجهمية: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفاتٍ ولا معانيَ، فيقولون: سميعٌ بلا سمع، وبصيرٌ بلا بصر، وحيٌّ بلا حياة.

٥- **تشبيه صفاته بصفات خلْقه:** فيمثِّلون صفاتِه، ويقولون: لله يدٌ كأيدينا، وسمعٌ كأسماعنا، تعالى الله عن قول الملحدين علوًّا كبيرًا.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فجمَعهم الإلحاد، وتفرقَت بهم طُرُقه، وبرَّأ اللهُ أتباعَ رسوله وورثته القائمين بسُنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصَف به نفسه، ولم يجحدوا صفاتِه، ولم يشبِّهوها بصفات خلْقه، ولم يعدلوا بها عما أُنزِلت عليه لفظًا ولا معنًى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وتنزيههم خاليًا من التعطيل. «بدائع الفوائد» (١/ ١٧٠).

٥- مِن سماتهم: **أنهم لا يمثِّلون صفاتِه بصفات خلْقه**: فيُثبِتون من غير أن يمثِّلوا صفته بصفة خلْقه، ولا أن يقيسوه بخلْقه؛ لا في صفاته، ولا في أفعاله[(١)]، فمذهبهم إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل؛ لأنه سبحانه لا سَمِيَّ له ولا نظيرَ، قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥]؟ أي: مَن يساميه ويماثِله؟![(٢)].

قوله: (فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ.
ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ).

❏ **مستند أهل السنة فيما اعتقدوه في الأسماء والصفات وغيرها على القرآن والسنة،** فَهُما الطريق لتقرير المعتقد في باب الأسماء والصفات، وقد بيَّن المصنفُ هنا أن هذا هو المنهج الحق؛ **لأمرين**:

١- أن الذي جاء بالقرآن هو الله، واللهُ أعلمُ بنفسه وبغيره، وهو كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النِّساء: الآية ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٢]، ولم يترك هذا الباب - وهو باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته - ملْتبسًا، بل قد بيَّنه الله بيانًا شافيًا لا لَبْسَ

---

(١) وقد ضلَّ في ذلك المعتزلة، فقاسوا الله بخلقه في الأفعال، ووصفوا له شريعة من أنفسهم، فقالوا: يجب على الله كذا، ويحرم عليه كذا، بالقياس مع المخلوق؛ ولذا قيل: المعتزلة مشبِّهة في الأفعال معطلةٌ في الصفات، ومن أصول المعتزلة: العدل، وهو تشبيههم الخالق بالمخلوق فيما يحسن ويقبح من الأفعال.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٥٨٥، ٥٨٦).

فيه ولا إشكالَ، فكيف نأخذ ما نعتقده تجاهه من غيره، وندع ما أخبر به هو نفسه سبحانه؟!

٢- أن النبي ﷺ وبقيةَ الأنبياء هم الصادقون المصدَّقون، صادقون فيما جاؤوا به من عند الله، ومصدَّقون فيما يأتيهم من الوحي، ويجب على أُمَمهم تصديقهم، ولا يصح لإنسانٍ قولٌ ولا عملٌ إلا باعتقاد صدقهم، وأنهم بلَّغوا الرسالة، وأدَّوا الأمانة، وإذا كان كذلك فمحالٌ أن يتركوا باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملْتبسًا، وهو أشرف العلوم وأجلُّها على الإطلاق، بل قد بيَّنوه أوضح بيانٍ ولم يبقَ فيه إشكال. والتوحيد، والاعتقاد، وعبادته وحده لا شريك له، ومعرفته بأسمائه وصفاته، هي أعظم ما جاء به محمد ﷺ وإخوانه من الرسل، فهم - وإن اختلفت الشرائع - إلا أن أصل دينهم واحد، وقد قال ﷺ: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١).

قال ابن تيمية: «ومعلوم أن الرسول ﷺ بلَّغ الرسالة كما أُمر، ولم يكتم فيها شيئًا؛ فإن كتمان ما أنزله الله عليه يناقض موجب الرسالة، كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة»(٢).

ولأجل هذينِ الأمرينِ فالمعتمد في الاعتقاد هو على كتاب الله، وسُنة رسوله ﷺ، **قال الشافعي:** «آمنتُ باللهِ وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ»(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٥).
(٣) انظر: «لمعة الاعتقاد» (ص٧).

وقال الإمام أحمد: «لا يُوصَف الله إلا بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث»(١).

قوله: (وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]، **فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ).**

❐ **ذكر المؤلِّف هذه الآيةَ دليلًا على**: إثبات صدق الرُّسل، وصحَّة ما جاؤوا به، وأنهم بلَّغوا الرسالة، وأدَّوا الأمانة، ووصفوا الله بما يليق به من صفات الكمال، ونزَّهوه عن صفات النقص، وأن من قال بخلاف ما جاؤوا به فهو كاذبٌ على الله، قائلٌ بلا علم.

فتضمنت الآية أمرينِ:

١- **تسبيحَ الله نفسه**، أي: تنزيهَهُ عما وصفه به المخالِفون للرسل، الذين وصفوه بالنقائص والعيوب، وألْحدوا في أسمائه.

٢- **السلامَ على المرسَلين**، الذين وصفوه بصفات الكمال، ونزَّهوه عما لا يليق به؛ لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، أي: أن ما قالوه في ربِّهم سالمٌ مِن النقص والعيب؛ فإنهم أعلمُ الخلق بالحقِّ، وأنصحُهم، وأفصحُهم، وأقدرُهم على البيان، فما بيَّنوه فهو الحقُّ الذي يجب اعتقاده ولا تحلُّ مخالفته.

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٢٥٢).

قوله: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ).

❑ **مما يقرِّره أهل العلم في باب الأسماء والصفات**: أن الله جمَع في القرآن بين النفي والإثبات؛ فنفى عن نفسه صفاتٍ، وأثبت لنفسه كذلك صفاتٍ، وغالبًا ما يكون النفيُ مجمَلًا، فإذا نفى الله عن نفسه صفةَ نقصٍ نفاها على سبيل الإجمال من دون تفصيل، وأما الإثباتُ فبعكس ذلك؛ إذ يكون - غالبًا - على وجه التفصيل.

فالنفي كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى: الآية ١١]، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: الآية ٤]، فالنفي مجملٌ لجميعِ السِّنة والنوم، وعن أن يوجد له كفؤٌ، أو مِثْلٌ، ونحو ذلك.

والإثبات كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: الآية ١١]، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٨]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]، فالإثبات مفصَّل، بتَعداد الصفات المثبَتة.

◈ وقد يأتي **النفيُ مفصَّلًا**، وهذا - غالبًا - لا يَرِدُ إلا بعد وصْفِ الله بما لا يليق، كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]، وكتنزيه الله عن الولد.

◈ وقد يأتي **الإثباتُ مجملًا**، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٧].

❍ **واعلم** أن النفي في صفات الله ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو

مقصودٌ لغيره؛ إذ النفيُ المحضُ ليس بمدحٍ، بل هو عدمٌ محض ولا مدْحَ فيه، **قال ابن تيمية**: «وينبغي أن يُعْلَمَ أن النفي ليسَ فيه مدحٌ ولا كمال، إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجردُ النفيِ ليس فيه مدْحٌ ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدمٌ محض، والعدمُ المحْض ليس بشيء، وما ليس بشيء هو -كما قيل- ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون مدْحًا أو كمالًا»[1].

قوله: (فَلا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ عَمَّا جاءَت بِهِ المُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّراطُ المُسْتَقِيمُ، صِراطُ الذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِن النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقينَ، وَالشُّهَداءِ، وَالصَّالِحينَ).

❐ هذا المنهج الذي سبق بيانه - ويأتي ذكره بالتفصيل، والذي مستنده الكتاب والسنة - هو منهج أهل السنة والجماعة، وهو الصراط المستقيم، الذي مَن لزِمه نجا، ومَن تمسَّك به سلِم، وهو الصراط الذي يدعو المسلمُ ربه في كل صلاةٍ أن يهديه إليه، وهو الذي سلكه الأنبياء والصِّدِّيقون والشهداء والصالحون، فمَن أراد النجاة فلا يَعدِل عنه ولا يَحِد ولا يَمِل ولا ينحرف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣].

وإنما أفرد الصراط المستقيم المعنوي؛ لأن الحقَّ واحدٌ، فلا صراطَ ولا طريقَ يوصِل إليه إلا واحد، وهو عبادةُ الله بما شرع على لسان رسوله ﷺ.

(١) «الرسالة التدمرية» (ص٥٧).

ولا ينافي هذا قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [المَائدة: الآية ١٦]؛ فإن المراد بها: طرقُ مرضاةِ الله التي يجمعها سبيلُه الواحد.

❑ وهاهنا لفتةٌ:

وهي أن الإنسان في طريق الحق قد يستوحشُ من قلَّة السالكين في زمانه، وعندها عليه أن يتذكر أن طريقه قد سبقه إليه النبيون والصدِّيقون والشهداء والصالحون، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٩]، ولذا قال بعض السلف: لا تستوحشْ من الحق لقلَّة السالكين، ولا تغترَّ بالباطل لكثرة الهالكين؛ ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٣][1].

❍ ولما قرر المصنِّف منهج أهل السنة تجاه صفات الله سبحانه، وهو أنهم يثبتونها من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، وأن مستندهم في ذلك الكتاب والسنة؛ ساق جملةً من الآيات، ثم جملةً من الأحاديث التي ذكر فيها بعض صفات الله سبحانه، وإنما ساقها مستشهدًا بها على إثبات الصفة، وفي القرآن أضعاف ما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ، وأنا أشير إلى هذه النصوص مع تعليق موجزٍ يبيِّن ما تضمنته من صفات.



(١) عزاه النووي إلى الفضيل بن عياض في «الأذكار» (ص١٦٠).

قوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص]).

أي: يدخل في نصوص الصفات التي يجب على المسلم أن يعتقدها: أن يُثبِتَ لله ما أثبته لنفسه مِن صفات الكمال، ونفي الشبيه والمثال، في «سورة الإخلاص».

و«سورة الإخلاص» قد ابتدأت بتوحيد الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]، وسُمِّيت بذلك لأنها أُخلِصَت في صفة الله، ولأنها تُخَلِّصُ قارئها الذي حقَّقها من الشرك العلمي الاعتقادي[(١)].

وهي تعدلُ ثلث القرآن، في الجزاء لا في الأجزاء، ودل لذلك حديث أبي سعيد الخدْري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالُّها، فقال النبي ﷺ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**»[(٢)].

ووجه ذلك ما ذكره ابن القيم: أن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيد، وقصص، وأحكام، وهذه السورة أخلصت في صفة الرحمن[(٣)].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٣).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٠، ٤٥١)، و«زاد المعاد» (١/ ٣٠٦)، و«الصواعق المرسلة» (٣/ ٩١٢).

وقد قيل في سبب نزولها: حديث أُبَيٍّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسُبْ لنا ربك، فأنزل الله هذه السورة»(١).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ١]: فردٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شريك ولا مثيل ولا نظير له.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: الآية ٢]: الصمد: قيل: السيد الذي انتهى وكَمُلَ في سُؤدده، والعربُ تسمي أشرافها: الصمد. وقيل عن ابن عباس: هو الذي يَصمُد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم. وقيل: هو الذي لم يلد ولم يولَد(٢)، وجمع ابن عثيمين بين هذه التفاسير بتفسير جامع، فقال: الصمد: هو الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، فهي صامدة إليه(٣).

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: الآية ٣]: ليس لله ولدٌ، وهذا ردٌّ على اليهود في قولهم: عُزَير ابن الله، والنصارى في قولهم: المسيحُ ابن الله، والمشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: الآية ٤]: «الكُفو»: المِثل والشبيه، فنفى الله ذلك عنه.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٤)، وأحمد (٢١٢١٩).

(٢) انظر هذه الأقوال في: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣١ - ٧٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٨).

(٣) «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ١٦١).

قوله: (وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]؛ **أي: لا يُكرِثُهُ ولا يُثْقِلُهُ).**

أي: أنه يدخل في نصوص الصفات التي يجب على المسلم أن يعتقدها: ما ورد في آية الكرسي، التي هي أعظم آية في كتاب الله، دلَّ لذلك حديث أُبَي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي ﷺ قال له: «**أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» فقال: آية الكرسي، فقال: «**لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ**»[(١)].

وسُمِّيت آية الكرسي؛ لِذكر الكرسي فيها.

والكرسي: مخلوقٌ عظيم، قال ابن عباس: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يُقَدِّرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ»[(٢)].

وقد ورد في حديث أبي ذَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).
(٢) أخرجه عبد الرزاق (٣٠٣٠)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٥٨٦).
(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٧).

❏ **وقد تضمنت هذه الآية أمورًا متعلِّقة بصفات الباري سبحانه، وهي:**

١- وصف الله بالألوهية، وتفرده بذلك: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢- إثبات الحياة الكاملة له، وهو الدائم الباقي: ﴿ٱلۡحَيُّ﴾.

٣- إثبات القيومية الكاملة له سبحانه: ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.

والقيُّوم: هو القائم بنفسه، المُقِيم لِما سواه(١).

وذكر ابن القيم: أن هذَين الاسمَين - «الحي القيوم» - عليهما مدار الأسماء الحسنى، وإليهما ترجع معانيها جميعًا، فالصفات الذاتية كلها ترجع إلى اسم (الحي)، والصفات الفعلية ترجع إلى اسم (القيوم).

قال: فإن الحياة مستلزمةٌ لجميعِ صفاتِ الكمال، ولا يتخلَّفُ عنها صفةٌ منها إلا لضعْفِ الحياة، فإذا كانت حياتُه تعالى أكملَ حياةً وأتمَّها، استلزم إثباتُها إثباتَ كلِّ كمالٍ يُضادُّ نفي كمال الحياة.

قال: وأما «القيوم» فهو متضمِّن كمال غِناه، وكمال قدرته؛ فإنه القائم بنفسه، لا يحتاج إلى مَن يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عمَّا سواه، وهو المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته.

فانتظم هذانِ الاسمانِ صفاتِ الكمال والغِنَى التام، والقدرة التامة، فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى، وبكل صفة من صفاته، فما أَولى الاستغاثة بهذينِ الاسمينِ أن يكونا في مظنة تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإنالة الطلبات(٢).

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (١/ ٢٦٣).
(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٦٧٩).

٤- نفيُ الله عن نفسِه السِّنَةَ والنوم؛ فأما السِّنَةُ فهي مقدِّمَةُ النومِ وثِقَلُ الرأس به[(١)]، وأما النوم فمعروف، وهذا تأكيد لقيوميته سبحانه؛ حيث لا يَعتريه غفلةٌ ولا نوم ولا ذُهول، ولا يغيب عنه شيء، فالله لا يُعجِزه ولا يُعنِته شيء، بخلاف المخلوق الذي يَعتريه النقص والتعب، فيحتاج للراحة، وقد ورد في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»[(٢)].

٥- أثبت الله لنفسه اسمينِ تَضمَّنا صفتينِ، وهما:

١/ العَلِي: فلله سبحانه العلو الكامل من جميع الوجوه: عُلو القدْر، وعُلو القهر، وعُلو الذات.

٢/ العظيم: فلله صفةُ العظَمة، فهو سبحانه العظيم الذي لا أجلَّ ولا أعظم منه، لا في ذاته، ولا أسمائه وصفاته، ولا أفعاله.

وهذه الآية وُصفت بأنها أعظم آية في القرآن؛ لِما حوته من الثناء على الله وذِكر صفاته[(٣)].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٥٣٠ - ٥٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩).

(٣) قال ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٣٧١): ففي آية الكرسي ذَكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات، وذكر معها قيُّوميته المقتضية لذاته وبقائه، وانتفاء الآفات جميعها عنه من النوم والسِّنة والعجز وغيرها، ثم ذكر كمال ملكه، ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه، وأنه لا يَشفع عنده أحد إلا بإذنه، ثم ذكر سَعة علمه وإحاطته، ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه، ثم ذكر سَعة كرسيِّه منبِّهًا به على سَعته سبحانه وعظمته وعُلوه، وذلك توطئة بين يدي ذِكر علوه وعظمته، ثم أخبر عن كمال اقتداره، وحِفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراث ولا مشقة ولا تعبٍ، ثم ختم الآية بهذينِ الاسمينِ الجليلينِ، الدالَّين على علو ذاته=

قوله: (ولهذا كانَ مَن قرأَ هذه الآيةَ في ليلةٍ، لم يَزَلْ عليه من اللهِ حافظٌ ولا يقربُهُ شيطانٌ حتى يُصبِحَ).

ثبت هذا في «صحيح البخاري»، في قصة أبي هريرة مع بيت المال والشيطان، وفيه أنه جاء ثلاث مراتٍ ليسرق من بيت المال، وحين أخذه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليسلمه للنبي ﷺ قال له: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ؛ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ**»[(١)].

= وعظمته في نفسه.

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١) معلَّقًا بصيغة الجزم، وبسياق مطول: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يَحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخلَّيت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هُريرةَ، ما فعَل أسيرُك البارحةَ؟**» قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجةً شديدةً، وعيالًا، فرحمته، فخلَّيت سبيله، قال: «**أمَا إنه قد كذَبَك، وسيعود**»، فعرَفت أنه سيعود؛ لقول رسول الله ﷺ: «**إنه سيعود**»، فرصَدْته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني؛ فإني محتاج، وعلَيَّ عيال، لا أعود، فرحمته، فخلَّيت سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعَل أسيرُك؟**» قلت: يا رسول الله، شكا حاجةً شديدةً، وعيالًا، فرحمته، فخلَّيت سبيله، قال: «**أمَا إنه قد كذَبَك وسيعود**»، فرصَدْته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله، وهذا آخِرِ ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود، ثم تعود، قال: دعْني أعلِّمْك كلماتٍ ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويتَ إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]، حتى تختم الآية؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظٌ، ولا يقربنَّك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرُك البارحة؟**» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «**ما هي؟**» قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي...

وقوله سبحانه: (﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفُرقان: ٥٨])(١).

❑ **تضمنت الآيةُ إثباتَ صفةِ الحياة لله تعالى**، وسبَق أنها حياةٌ كاملةٌ، لا يَلْحَقُها نقْصٌ، ولا يعتريها موتٌ، وأما الخَلقُ فإنَّ حياتهم ناقصةٌ، فهم يموتون: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

فالله أمَر نبيه ﷺ أن يتوكَّل على الحي الذي لا يموت، وأن يفوِّض أمرَه إليه، فمن توكَّل عليه كفاه، ويسَّر له كل شديد، وقرَّب إليه كل بعيد؛ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: الآية ٣].

ومن أسماء الله «الكافي»: أي الكافي لعبده، والقائم بأموره ومصالحه.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [الحَديد: الآية ٣].

❑ **تضمنت الآيةُ بيانَ عُلوِّ الله، وقُربِه، وأوَّليته، وأبَديته.**

الأول: الذي ليس قبله شيء.

والآخر: الذي ليس بعْده شيء.

والظاهر: العالي المرتفع الذي ليس فوقه شيءٌ، ومنه قوله: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ [الكهف: الآية ٩٧]، أي: يعلوه، وقرَّر النبي ﷺ هذا

---

(١) **التوكل**: **لغةً**: التفويض، يقال: وكَّلْت أمري إلى فلان، أي: فوَّضْته.
وشرعًا: صدق اعتماد القلب على الله في جلْب ما ينفع ودفْع ما يضر، مع فعل الأسباب.

المعنى في الحديث بقوله: «**فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»؛ أي: أنت فوق الأشياء كلها.

والباطنُ: الذي ليس دونه شيء، أي: أنه مع علوِّه بذاته سبحانه على جميع مخلوقاته، فإنه قريب منهم بعِلمه، لا يَحول ولا يخفى عليه شيء.

وقد وردت هذه الأسماء الأربعة في دعاء النبي ﷺ: «**اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»[(١)].

قال ابن القيم: «فهذه الأسماء الأربعة متقابلة، اسمانِ لأزَلِ الرب تعالى وأبَدِه، واسمانِ لعُلوه وقُرْبه»[(٢)(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٢) «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٤٣٤).

(٣) **فائدة: القديم ليس من أسماء الله؛ لأمرينِ:**

١- أن أسماء الله توقيفية، لا تثبت إلا بنص، ولم يَرِد نصٌّ في تسميته بذلك في القرآن والسنة، ولا في أقوال الصحابة، وإنما ورد أن الله سمَّى نفسه بالأول والآخِر، وهذا يغني عن (القديم)، بل أبلغ منه في الدلالة على القِدَم.

٢- أن أسماء الله كلها حسنى، أي: بالغة في الحسن منتهاه، فلا نقْص فيها بوجهٍ من الوجوه، وليس هذا في اسم (القديم)؛ لأن القِدَم قسمانِ: حقيقي، وهو الذي لم يسبقه قِدم، ونسبي، وهو قِدمُ بعض المخلوقات على بعض، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٩] ذكَر هذينِ الوجهينِ العلامة عبد الله أبا بطين في تعليقه على «لوامع الأنوار»، للسفاريني (١/ ٣٨).

وإذا تقرر هذا فثَمة أمرانِ:

١- يصح إطلاق لفظ (القديم) على وجه الإخبار عن الله، لا على وجْه الاسمية، قال ابن القيم: «ما يُطلَق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفيٌّ، وما يُطلَق عليه من الإخبار لا يجب أن يكون توقيفيًّا؛ كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه». «بدائع الفوائد» (١/ ٢٨٤).
=

وقوله: (﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرف: الآية ٨٤]).

❐ **تضمنت الآية إثبات اسمَيِ «الحكيم والعليم»، وصِفتَي الحكمة والعلم.**

والحكيم: مشتقٌّ مِن الإحكام، فالحكيم هو المتقِنُ للأشياء، الذي يضع الأمور في مواضعها، وإحكام الله وحكمته تكون في شرعه وأمره، وفي خلْقه وقَدَره.

والعليم: صيغةُ مبالَغةٍ، والمراد: أن الله موصوفٌ بالعلمِ التامِّ الذي لا يُسبَقُ بجهلٍ، ولا يَغيبُ عنه شيء؛ فقد أحاط بكل شيء علمًا، سبحانه[(١)].

وقوله: (﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٨]).

❐ **تضمنت الآية إثبات اسمَيِ «الحكيم» و«الخبير»، وصِفتَي الحكمة والخِبرة والعلم لله تعالى، فالخبير:** ذو الخِبرة، وهي العلم التام الكامل

= وقال الشيخ عبد الله أبا بطين: «لا يصح إطلاق (القديم) على الله باعتبار أنه من أسمائه، وإن كان يصح الإخبار به عنه؛ كما قلنا: إنَّ باب الإخبار أوسع من باب الإنشاء». انظر كلامه في: «لوامع الأنوار البهية» (١/ ٣٨) في الحاشية.

٢- إدخال القديم في أسماء الله إنما هو من فعل المتكلمين؛ لأنه يحتمل معنيَين، قال ابن أبي العز: «قد أدخل المتكلمون في أسماء الله تعالى (القديم)، وليس هو من الأسماء الحسنى؛ فإن (القديم) في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو المتقدِّم على غيره، فيقال: هذا قديمٌ، للعتيق، وهذا حديث، للجديد، ولم يَستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدِّم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدمٌ». «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٧٧).

(١) انظر: «القواعد المثلى» (ص٧).

بالأشياء، الذي انتهى عِلمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها، فالخبير أخصُّ من العليم.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سَبَأ: الآية ٢]، **وقوله**: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعَام: الآية ٥٩]، **وقوله**: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ [فَاطِر: الآية ١١]، **وقوله**: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطَّلَاق: الآية ١٢].

❏ **تضمنت هذه الآيات الأربع إثباتَ صِفةِ العلمِ لله تعالى**، وهو العلمُ الكاملُ من جميع الوجوه، وهو علمٌ كاملٌ شاملٌ محيطٌ بجميع المعلومات، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكُن لو كان كيف يكون.

وقد ورد في الآيات أن الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما يدخل في الأرض من القَطْر والبذور والكنوز والموتى وغير ذلك.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: من النبات والمعادن وغيرها.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: من المطَر والملائكة وغير ذلك.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾، أي: كل ما يصعد في السماء.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: وهي الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا هو،

وهي خزائن الغيب أو الطُّرق الموصلة إلى عِلمه.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ﴾: من النبات والدواب وغيرها.

﴿وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾: من الحيوانات والجواهر وغيرها.

﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾: من أشجار البَرِّ إلا يعلمها سبحانه.

ولا يكون في الأرض من رَطْبٍ ولا يابس إلا والله يعلمه، وكَتبه في كتاب مبين - وهو اللوح المحفوظ - قبل أن يخلُق السماوات والأرض.

وهو سبحانه **ما تَحمل من أُنثى ولا تضع إلا بعِلمه**، فيعلم في أيِّ يوم تَحمِلُ، ومتى تضعُ؟ وأين تضع؟ وما رِزقُه؟ وما أجَله؟ وهل هو ذكَرٌ أو أنثى؟ سواء كانت الأنثى آدميةً، أم حيوانًا، أم طيرًا.

وهو سبحانه **قد أحاط بكل شيء علمًا وقدرةً**، فلا تخفى عليه خافيةٌ، ولا يَخرج عن علمه شيءٌ منها، كائنًا ما كان.

ومع كل هذا فهو مع العباد أينما كانوا، وهذه معيَّةٌ عامةٌ، مقتضاها إحاطته واطِّلاعه وعلمه ﷻ بما يكون من العباد في أيِّ مكان وُجِدوا.

❍ **فائدةٌ**: صفة العلم من الصفات الذاتية، والإيمان بها واعتقادها يورِث في القلب تعظيمَ الله، ومراقبتَه، والخوفَ منه؛ لأنه يوقِن أن الله عليمٌ بكل شيء.

ويورث في القلب يقينَ الإنسانِ بحاجته لله في كل شيء، وفي كل زمان ومكان، فهو جاهل، والله بكل شيء عليم، ومهْما أُوتِيَ ابنُ آدمَ من العلم فهو عِلم قليل، مسبوقٌ بجهل، ومتبوع بجهل، وهو علمٌ

ناقص، وما ناله إلا بتوفيق من الله العليم سبحانه[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾
[الذَّاريَات: الآية ٥٨].

❑ **تضمنت هذه الآية إثبات صِفتَين؛ هما:**

١/ **صفة الرزقِ لله:** وهي من الصفات الفعلية لله سبحانه، **والرِّزق شرعًا:** ما ينفعُ مِن حلالٍ أو حرام، **والرزقُ الذي يأتي من الله قسمانِ:**

١- **الرزق المطلَق، أو الخاص:** وهو المستمِر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو رِزق القلوب بالعلم النافع والإيمان والعمل الصالح، والرزق الحلال المُعِين على طاعة الله.

---

(١) **وقد ضلَّ في هذه الصفة ثلاثُ طوائف:**
١ - **الفلاسفة:** حيث قالوا: إن الله يعلم الكُلِّيات دون الجزئيات، وهذا كذبٌ وضلال، وهو من أخبث الأقوال وشرِّها، ولهذا لم يقُلْ به أحد من طوائف الملَّة.
ومما يبيِّن ذلك ويَرُد عليهم: أن القرآن فيه إخبار الله بالأمور المفصَّلة عن الشخص وكلامه المعين، وثوابه وعقابه المعيَّنَين، مثل قصة آدم ونوح وهود وغيرهم، وإخبار القرآن عن أحوال محمد ﷺ، وما جرى ببدر وغيره من الأمور الجزئية أقوالًا وأفعالًا، وإخباره سبحانه أنه يعلم السِّر وأخفى، وأنه عليم بذات الصدور.
٢ - **غُلاة القدَرية:** الذين يزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها ووقوعها، وهذا القول قد اتفق على بطلانه، وكفَّر قائلَه سلَفُ الصحابة والتابعين.
٣ - **معطِّلة الصفات من الجهمية والمعتزلة:** فأما الجهمية فينفون الاسم والصفة، وأما المعتزلة فيثبتون الاسم بدون الصفة، فيقولون: إن الله عليم بلا عِلم، وهذا ضلالٌ؛ فإن الله أثبت لنفسه العلم، ونفيُ ذلك عنه تعطيل للصفة، وتنقُّص له سبحانه؛ فنفْيُ العلم يستلزم إثبات ضده، وهو الجهل، فإذا أثبتنا واحدًا نفَينا الآخَر؛ فهما متلازمانِ، وإذا قيل ذلك فالمخلوق الذي عنده قليل من العلم يكون أكمل من الله، وهذا من المُحال.

٢- **مُطلَقُ الرِّزق**: وهو الرزق العام لسائر الخليقة مِن مسلمٍ وكافر، آدمي وبهيمة، وغيرها، وهو ما ينتفع به البَدَن من حرام أو حلال.

وهذا الأمر يفيد الإنسان ألَّا يطلب الرزق إلا من الرزَّاق سبحانه.

٢/ صفة القوَّةِ والمَتانة، وهي من الصفات الذاتية، و«المتين»: هو الذي له كمال القوة، قال ابن عباس: هو الشديد[1]، فالله سبحانه ذو القوة التامة المطلَقة، التي لا تُشابهها قوة، ولا يَغلِبها شيء، ولا يَعتريها ضَعْف.

❍ **فائدة**: والإيمان بهذا يجعل القلب لا يخاف إلا من الله، ويوقِن أنه لا قوة أعظم مِن قوته، وأنَّ قُوى الدنيا كلها مِن قوَّته، وأنها لا تقف أمام قوة القويِّ، والواقع يشهد بهذا؛ فكم مِن إنسان تجبَّر بقوته، فأتلفه الله في طرْفة عينٍ! وما قومُ ثمود الذين غرَّتهم قوَّتهم، ونحتوا الجبال، وجابوا الصخر بالواد، إلا مثالًا على هذا؛ أهلكهم القويُّ سبحانه بأيسر شيءٍ، وهو الصوت القوي الذي صلَّك آذانهم، وهي الصيحة، فماتوا عن آخِرهم، وشواهد قوة الله سبحانه أكثر من أن تُحصر، ولا يحيط بها إلا القويُّ سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: الآية ١١]، **وقوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ٥٨].

❐ **تضمَّنت هاتانِ الآيتانِ إثباتَ صِفتَي السمعِ والبصر لله، على ما يليق**

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٥٧).

بجلاله وعظَمته، وأهلُ السنةِ يُثبِتونَ أن سمع الله يُدرِك الأصواتَ كلها، وبصرَهُ يُدْرِك المرئيات كلها، فلا تَخفى عليه خافية، لا في السماوات، ولا في الأرض، كما ثبت في القرآن: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العَلق: الآية ١٤]، فنُثبِت له الصفةَ، وننفي مماثلة المخلوقين له.

واعلم أن صفة السمع لله ﷻ وردت في الآيات على وجهينِ:

١- **السمع العام**: ويُراد به إدراك الصوت، ويُراد به معرفة المعنى؛ فسَمْعُ الله شاملٌ لجميع الأصوات.

ومما يدل لذلك قصة المجادِلة؛ قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصوات؛ لقد جاءت المجادِلة تشتكي وأنا مع النبي ﷺ في الحجرة، ما بيني وبينه إلا رداءٌ، ويخفى علَيَّ كثير من كلامها، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ...﴾ [المجَادلة: الآية ١][(١)].

٢- **السمع الخاص**: وهو سمعُ الإجابة والقبول، وهذا النوع متعلِّق بمشيئة الله وقدرته.

وقد ورد هذا في نصوص عدة، ومنها: «**سَمِعَ الله لمن حَمِده**»[(٢)]، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٨]، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سَبَأ: الآية ٥٠]، والمراد: أنه يستجيب الدعاء.

وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم

(١) أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨، ٢٠٦٣)، وأحمد (٢٤١٩٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦٨٩)، ومسلم (٤١١).

بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ [النِّساء: الآية ٥٨]، قال: رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أُذنه، والتي تَليها على عينه(١).

وهذا الفعل منه ﷺ من الإشارة بيده إلى سمعه وبصره، فيه أمرانِ:

١- ردٌّ على مَن أوَّلَ السمع بالعلم؛ لأنه لو كان المراد العلم لأشار إلى القلب؛ لأنه محل العلم.

٢- أراد النبي ﷺ بهذا الفعل أن يبيِّن أن السمع والبصر حقيقيَّانِ، ولَيْسَا بمجازٍ، كما يقول أهل البدع الذين ينفُون هاتينِ الصفتينِ، وليس في فِعل النبي ﷺ تمثيل؛ فإن الله منزَّه عن المشابَهة للمخلوق.

❍ **فائدةٌ**: وحين يعتقد العبد بصفة السمع والبصر لله، فهذا يجعله يراقب الله تعالى في أقواله وأفعاله، ويَحذرُ من مخالفته؛ لأنه يراه ويسمعه، ويجعله يطمئن إذا دعا ربه؛ فهو يدعو السميع، وإذا تعبَّد له سبحانه فهو يوقن أنه يتعبد لله الذي يسمع ويرى، ولا تخفى عليه خافية.



(١) أخرجه أبو داود، وصححه ابن حجر. انظر: «سنن أبي داود» (٤٧٢٨)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٧٣).

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: الآية ٣٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٣][(١)].

وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المَائدة: الآية ١][(٢)].

وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٥][(٣)].

❐ في هذه الآيات الأربع إثباتُ صفةِ الإرادةِ والمشيئة لله. والإرادة نوعانِ:

---

(١) أي: لو شاء سبحانه عدم اقتتالهم لم يقتتلوا؛ إذ لا يَجري في ملكه إلا ما شاء سبحانه، والضمير في قوله: ﴿مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ يعود إلى الكفار والمؤمنين، ولكن الله يفعل ما يريده، والإرادة هنا إرادة كونية.

(٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾؛ أي: يحكم ما يريد من التحليل والتحريم، لا اعتراض عليه، فهو الحكَمُ سبحانه لا حاكِمَ غيره، فكل حُكمٍ سوى حكمه باطل مردود.

(٣) ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾: مَن شاء الله أن يدلَّه ويرشده ويوفقه ويجعل قلبه قابلًا للخير هداه.

والإرادة هنا: إرادة كونية، والهداية هنا هداية التوفيق.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: أي مَن شاء أن يضله عن الهدى يجعل صدره ضيقًا عن قبول الإيمان، و﴿حَرَجًا﴾؛ أي: شديد الضيق، فلا يبقى فيه منفذ للخير.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ﴾: كأنه حين يُعرَض عليه الإيمان يتكلف الصعود إلى السماء بمشقة شديدة.

١- **إرادةٌ كونيةٌ:** وهي أنه سبحانه أراد كُلَّ ما حدَثَ ويحدُث في الوجود وشاءه، فكلُّ ما في الوجود فهو داخلٌ في إرادته الكونية القدَرية، ولا يخرج شيءٌ عن إرادته، وهذه الإرادة عامَّة لكل حادثٍ من خيرٍ أو شرٍّ.

ومثالها: ما ورد في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٢]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسَان: الآية ٣٠]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٣]، ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٥]، وهذه الإرادةُ هي المقارِنةُ للقضاء والقدَر، ومِن هذا النوع قولُ المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإذا أراد الله شيئًا فلا بُد من وقوعه.

٢- **إرادة شرعية:** وهي متضمِّنة للمحبة والرِّضا، فالمراد بها ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به من الأمور، ولا تتعلق إلا بالطاعات والعمل الصالح، ثم قد يقع مرادُه وقد لا يقع.

ومثالها: ما ورد في الآيات: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المَائدة: الآية ٦]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٣]، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النِّساء: الآية ٢٧].

وقد تجتمع هاتانِ الإرادتانِ في مثل إيمان المؤمنين، وطاعة الطائعين؛ لأن ذلك يكون بالإرادة الكونية، حيث قدَّره الله، وبالإرادة الشرعية الدينية، حيث أحبَّه الله.

أما كفرُ الكافرين ومعصيةُ العاصين، فهي إرادةٌ كونيةٌ قدريةٌ، وليست

شرعيةً دينيةً؛ لأنها ليست مما يحبه الله ويرضاه[(١)].

فإن قيل: فكيف يريدها الله وهي معصيةٌ ومخالفة لأمره الشرعي؟

فالجواب: أن هذه الأمور وإن كانت شرًّا بالنسبة للفاعل، إلا أنه لا يلزم من ذلك أن تكون شرًّا بالنسبة للخالق ﷻ، فربُّنا سبحانه لا يُقَدِّرُ الشرَّ، ولا يقدِّرُ إلا لحكمةٍ، وله في تقدير هذه الأمور المكروهة مِن كفْر الكافر وتسلُّط الظالم ونحو ذلك حِكَمٌ عظيمةٌ، قد ندركها وقد لا ندركها، والشأن أن الأمر قد يكون محبوبًا إلى الله من وجْه، ومكروهًا من وجْه آخَر، فهو محبوب؛ لِما فيه من المصالح العظيمة، ومكروه إليه؛ لأنه معصية.

ونظير ذلك: الأبُ إذا مَرِض ولده، قدَّمه للطبيب ليعالجه، وهو ينظر إليه، وربما فتح الطبيبُ قلبَه، والأبُ راضٍ، بل قد يفرح من جهة أنه

---

(١) **ذكر ابن تيمية أن الإرادتين من حيث تعلقهما بالفعل والأمر على أربعة أقسام:**

أحدها: ما تعلقت به الإرادتان: وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع؛ فأمر به وأحبه ورضيه وأراده إرادة كون فوقع؛ ولولا ذلك لما كان.

الثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط: وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها لو وقعت، ولو لم تقع.

الثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط: وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها: كالمباحات والمعاصي، فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها؛ إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت، ولما وجدت فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه: فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي. «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٨٩).

علاج له، وهو كارهٌ لذلك من جهة أن فيه أذيَّةً لولده، ويأتي لمثل هذا زيادة بيان وتوضيح في باب خاصٍّ بالقدَر.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجرَات: الآية ٩]، وقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التّوبَة: الآية ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصَّف: الآية ٤]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المَائدة: الآية ٥٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البُرُوج: الآية ١٤].

❑ **تضمنت هذه الآياتُ إثباتَ صفةِ المحبَّة لله تعالى، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة**[(١)]؛ حيث يثبتون هذه الصفة لله، ويقولون: هو حبٌّ

(١) **وقد ضلَّ في هذه الصفة طائفتان:**

١- **الجهمية**: وأول مَن أنكر صفة المحبة: الجَعْد بن دِرهم، والجهمية أنكروا حقيقة المحبة من الطرفَين: محبة الله لعبادة، ومحبة عباده له، وهم ينفون جميع الصفات، كما هو معلوم. =

حقيقي، يَليق بجلاله وعظمته، لا يُشابِه حبَّ المخلوق، ونثبته لأن الله أثبته لنفسه.

❏ **وذُكر في الآياتِ جملةٌ من الأمور التي مَن اتصف بها فهو حريٌّ بأن يحبه الله، وهي:**

١/ **الإحسان:** في كل شيء من الأعمال، وإحسانُ كلِّ شيء بحسبه.

٢/ **القِسط:** وهو العدْل، مع جميع الناس؛ مُسلِمهم، وكافِرهم، قريبِهم، وبعيدِهم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: الآية ٨]، فإذا كان هذا مع الأعداء البُغَضاء، فغيرهم من باب أَولى، وحتى مع النفْس بألَّا تكلِّفها ما لا تطيق من الأعمال، وقد ورد في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»[1].

= وأوَّلوا نصوص محبة العباد لربِّهم على محبة طاعته وعبادته، وأوَّلوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب، ونحو ذلك من التأويلات الفاسدة.

٢- **الأشاعرة**: وقد أثبتوا محبة العبد لربه وأنكروا محبة الله لعباده، وحُجتهم: أن المحبة هي مَيل النفس إلى المحبوب بسبب رِقة تحصل منه، وهذا نقص، والله منزَّه عن النقص، وقد يتم ذلك من المخلوق لربه.

ولكن يَرِد عليهم: بأن ما ذكروه هو في محبة المخلوقين، أما الخالق فتثبت له محبةٌ تليق بجلاله وعظَمته، وليست كمحبة المخلوقين.

قال ابن القيم: وجميع طرق الأدلة عقلًا ونقلًا، وفطرةً وقياسًا، وذَوقًا واعتبارًا ووجدانًا؛ تدل على إثبات محبة العبد لربه والربِّ لعبده، وقد ذكرنا لذلك قريبًا من مائة طريق في كتابنا الكبير في المحبة. ا.هـ. «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠).

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

٣/ **التقوى:** فالله يحب المتقين: وهم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً؛ بفعل الأوامر وترْك المنهيات، والذين مِن صفاتهم الوفاءُ بالعهد وعدمُ الخيانة.

٤/ **التوبة:** وهي الرجوع عن الذنب، والله توَّاب يحب التوَّابين، **قال ابن القيم:** «والعبد توَّاب، والله توَّاب؛ فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباقِ، وتوبة الله نوعانِ: إذنٌ وتوفيق، وقبولٌ وإمداد»(١).

٥/ **التطهُّر:** فالله يحب المتطهِّرين: الذين نزَّهوا أنفسهم ونظَّفوها من الأقذار، حسِّيةً كانت أم معنويةً، فالحسِّيةُ: الطهارةُ من الأحداث، والمعنويةُ: مِن الذنوب.

٦/ **اتِّباعُ النبي ﷺ:** كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١]، وهذه الآية تُسمَّى آية المِحنة؛ قال الحسن: «ادَّعى قومٌ أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية محنةً لهم، فمَن اتَّبع الرسول ﷺ؛ فإن هذا سببٌ لنَيلِه محبةَ الله ومغفرةَ ذنوبه، وعلامةٌ على صِدق محبته لله»(٢).

٧/ **الجهاد في سبيل الله:** كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصَّف: الآية ٤]، فهو سبحانه يُحِب الذين يقاتلون لإعلاء كلمته، وهم في حال قتالِهم يَصُفُّون أنفسهم صفًّا، ولا يزالون على أماكنهم كأنهم بُنيان مرصوص، فليس فيه فُرْجة ولا خَلَل.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٠).
(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٣٢٥).

❐ **وتضمنت الآية الأخيرةُ:** ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البُرُوج: الآية ١٤] إثباتَ الوُدِّ والتودد لله، وهو خالص الحُب وألْطَفه، فمِن صفات الله أنه ودودٌ، **وهذا اللفظ يدل على معنيينِ - كما قال ابن القيم-:**

١- أنه متودِّد إلى عباده بنِعَمه، يَوَدُّ مَن تاب إليه وأقبل عليه.

٢- أنه محبوب لديهم.

وصفة المحبة: من الصفات الفعلية الاختيارية؛ لأن كل ما تعلَّق بمشيئة الله مما يتصف به، فهو من الصفات الاختيارية الفعلية؛ كالكلام، والسمع، والرِّضا، والغضب، والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المَائدة: الآية ١١٩].

❐ **تضمنت الآيةُ إثباتَ صفة الرِّضا لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته**، ورضاه سبحانه متعلق **بالعمل**، كقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧]، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المَائدة: الآية ٣]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا...**»[(١)]، **وبالعامل** كقوله في هذه الآية: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المَائدة: الآية ١١٩].

وقد ثبتت صفة الرِّضا بالكتاب، والسُّنةِ، وإجماعِ سلف الأمة، وهي صفةٌ حقيقيةٌ، ولا نعرِف كيفيتها، فلا نقول بتأويلها كما انحرَف المؤوِّلة للصفات، ولا نقول بأن رِضاه تعالى كرِضا المخلوقين - كما هو مذهب الكرَّامية المشبِّهة -، بل هو رِضًا لا يماثل صفة المخلوق.

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥).

وهذه الصفة هي مطلَب كل عابد، وغايةُ كلِّ سالِكٍ من طاعاتهم وعباداتهم، ومن الأدعية المأثورة التي يدعو بها طُلاب الرِّضا في أرجى الأوقات ومظانِّ إجابة الدعاء: «**اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُك رِضَاكَ وَالجَنَّةَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ سَخَطِكَ وَالنَّارِ**»، فالرِّضا عنهم في دار الكرامة، وعدمُ السخطِ عليهم بعد الرضا مطلبٌ ليس بعده مطلب(١).

على أن أهل العلم يقرِّرون أن إثبات صفة الرِّضا لله لا يقتضي انتفاءَ صفة الحكمة، بل رِضاه سبحانه مقْرون بالحكمة، وهذا بخلاف رِضا المخلوق الذي قد تسيِّره العاطفة، وتغيب عنه الحكمة، فإذا رَضيَ بالَغَ، وإذا سخِط وغضِب بالَغَ، وحَكَمَتْهُ العاطفة، وفي هذا قال الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

❊ ❊ ❊

---

(١) قد أنكر المؤولة - من الأشاعرة، والماتريدية، وغيرهم - صفة الرِّضا، بحُجة أن الرضا انفعال نفْسٍ وتغيرٌ من حال إلى حال، وذلك لا يليق بالله تعالى.
ثم أوَّلوها بأن المراد لازم الرِّضا، وهو العطاء، والإنعام، والثواب.
وهذا منهم هروبٌ من التشبيه، وهذا الهروب من التشبيه ما نفعهم؛ فقد عطَّلوا لأجله صفة الباري سبحانه، ونفَوها، ثم إنهم وقعوا في التشبيه كذلك؛ فإن إثباتهم إرادة الإنعام، ينبني عليه إثبات صفة الإرادة لله، والإرادة هي أيضًا مَيل القلب، فإذا قيل: فلانٌ من البشر يريد هذا الشيء، فالمعنى: أن قلبه يميل إليه.
وكان عليهم أن يثبتوا كما أثبت أهل السنة، مع اعتقاد عدم مماثلة الله لخلقه، فيثبتون الصفة التي أثبتها الله ورسوله، وينفون المماثلة والتشبيه.

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غَافِر: الآية ٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزَاب: الآية ٤٣]، وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يُونس: الآية ١٠٧]، وقوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٤].

❐ **تضمنت هذه الآياتُ إثباتَ صفة الرحمة لله تعالى، وهو مذهب أهل السنة والجماعة**(١)؛ أنهم يثبتون لله تعالى صفة الرحمة، ويعتقدون أن

(١) **وقد أنكر صفة الرحمة لله طائفتانِ، هما:**

١- **الجهمية**: وهذا بناءً على أصلهم الذي جعَلهم ينفون حقائق الصفات، وادَّعوا أن رحمة الله مجازٌ.

ولا رَيب أن هذا إلحادٌ في أسماء الله وصفاته؛ إذ إن الله أثبت لنفسه الرحمة، ومع ذلك فليست رحمته كرحمة الخلق، فاتفاق الاسمينِ لا يقتضي اتحاد المسمى.

٢- **الأشاعرة**: وحُجتهم: أن الرحمة رِقَّة في القلب، ومن آثارها ذِلَّة وانكسار للمرحوم، وهذا لا يليق بالله، فلا يجوز وصفه به. وأيضًا: لم يدل العقل عليها، وأوَّلوا الرحمة: بأنها الإحسان، أو إرادة الإحسان.

والجواب عليهم أن يُقال:

١/ لو فرضنا أن العقل لم يدلَّ عليها، فقد دلَّ السمع عليها، وإذا ثبت السمع فلا مجال للعقل.

٢/ أن العقل دلَّ على صفة الرحمة، ووجه ذلك أن يُقال لهم: كيف نفيتم الرحمة وأثبتم الإرادة له؟ فيقولون: أثبتناها بالعقل؛ لأننا نجد الشخصينِ المتساويينِ قد يخص الله أحدهما بالغنى دون الآخَر، أو بالصحة أو بالخير، أو بالقوة دون الآخَر، فعرَفنا أن الله مريد، وأنه أراد ذلك فوصفناه به.

فيُقال لهم: وكذلك الرحمة؛ فإننا وجدنا أن الله يرزق هؤلاء ويقوِّي هؤلاء وينصرهم=

الله قد كتبها على نفسه تفضُّلًا منه وإحسانًا، كما في حديث أبي هريرة: «**إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**»[(١)]، وإلا فليس للعباد حقٌّ واجب على الله، وقد بيَّن الله سبحانه أن رحمته سبقت غضبه، وأنها وَسِعت كلَّ شيء، فما مِن مسلم ولا كافر، إلا وقد ناله مقدارٌ من رحمته، وفي الحديث: «**إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ...**»[(٢)].

واعلم أن رحمةَ الله تأتي على معنيَين:

١- **رحمةٌ عامَّة:** وهي المشترَكةُ بين المسلم والكافر، والبهائم وغيرها، وتشملُ ما يصل إليهم من رِزق ورحمة وعطف، وغير ذلك.

ومن آثار هذه الرحمة: أنه سبحانه يرزقهم ويعطيهم ويمنحهم ما يشاؤون، ولا يُعاجِلُهُم بالعقوبة في الدنيا.

٢- **رحمةٌ خاصةٌ بالمؤمنين:** وهي التي ورد فيها قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣]. ومن آثار هذه الرحمة: أن الله يهديهم، ويوفِّقهم، ويَقبل أعمالهم، ويضاعِفها، ويتجاوز عن المسيء إذا تاب، ولو كثُرت ذنوبه، ويرفع درجاتِ المحسِن.

وقد تسمَّى الله باسمينِ متعلِّقَين بصفة الرحمة، وهما: الرحمن والرحيم.

فالرحمن: دالٌّ على الصفة القائمة بالله سبحانه.

= على أعدائهم، فدلَّنا ذلك على أنه قد رَحم هؤلاء، وغضِب على أولئك. انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٢٥٧).

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٢).

والرحيم: دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم، فهي متعدية، كما قال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣]، ولم يجئ قطُّ: رحمنٌ بهم، فالاسم الأول للوصف، أي: أن الرحمة وصْفه، والثاني للفعل، أي: أنه دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته(١).

والرحمن أبلغ من الرحيم؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، ولذلك قدَّم الرحمن على الرحيم؛ لأنه خاصٌّ بالله، لا يوصَف ولا يُسمَّى به غيره(٢).



---

(١) انظر: «بدائع الفوائد»، لابن القيم (١/ ٤٢).

(٢) **واعلم أن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعانِ:**

أحدهما: مضافةٌ إليه إضافةَ مفعول إلى فاعله.

الثاني: مضافةٌ إليه إضافةَ صفةٍ إلى الموصوف بها.

فمن الأول: قوله في الحديث الصحيح: «**احْتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ...**»، فذكر الحديث، وفيه: «**فقال للجنة: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَن أَشَاءُ**»، أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافةَ المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمةً لأنها خُلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يَدخلها الرحماءُ.

ومنه قوله ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ**»، أخرجه مسلم (٢٧٥٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هُود: الآية ٩].

ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفُرقان: الآية ٤٨]. «بدائع الفوائد» بتصرف (٢/ ٦٧٦، ٦٧٧).

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾ [النساء: الآية ٩٣]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد: الآية ٢٨][1]. وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف: الآية ٥٥][2]. وقوله: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٤٦][3]. وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: الآية ٣][4].

❐ **تضمنت هذه الآياتُ إثباتَ صفاتِ الغضب، والانتقام، والسخط، والمَقْت، والكُره لله تعالى**. وغضبُ الله يتفاوت؛ فبعضه أشدُّ من بعضٍ، وفي الحديث الصحيح: «**إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ**»[5].

(١) ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي الضرب والقبض لأرواحهم بشدة بسبب اتِّباعهم سخط الله، من الكفر وعداوة الرسول ﷺ، وكراهتهم ما يرضيه من الإيمان والعمل الصالح.

(٢) ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا، والأسف له معنيانِ: الغضب، كما في هذه الآية، والحزن، ومنه قوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: الآية ٨٤].

(٣) ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: أبغض الله خروجهم معكم للغزو.
﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: حبَسهم عن الخروج معكم وخذَّلهم وكسَّلهم قضاءً وقدَرًا، وإن كان قد أمَرَهم بالخروج شرعًا، وأقْدَرهم عليه حسًّا، لكن لم يُعِنْهم عليه لحكمة يعلمها سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤٧﴾ [التوبة: الآية ٤٧].

(٤) ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: عَظُمَ، والمقْت: أشد البُغض.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

والكلام على هذه الصفات في خمس مسائل:

أولًا: إثباتُ هذهِ الصفات:

هذه الصفاتُ ورَدت في النصوص، وهي وإن كانت في حقِّ المخلوق مما يُذَمُّ، إلا أنها في حقِّ الله صفاتُ كمالٍ، وهي من صفات الأفعال التي يفعلها الله متى شاء، وتثبت له ﷻ على ما يليق بجلاله وعظَمته.

قال الإمام أحمد: «إن الله تعالى يَكره الطاعة من العاصي، كما يَكره المعصية من الطائع» حكاه ابن أبي داود، وقرأ: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التَّوبَة: الآية ٤٦]، وانبعاثهم: طاعة الله، والله يكرهه(١).

وقال إبراهيم الحربي: «الكيدُ من الله: خِلافُه من الناس، كما أنَّ المَكْر منه: خلافُه من الناس»(٢).

وقال ابن تيمية: «وهكذا وصَف نفسه بالمَكْر والكيد، كما وصف عبده بذلك، فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفَال: الآية ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وليس المَكْرُ كالمَكْر ولا الكيدُ كالكيد»(٣)(٤).

---

(١) «العقيدة رواية أبي بكر الخلال» (ص١١٦).

(٢) «غريب الحديث» (١/ ٩٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٤).

(٤) نفى الأشاعرةُ والمعتزلةُ ونحوُهم هذه الصفات، ولم يثبتوها؛ بحُجة أن هذه الصفاتِ لا تليق بالله، وقالوا: هي مجاز، فالغضب مثلًا: هو غلَيان الدم لطلَب الانتقام، وهذا لا يليق بالله، وأوَّلوها عن ظاهرها، فقالوا: الغضب هو إرادة الانتقام. انظر: «العواصم من القواصم» لابن العربي (٨/ ٣١٧). =

ثانيًا: هذه الصفات لا تُطلق على الله مطلقًا، وإنما في مقابلة مَكرِهم وكَيدهم واستهزائهم.

قال ابن تيمية: «مُسميات هذه الأسماء إذا فُعِلت بمَن لا يستحق العقوبة؛ كانت ظُلمًا له، وأما إذا فُعِلت بمن فَعلها بالمجني عليه عقوبةً له بمِثل فِعله؛ كانت عدلًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٦]، فكاد له كما كادت إخوته لمَّا قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ

= **لكن يُرَدُّ عليهم**: بأن ما ذكروه من معنى الغضب والكَيد والسخط، هذا في حق المخلوق، أما الله ﷻ فصفاته تليق بجلاله وعظَمته، لا نَعرف كيفيتها، وإنما نثبِتها له كما أثبتها لنفسه، مع اعتقاد أن لله الصفاتِ الحسنى، وأنه لا يشابهه أحدٌ من خلقه، وهكذا يقال في بقية الصفات.

وقد أجاد الإمامُ الطبري في الردِّ على مَن نفى هذه الصفات حين تكلم عن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥]، حيث قال: «والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا: أنَّ معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهار المستهزِئ للمستَهْزَأ به من القول والفعل ما يُرْضيه ظاهرًا، وهو بذلك من قِيلِه وفِعلِه به مُورِّثه مَساءةً باطنًا، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر».

ثم قال: «وأما الذين زعموا أنَّ قول الله تعالى ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكُنْ من الله استهزاءٌ ولا مكرٌ ولا خديعةٌ؛ فنافون عن الله ﷻ ما قد أثبته الله ﷻ لنفسه وأوجبه لها، وسواءٌ قال قائلٌ: لم يكن مِن الله جلَّ ذِكرُه استهزاءٌ، ولا مكرٌ، ولا خديعةٌ، ولا سخريةٌ بمَن أخبر أنه يستهزئ ويسخر ويَمكُر به، أو قال: لم يَخسِف الله بمن أخبر أنه خسَف به مِن الأمم، ولم يُغرِق مَن أخبر أنه أغرقه منهم.

ويقال لقائل ذلك: إنَّ الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكَر بقومٍ مضَوا قبلنا لم نَرَهم، وأخبرنا عن آخَرين أنه خسَف بهم، وعن آخرين أنه أغرقهم، فصدَّقْنا الله تعالى فيما ذَكَره فيما أخبرنا به من ذلك، ولم نفرِّق بين شيء منه؛ فما بُرهانك على تفريقك ما فرقت بينه، بزعمك أنه قد أغرق وخسَف بمَن أخبر أنه أغرقه وخسف به، ولم يَمكُر بمن أخبر أنه قد مكَر به؟!». انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣١٥، ٣١٦).

رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يُوسُف: الآية ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التَّوبَة: الآية ٧٩].

ولهذا كان الاستهزاء بهم فِعلًا يَستحق هذا الاسم؛ كما رُوِي عن ابن عباس: أنه يُفتَح لهم باب من الجنة وهم في النار، فيسرِعون إليه، فيُغلَق، ثم يُفتَح لهم بابٌ آخَرُ، فيسرعون إليه، فيُغلَق، فيَضحَك منهم المؤمنون.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: ٣٤ - ٣٦]؟! وعن الحسن البصري: إذا كان يوم القيامة جَمُدَت النارُ لهم، كما تَجمُد الإهالةُ في القِدْر، فيَمشُون، فيُخسَف بهم.

وعن مقاتلٍ: إذا ضُرب بينهم وبين المؤمنين بسورٍ له بابٌ؛ باطنُه فيه الرحمة، وظاهره من قِبَله العذاب، فيَبقَون في الظُّلْمة، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا[(١)].

وقال بعضهم: استهزاؤه: استدراجه لهم، وقيل: إيقاع استهزائهم، ورَدُّ خداعِهم ومكرِهم عليهم، وقيل: إنه يُظهِر لهم في الدنيا خلاف ما

---

(١) «تفسير مقاتل» (١/ ٩١) وبعْدَه: «فهذا من الاستهزاء بهم».

أبطن في الآخرة، وقيل: هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه.

وهذا كله حق، وهو استهزاء بهم حقيقةً»(١).

ثالثًا: من أهل السنة من قال بأن صفاتِ المكرِ والكيد والخداع التي وردت في الآيات ليست حقيقةً، وإنما يَعتبرونها مقابَلةً لُغوية. وهذا لا يصح، بل نقول بإثباتها على ما يَليق بجلاله سبحانه كما ذكرْنا.

رابعًا: لا يُشتق من هذه الصفات لله أسماءٌ، ومن الشناعة أن يُسمَّى اللهُ بأنه الماكر، أو المخادِع، قال ابن القيم: «إن الله تعالى لم يَصِف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى، ومَن ظنَّ مِن الجُهَّال المصنِّفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه تعالى الماكرَ، المخادِع، المستهزئ، الكائد فقد فاهَ بأمرٍ عظيم تقشعرُّ منه الجلود، وتكاد الأسماع تُصمُّ عند سماعه، وغَرَّ هذا الجاهلَ أنه ﷻ أطلق على نفسه هذه الأفعال، فاشتق له منها أسماءً، وأسماؤه تعالى كلها حُسنى، فأدخلها في الأسماء الحسنى وقرَنها بالرحيم، الودود، الحكيم، الكريم، وهذا جهل عظيم؛ فإن هذه الأفعال ليست ممدوحةً مطلقًا، بل تُمدح في موضع وتُذَم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله تعالى مطلقًا، فلا يقال: إنه تعالى يَمكُر ويخادِع ويستهزئ ويَكيد، فكذلك بطريق الأَولى لا يُشتق له منها أسماءٌ يُسمَّى بها، بل إذا كان لم يأتِ في أسمائه الحسنى المريدُ ولا المتكلِّم ولا الفاعل ولا الصانع؛ لأن مُسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم، وإنما يُوصَف بالأنواع المحمودة منها، كالحليم، والحكيم، والعزيز، والفعَّال

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١١١، ١١٢).

لِما يريد، فكيف يكون منها الماكر والمخادع والمستهزئ؟!

إلى أن قال: والمقصود أن الله سبحانه لم يَصِفْ نفسه بالكيد والمكر والخداع، إلا على وجه الجزاء لمَن فعَل ذلك بغير حق، وقد عُلِم أن المجازاة على ذلك حسنةٌ من المخلوق، فكيف من الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»[(١)].

وقال ابن تيمية - ذاكرًا أن المنتقِم ليس من أسماء الله -: «المنتقمُ ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي ﷺ، وإنما جاء في القرآن مقيَّدًا، كقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٢]، وأما الحديث الذي ورد في عدِّ الأسماء الحسنى، وذكر منها: المنتقم، فهذا الحديث ليس من كلام النبي ﷺ كما هو عند أهل المعرفة بالحديث، بل ذكره الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه»[(٢)].

خامسًا: فائدة: سُئِل الشيخ العثيمين: هل يُوصَف الله بالخيانة والخداع، كما قال الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٢]؟

فأجاب بقوله: «أما الخيانة فلا يُوصَف الله بها أبدًا؛ لأنها ذمٌّ بكل حال؛ إذ إنها مكرٌ في موضع الائتمان، وهو مذموم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٧١]، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخداع فهو كالمكر، يُوصَف الله تعالى به حين يكون مدْحًا، ولا

(١) «مختصر الصواعق» (ص٣٠٦، ٣٠٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٦).

يُوصَف به على سبيل الإطلاق؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٢]»[١].

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: الآية ٢١٠][٢].

وقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]، **وقوله:** ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: الآية ٢٥].

❑ **تضمنت هذه الآيات إثباتَ صفة المجيء والإتيان لله تعالى يوم القيامة،** على ما يليق بجَلاله وعظَمته، وهذه مِن صفاته الفعلية، وقد حكى عثمان الدارمي اتِّفاق الكلمة من المسلمين، على أنه ينزل يوم القيامة لفصل القضاء، ولم يشكُّوا في ذلك[٣][٤].

---

(١) انظر: «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١/ ١٧١).

(٢) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢١٠]: تهديد للكفار، أي: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله لفصل القضاء يوم القيامة؟!
﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: الآية ٢١٠]: جمع ظُلَّة، والغمام: السحاب الأبيض الرقيق.
﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: الآية ٢١٠]: يجيئون في ظُلَل من الغمام يوم القيامة، فتصفُّ صُفوفًا تحيط بالجن والإنس.

(٣) «نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي» (ص١٢٠) قال: وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله تعالى فوق عرشه فوق سماواته، وأنه لا ينزل قبل يوم القيامة لعقوبة أحد من خلقه، ولم يشكُّوا أنه ينزل يوم القيامة ليفصل بين عباده، ويحاسبهم ويثيبهم.

(٤) وقد ضلَّ في هذا الأشاعرة والمعتزلة والجهمية ونحوهم، فأوَّلوا صفة المجيء في=

وقد تتابع الأئمةُ على إثبات هذه الصفة على ما يليق بجلاله سبحانه.

قال أبو عثمان الصابوني: «وكذلك يثبتون ما أنزله الله - عزَّ اسمه - في كتابه من ذكر المجيء والإتيان، المذكورَين في قوله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٠]، وقوله - عزَّ اسمه-: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفَجر: الآية ٢٢]»[١].

❊ ❊ ❊

= قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ بأنه جاء أمْرُه، وفي الآية الأخرى قالوا: يأتي أمره، أو عذابه، بحُجَّة أن هذا من باب المجاز.

والجواب: أن هذا خلاف الأصل؛ لأن الأصل أن الآية لا تَحتاج لمضمَر، بل هي على ظاهرها، ولا يجوز التكلُّف في ردِّ هذه النصوص أو في تأويلها.

ثم إن الإتيان والمجيء المضاف إلى الله نوعانِ:

١- **مقيَّد**: كأن يُقيَّد بمجيء أمره أو رحمته أو عذابه، فيُقيَّد بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٢]، ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النَّحل: الآية ٣٣].

٢- **مطلَق**: فلا يكون إلا بمجيئه سبحانه، كهذه الآيات المذكورة: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ...﴾، ونحن نثبت له إتيانًا يليق بجلاله، لا نكيِّفه ولا نمثِّله ولا نعطِّله.

ويقولون أيضًا: إذا أثبتنا أن الله يأتي فمعنى ذلك أننا أثبتنا أنه جسم، والأجسام متماثلة.

والجواب:

١- هذه دَعوى وقياسٌ باطلٌ في مقابل النص.

٢- أننا نعلم أن المجيء والإتيان يختلف حتى بالنسبة للمخلوق؛ فالناس يتفاوتون في مجيئهم: في صفتهم، وسرعتهم، وهيئتهم، فإذا كان الناس يتفاوتون بينهم في هذه الصفة التي نعلمها، فكيف بصفة الخالق التي لا نعلمها، والتي نعتقد أنها لا تماثل صفة المخلوق؟!

(١) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص١٩٢).

قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٧][(١)].
وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨][(٢)].

❐ **تضمنت هاتانِ الآيتانِ إثباتَ صفة الوجه لله كما يليق بجلاله وعظَمته، وأنه وجهٌ لا يُشبِه وجوه خلْقه، فليس كمثله شيء سبحانه.**

وصفةُ الوجهِ من الصفاتِ السمعية الخبرية التي لا تُعْلَم إلا بالسمع[(٣)].

---

(١) هذه الآية معطوفة على قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٦]، فكل شيء يموت، ويبقى وجه ربك سبحانه.

(٢) ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾؛ أي: كل شيء كُتِب عليه الفَناء أو الهلاك هالكٌ، وهذا إخبار بأنه سبحانه الدائم، والخلائق كلها تموت، وقد ذكر السيوطي أن المستثنى من الهلاك والفناء ثمانية:

ثَمَانِيَةٌ حُكْمُ البَقَاءِ يَعُمُّهَا ... مِنَ الخَلْقِ وَالبَاقُونَ فِي حَيِّزِ العَدَمِ
هِيَ العَرْشُ والكُرْسِيُّ ونَارٌ وَجَنَّةٌ ... وعَجْبٌ وَأَرْوَاحٌ كَذَا اللَّوْحُ والقَلَم

(٣) وقد أنكر المبتدعة من الجهمية وغيرهم هذه الصفة، وأوَّلوها بأنها مجازٌ عن ذات الله، أو عن الجهة، أو عن الثواب، أو غير ذلك، **وهذه تأويلات باطلة؛ لوجوهٍ:**

❐ أنه جاء عطف الوجه على الذات، كما في الحديث: «أعوذ بالله العظيم ووجْهه الكريم...»، والعطف يقتضي المغايرة.

❐ أنه أضاف الوجه إلى الذات، فقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ووصف الوجه بقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، فلو كان الوجه هو الذات، لكان لفْظ «الوجه» في الآية صِلةً، ولقال: ذي الجلال.

❐ أنه لا يُعرَف في لُغة أمة من الأُمم أن وجْه الشيء بمعنى: ذاته أو الثواب، والوجه في اللغة: مُستقبَلُ كل شيء؛ لأنه أول ما يواجه منه، وهو في كل شيء بحسب ما يُضاف إليه.

ويقال لهم أيضًا: ما تقولونه في قول النبي ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ...**»؟=

❍ فائدة: أُضيف الوجه لله في هاتينِ الآيتينِ، ومن المعلوم أن المضاف إلى الله نوعانِ:

١- **أعيان قائمة بنفسها**: كبَيت الله، وناقة الله، ورُوح الله، فهذه إضافة تشريف وتخصيص، وهي إضافة مملوكٍ إلى مالكه.

٢- **صفات لا تقوم بنفسها**: كعِلم الله، وسمْعه، وبصره، وقدرته، ونحوها، فهي إضافة صفة إلى موصوف، لا مخلوق إلى خالقه.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥][(١)].
وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: الآية ٦٤][(٢)].

۞ **الكلام على هاتينِ الآيتينِ في مسائل:**

أولًا: في هاتينِ الآيتينِ إثباتُ صفة اليدينِ لله ﷻ، وهما يَدانِ حقيقيتانِ، لائقتانِ بجلاله وعظَمته، لَيستا كَيَدِ المخلوق.

= فهل ثوابه هو النور الذي يُحرق ما انتهى إليه بصَرُ الله من الخلْق؟!

(١) ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾: الخطاب لإبليسَ - لَعنه الله - لمَّا امتنع من السجود لآدم، والمعنى: أيُّ شيءٍ صرَفك وصدَّك عن السجود؟!
﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: باشرتُ خلْقَه بلا واسطة، وهذا تشريف لآدم.

(٢) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾: سُموا بذلك لقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦]، وكان اسمَ مدحٍ، ثم صار بعْد نسخ شريعتهم لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدْح، وقيل: نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام.
﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: كناية عن بُخله، لا أنهم يَعنون أن يده موثوقة.
﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: أُمسكت عن الخير، وهكذا وقع، فاليهود أشد الناس بُخلًا.
﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: بالفضل والجود والعطاء.

قال أبو حنيفة: «وله يدٌ، ووجهٌ، ونفْسٌ، كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله في القرآن مِن ذكر الوجه واليد، فهو له صفات بلا كيف». قال: «ولا يقال: إن يدَه: قدرتُه أو نعمتُه؛ لأن فيه إبطالَ الصفة، وهو قولُ أهل القدَر والاعتزال»[(١)(٢)].

ثانيًا: لفظ «اليد» لله جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفردًا، ومثنًّى، ومجموعًا.

فالمفرد: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: الآية ١]، **والمثنى:** ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]، **والمجموع:** ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: الآية ٧١]، ولا تعارُضَ بينها، والجمع

(١) «الفقه الأكبر» (ص٢٧).

(٢) قد أنكر هذه الصفةَ بعضُ المبتدعة، كالأشاعرة، والجَهْمية، والمعتزلة، وأوَّلوها بأن المراد باليد: القدرة، أو النِّعمة، **والرد عليهم من وجوهٍ:**

١- أن هذا التأويل مصادمٌ لأدلة الكتاب والسنة الصريحة في إثبات اليدينِ لله.

٢- لو كان المرادُ القدرةَ لَوجب أن يكون لله قدرتانِ، وقد أجمع المسلمون أنه لا يجوز أن يقال: له قدرتانِ، وكذا لا يجوز أن يقال: خلَق آدم بنِعمتَين؛ لأن نِعَمه على آدم لا تُحصى. انظر: «تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل» (ص٢٩٥ - ٢٩٨)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص٤٠٤).

٣- ورد في حديث ابن عمرو ﷺ مرفوعًا: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يُبَاشِرْ بِيَدِهِ - أَوْ لَمْ يَخْلُقْ بِيَدِهِ - إِلَّا ثَلَاثًا: خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ**». قال ابن القيم: «هل يصح في عقلٍ أو نقلٍ أو فطرةٍ أن يقال: لم يَخلُق بقدْرته أو بنِعمته إلا ثلاثًا» «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٣٩٣).

٤- لو كان المرادُ باليد القدرة هنا لَبَطَل تخصيصُ آدم؛ فإن جميع المخلوقات - حتى إبليس - مخلوقاتٌ بقدرته، فأيُّ مَزِية في آدم على إبليس في قوله: ﴿أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]!!

وقد ردَّ ابن القيم على الذين عطَّلوا صفة اليد، وأوَّلوها بالقدرة، أو بالنعمة أو نحوها، ممَّا يقرب من عشرين وجهًا. «مختصر الصواعق» (ص٣٩٣).

بين هذه الحالات الثلاث:

أن المفرد المضاف يُراد به ما هو أكثر من واحد، وكثيرًا ما يُراد به الجنس، فيتناوله؛ سواء كان واحدًا، أو اثنَين، أو ثلاثةً، فلا يعارض الإفراد والتثنية والجمع.

وأما صيغة الجمع: فإنها تقتضي التعظيم الذي يستحقه سبحانه، ومِثل هذا كثير في القرآن، يسمِّي الربُّ نفْسَه من الأسماء المتعلقة بصيغة الجمع على سبيل التعظيم لنفسه، كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفَتْح: الآية ١]، ﴿نَّحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزُّخرُف: الآية ٣٢].

وأما صيغة التثنية: فإنها نصٌّ في مسماها؛ لأنها من أسماء العدد، وأسماء العدد نصوص[(١)].

ثالثًا: ورد في الحديث: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**»[(٢)]، وفي الحديث الآخر: «**ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ فَيهُزُّهُنَّ**»[(٣)].

وقد جُمِع بينهما: بأن كون كلتيهما يمين: أراد به معنى الكمال والشرف والتمام؛ لأن كل شيء مياسره تنقص عن ميامنه في القوة والبطش والتمام، والعرب يحبون اليمين لأنها أقوى وأشرف من الشِّمال، وهذا بالنسبة للمخلوقين، أما الخالق فإن يَدَيه سبحانه هما في القوة والشرف كِلتاهما يمينٌ، وفي المكان لا يُقال بأن كِلتيهما من جِهة اليمين، بل إحداهما بالشِّمال؛ لأجْل الحديث: «**ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ**

(١) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ٤٨٢، ٤٨٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

بِشِمَالِهِ»[١].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُّور: الآية ٤٨][٢].

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ [القمر: ١٣، ١٤][٣].

وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: الآية ٣٩][٤].

❐ **في هذه الآيات الثلاث إثباتُ صفة العينِ لله تعالى**، وهي من الصفات الذاتية الخبرية، ونحن نثبتها له ﷻ على ما يليق بجلاله، مِن غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومِن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

وقد تتابع الأئمة على إثبات هذه الصفة على ما يليق بجلاله سبحانه.

قال الصابوني: «وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذِكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصِّحاح، من السمع والبصر والعين»[٥].

❍ **فائدة**: ورد في القرآن صفةُ العينِ مفردةً: ﴿عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾، ومجموعةً: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾.

---

(١) انظر: «الاختلاف في اللفظ، والرد على الجهمية» لابن قتيبة (ص٤٢).

(٢) ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: بمرأى مِنا وتحت حِفظنا، لا تغيب عن نظرنا، فلا تبالِ بأذى الكفار؛ فإن أعيننا معك تحفظك وترعاك، والباء في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ للمصاحَبة، وليس المراد بأنك داخلُ أعيننا.

(٣) ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾: أي سفينة نوح، فهي بمرأى منا، وإذا كان كذلك فسيحفظها ويَكلؤها ومَن فيها.

(٤) ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾: لتُربَّى وتُغذَّى بمرأًى مني، فإني أراك بعيني وأحفظك.

(٥) «عقيدة السلف» (ص١٦٥).

ومثنَّاةً كما في الحديث: «**إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»(١)، وهذا صريح في أنه ليس المراد إثبات عين واحدة.

والجمع بينها أن يقال:

أما المفرد: فإن المفرد المضاف يعمُّ، فيشمل كل ما يَثبت لله مِن عينٍ حينئذٍ، فلا مُنافاةَ، **وأما الجمع**: كما في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، فالمراد به التعظيم(٢)(٣).

ومعلومٌ في لغةِ العرب أنه إن أُضيف إلى جمْع ظاهر أو مُضمرٍ، فالأحسنُ جمعه؛ مشاكلةً للفظ، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: الآية ٧١]، وإن أُضيف إلى اسمٍ مثنًّى فالأفصحُ جمعه، كقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التَّحْرِيم: الآية ٤]، وإنما هما قلْبانِ، فلا يَلتبس على السامع قولُ المتكلم: نَراك بأعيننا، ونأخذك بأيدينا، ولا يَفهَم منه بشَرٌ: عُيونًا كثيرة على وجهٍ واحدٍ(٤).

أما إذا أُضيفت إلى ياء المتكلم فإنها تُفرَدُ، ومنه قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥٧)، ومسلم (١٦٩).

(٢) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٣٢١).

(٣) قال ابن القيم: «ذِكرُ العينِ مفردةً لا يدل على أنها عينٌ واحدة ليس إلَّا، كقولك: افعَلْ هذا على عَيني، لا يريد أن له عينًا واحدةً...»: «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٥٥).

(٤) انظر: «الصواعق المرسلة»، لابن القيم (١/ ٢٦٦).

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجَادلة: الآية ١][1].

وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝١٨١﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨١][2].

وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزُّخرُف: الآية ٨٠].

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: الآية ٤٦][3].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العَلق: الآية ١٤][4].

وقوله: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٨].

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ﴾ [التّوبَة: الآية ١٠٥].

---

(١) هذه الآية في خبَر خَولة بنت ثَعلبةَ، زوج أوس بن الصامت، وقد جاءت تُراجِع النبي ﷺ في شأن زوجها الذي ظاهَر منها، وقال: أنتِ علي كظهر أمي، ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: حينما قال لها النبي ﷺ: «**قَدْ حَرمْتِ عَلَيْهِ**»، قالت: اللهم إني أشكو إليك. انظر: «سنن ابن ماجه» (٢٠٦٣)، و«مسند أحمد» (٢٤١٩٥).

(٢) هذه المقالة قالها اليهود لما نزل قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤٥﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٥]، فقالوا ذلك ليشكِّكوا المسلمين في دينهم، ويوهِموا على ضَعَفتهم، لا أنهم يعتقدون ذلك؛ فإنهم أهل كتاب. انظر: «تفسير القرطبي» (٤/ ٢٩٤).

(٣) هذا خطابٌ من الله لموسى وهارون أن الله سبحانه معهما يَسمع كلامهما، ويرى مكانهما.

(٤) أي: أمَا عَلِمَ هذا الناهي عن الهدى أن الله يراهُ ويسمعه وسيجازيه على فِعله؟! والاستفهام للتوبيخ.
=

في هذه الآيات السَّبع إثباتُ صِفتَي السمع والبصر لله، وتقدَّم تقريره، وأنها تُثبَتُ لله كما يَليق بجلاله وعظَمته، ولا تشابِه صفاتِ المخلوقين.

والإيمانُ بصفة السمع يورِث في القلب مراقبةَ العبدِ لربه فيما يقول؛ فيتحرى في أقواله ما يُرضي الله، وينأى عما يغضبه.

وأما صفة البصر فالإيمان بها يورِث في القلب الخوفَ من الله عند المعصية أن يَراك، وعند الطاعة أن تكون لغيره، أو فيها رياءٌ، وعند الطاعة الرجاءُ؛ لأنه إذا رأى فإنه يُثيب على الطاعة[١].



= والضمير في ﴿أَلَمْ﴾ يعود إلى أبي جهل، كما في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق: ٩، ١٠].

(١) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٣٣٠).

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرَّعد: الآية ١٣][(١)].

وقـولـه: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٤][(٢)].

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النَّمل: الآية ٥٠][(٣)].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦][(٤)].

❐ **في هذه الآيات إثباتُ صفة المَكر والكَيد لله ﷻ، وأنها حقيقة لا مجاز.**

---

(١) أي: شديد بأخذ العقوبة: وقيل: المِحال: المكْر، أي: شديد المَكر، وقيل: شديد الأخْذ.

(٢) ﴿وَمَكَرُوا۟﴾: المقصود بهم كفار بني إسرائيل الذين أرادوا قتل عيسى عليه السلام.
﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: استدرجهم وجازاهم على مكْرهم؛ بأن رفع عيسى، وألقى شبَهه على مَن أراد اغتياله.
﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: أقواهم، وأقدر المجازين على العقاب، وإيصال الضرر بمن يستحقه.

(٣) ﴿وَمَكَرُوا۟﴾: الذين تحالفوا على قتل صالح عليه السلام وأهله على وجْه الخُفية، خوفًا من أوليائه.
﴿وَمَكَرْنَا﴾: جازيناهم بفعلهم بإهلاكهم، وبنصر نبينا صالح عليه السلام، وهم لا يشعرون بمكرنا.

(٤) ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾: كُفار قريش يَكيدون، وكَيدهم: هو ما دبَّروه في شأن الرسول من الإضرار به، وإبطال أمره.
﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾: أجازيهم على كَيدهم بكيدٍ أعظَم منه، فآخُذُهم على غِرَّة وهم لا يَشعرون.

ومعنى هذه الصفة ما ذكره ابن القيم؛ حيث قال: «وكَيد الله: استدراجُهم من حيث لا يعلمون، والإملاءُ لهم حتى يأخذهم على غِرَّة، فإذا فعَل ذلك أعداءُ الله بأوليائه ودِينه، كان كَيد الله لهم حَسنًا لا قُبْحَ فيه»[(١)].

وسبق ذكر قول إبراهيم الحربيِّ: «الكيدُ مِن الله خِلافُه من الناس، كما أنَّ المَكْر منه خِلافُه من الناس»[(٢)].

وقال ابن تيميَّةَ: «وهكذا وصف نفسه بالمَكْر والكيد، كما وصف عبده بذلك، فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وليس المَكْرُ كالمَكْر ولا الكيدُ كالكيد»[(٣)(٤)].

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (ص٦٤).
(٢) «غريب الحديث» (١/ ٩٤).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٤).
(٤) واعلم أن أهل التحريف والتعطيل نفَوا وصْف الله بهذه الصفات وأوَّلوها، وقالوا: إن الله ذكَرها من باب المشاكَلة في اللفظ، وذكرها باسمِ ما يقابِلها على طريق المجاز؛ لأن هذه الصفاتِ صفاتُ ذمٍّ في المخلوق، فكيف بالخالق؟!
والرد عليهم من وجوهٍ:
١- أن المكر - وكذلك الكيد - هو إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفيٍّ، وهما نوعانِ:
قبيح: وهو إيصال ذلك لمَن لا يستحقه.
وحَسَن: وهو إيصاله إلى مَن يستحقه عقوبةً له.
والله إنما يفعل هذا، ويأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسِب، لا كما يَفعل الظلَمة بعِباد الله.
٢- أن الله سبحانه لم يَصِفْ نفسه بالكيد، والمكر، والخداع، إلا على وجْه المجازاة لمَن فعَل ذلك بغير حق: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٢]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمران: الآية ٥٤]، ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، =

والإيمان بهذه الصفات لله ﷻ يورِث في القلب مراقبته، وعدم التحيُّل على محارمه؛ لأنه لا يَخفى عليه شيء، ولا يُخادَع؛ فإنه مَن يخادِع الله يَخدَعه.

❊ ❊ ❊

= وقد عُلِمَ أن المجازاة على ذلك حَسَنةٌ من المخلوق.

انظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٢/ ١١٣)، «الفتاوى الكبرى»، لابن تيمية (٦/ ١٢٩، ١٣٠)، «شرح الواسطية من كلام ابن تيمية»، تحقيق د/ خالد المصلح (٦٥).

وقد سبق عند الكلام على صفة الغضب لله، أن هذه الصفات لا يُشتق منها أسماءٌ لله تعالى؛ **لأمرين**:

١- أن الأسماء لا تُشتَق إلا من الصفات التي يُمدَح بها مطلقًا، أما هذه فقد يُمدَح بها فاعلها، وقد يُذَم.

٢- أنها وردت بصيغة الفعل، فيجوز أن تقول: الله يَمكر بالظالمين، ويخادِع المنافقين ونحوها، لكن لا يصح أن تقول: الله كائدٌ، أو ماكرٌ، أو مُحتالٌ، والفعل أوسَعُ من الاسم.

انظر: «شرح الواسطية»، للجبرين (١/ ١٩٢)، و«شرح الواسطية»، للفوزان (٦١).

وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٤٩][١].

وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٢٢][٢].

❐ في هاتينِ الآيتينِ إثباتُ صفة العفْو والمغفرة لله تعالى.

فأما العفو: فالعَفُوُّ في اللغة على وزْن (فَعُول) من العَفْوِ، والعَفْوُ: التَّجاوُزُ عن الذنْب، وتَرْكُ العِقاب عليه، وكلُّ من اسْتَحقَّ عندك عُقُوبةً فتَرَكْتَها فقد عَفَوْتَ عنه[٣].

وأما المغفرة: فقال الزَّجَّاج: «الغفور» هو (فَعول) من قولهم: غفَرْتُ الشيءَ؛ إذا سَتَرتَه، و(فَعول) موضوع للمبالَغة، وكذلك (فِعال)[٤].

---

(١) ﴿عَفُوًّا﴾: عن عباده يتجاوز عنهم، والعفْو: ترْك المؤاخذة على ارتكاب الذنب.
﴿قَدِيرًا﴾: على كل شيء، وعلى الانتقام منهم بما كسَبت أيديهم، فاقتدوا به؛ فإنه يَعفو مع القدرة.

(٢) **العفْو**: السَّتر والتجاوز، والصَّفح: الإعراض عن الجاني، والإغماض عن جنايته، كأنه ولَّاه صفحة عُنقه، وهو أبلغ من العفو؛ لأن الصفح لا لَومَ فيه ولا تَثريبَ. انظر: «التنبيهات السنية» (ص١٠٤).
﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾ (أَلَا): للعرْض، أي: تُحِبون ذلك؛ بسبب عفْوكم وصَفْحكم عن المسيئين إليكم.

(٣) وأَصلُه: المَحْوُ والطَّمْس، ومنه قولهم: عَفَت الريحُ الأثرَ، إذا درَسَتْه ومَحَتْه، وهو من صيغ المُبالَغةِ، يقال: عَفا يَعْفُو عَفْوًا، فهو عافٍ وعَفُوٌّ. انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٧٢).

(٤) «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص٤٦).

وقال ابن الأَثيرِ: «الغَفَّار: الساتر لذُنوب عِباده وعيوبهم، المتجاوِز عن خَطاياهم وذُنوبهم، وأصل الغفْر: التغطية، يقال: غَفَر الله لك غَفْرًا، وغُفرانًا ومَغفرةً، والمغفرةُ: إلباسُ الله تعالى العفْوَ للمُذْنِبين»(١).

وقال ابن رجبٍ: «المغفرة: هي وِقاية شر الذنوب مع سَتْرها»(٢).

فمعناها إذن: الكثيرُ المغفرةِ، والمغفرة: سَتْر الذنوب، والتجاوز عنها، والعفْو عن مُقترفيها، وصَونهم مِن أن يمَسَّهم العذابُ بسببها، وإلباسهم العفْوَ عن خَطيئاتهم.

وهاتانِ الصفتانِ من صفات البارئ سبحانه الفعلية؛ فالله يغفر ويعفو كما يشاء لمَن يشاء، وكل أحد مُضطَر إلى عفْوه ومغفرته، كما هو مُضطر إلى رحمته وكرَمه، ولا يزال سبحانه بالعفْو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عِباده مَوصوفًا، والعفو الحقُّ يكون لمَن يملك المؤاخذةَ، وهذا لله تعالى.

قال السِّعدي: «والله تعالى له الحِلم الكامل، وله العفْو الشامل، ومتعلِّق هذينِ الوصفينِ العظيمينِ معصيةُ العاصين، وظُلم المجرمين؛ فإن الذنوب تقتضي ترتُّب آثارها عليها، من العقوبات العاجلة المتنوِّعة، وحِلمه تعالى يقتضي إمهالَ العاصين، وعدم معاجلَتهم ليَتوبوا، وعفْوه يقتضي مغفرةَ ما صدَر منهم من الذنوب، خصوصًا إذا أتَوا بأسباب المغفرة من الاستغفار، والتوبة، والإيمان، والأعمال الصالحة، وحِلمه وَسِع السمواتِ والأرضَ، فلولا عفْوه ما ترَك على ظَهْرها من دابة، وهو

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٣٧٣).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٤١).

تعالى عفوٌّ، يحب العفو عن عِباده، ويحب منهم أن يسعَوا بالأسباب التي ينالون بها عفْوه؛ مِن السعي في مَرضاته، والإحسان إلى خلْقه.

ومِن كمال عفْوه: أن المسرفين على أنفسهم إذا تابوا إليه، غفر لهم كل جُرْم صغيرٍ وكبير، وأنه جعل الإسلام يَجُبُّ ما قبْله، والتوبة تَجُبُّ ما قبْلها»[١].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨].
وقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: الآية ٨٢][٢].

❐ **في هاتينِ الآيتينِ إثباتُ صفة العزة الكاملةِ لله، من جميع الوجوه.**

والعزة في الأصل: القوة والغلَبة والشِّدة، تقول: عَزَّ يَعَزُّ - بالفتح -؛ إذا اشتدَّ وقويَ، ومنه: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلبةٌ، وعَزَّ يَعُزُّ - بالضمِّ -؛ إذا غلَب وقهر، وعزَّ يعِزُّ - بالكسر -؛ إذا صار عَزيزًا، **وعلى هذا فاسمُ العزيز قيل في اشتقاقهِ ثلاثةُ أقوالٍ**:

١- أنه بمعنى: **لا مَثيل له ولا نظيرَ**، ومنه يقال: عزَّ الطَّعامُ في البلد؛ إذا تعذَّر وجودُه عند الطلب، وهذا ما يُسمى **بعزَّة القدْر**، أي: أن الله ذو

(١) «تفسير أسماء الله الحسنى»، للسعدي (ص١٨٩).
(٢) ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أقسَم إبليس بعزة الله ليُضِلَّن بني آدم بتزْيين الشهوات لهم، وإدخال الشبهات عليهم حتى يصيروا غاوينَ، واستثنى منهم عباد الله المخلَصين؛ فإنه لا يَقدِر عليهم.
وإنما أقسم بعزة الله لا بغيرها من الصفات؛ لأن المقام مَقام مغالَبةٍ، فكأنه قال: بعِزتك التي تَغلِب بها مَن سواك لأُغْويَنَّ هؤلاء، حتى يخرجوا إلى الغيِّ. «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٣٤٧).

قدْرٍ لا نظيرَ له.

٢- أنه بمعنى: **الغالب الذي لا يُغلَب**، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣]، أي: غلَبني وقهَرني، وهذا ما يُسمى **بعزَّة القَهْر**، وهي عِزة الغَلَبة، أي: أنه غالبٌ على كل شيء، قاهرُ كلِّ شيء.

٣- أنه بمعنى: **الشديد القوي**، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: الآية ١٤]، أي: شدَدْنا وقوَّينا، وهذا ما يُسمى **بعزَّة الامتناع**، أي: الممتنِع أن يصل إليه ضررٌ أو يَلحقه نقصٌ أو عَيبٌ؛ لقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٠]، و «أل» تفيد الاستغراق.

وكل هذه المعاني ثابتةٌ لله بمُقتضى اسم العزيز، فـ(أل) تفيد الاستغراق والشمول لجميع معاني العزة.

وقد جمَع ابن القيم هذه المعاني الثلاثة بقوله:

وَهُوَ العَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ ... أَنَّى يُرَامُ جَنَابُ ذُو السُّلْطَانِ

وَهُوَ العَزِيزُ القَاهِرُ الغلَّابُ لَمْ ... يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ

وَهُوَ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ ... فَالعِزُّ حِينَئِذٍ ثَلَاثُ مَعَانِ

وَهِيَ الَّتِي كَمُلَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ ... مِن كلِّ وجْهٍ عادمِ النُّقْصانِ[١]

وقد ورد هذا الاسم الشريف في مواضعَ كثيرةٍ من كتاب الله، فجاء اسم «العزيز» مقترِنًا بأسماءٍ أخرى من أسمائه ﷻ، ولاقترانه ذلك أسرارٌ دقيقة، ومعانٍ بديعة، حَرِيٌّ بتالي القرآن أن يَتأمَّلها، وأكثر ما ارتبط به اسم: (الحكيم)، وكذا ارتبط باسم (الرحيم) في أكثر من عشَرة

(١) «الكافية الشافية» (ص٢٠٥).

مواضعَ، وارتبط بـ(الغفور) وغيرها، وفي كل موضع له من معاني العظمة والعزة التي تثبت له سبحانه.

وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾ [الرَّحمن: الآية ٧٨][1].

❑ **في هذه الآية إثبات الاسم لله، وأن اسم الله مبارَكٌ تُنال معه البركة، وفيها إثبات الجلال والإكرام لله،** وهذا يَستلزم كمال صفاته، فإنه إذا كان مستحقًّا للإجلال والإكرام لَزِم أن يكون متصفًا في نفسه بما يوجِب ذلك.

والإجلال يتضمن التعظيم، **والإكرامُ** يتضمن الحُب والحمد.

والإيمان بهذا يورِث في القلب تعظيم الله وإجلاله، وتحرِّي كرَمه وفضله.



(١) ﴿تَبَارَكَ﴾: تعاظَمَ وتعالى، والبركةُ لغةً: النَّماء والزيادة، والتبريك: الدعاء بالبركة، والمعنى في الآية: تعاظَمَ اسمُ ربك، أو عَلا وارتفع شأنُه.

وقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريَم: الآية ٦٥](١).

وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: الآية ٤](٢).

وقوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥](٣).

❑ **تضمَّنت هذه الآيات تنزيهَ الله سبحانه، ونفْيَ السَّمِي والكُفؤ والنِّد عنه سبحانه؛** فهو سبحانه ليس كمِثله شيء، وسبق أن المتقرر في النفي أنه يأتي غالبًا في نصوص الصفات في الكتاب والسُّنة مُجمَلًا، كما في هذه الآيات.

❊ ❊ ❊

(١) ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾؟! مساميًا مشابهًا مماثلًا، **والجواب**: لا تعلم له مشابهًا ولا مَثيلًا يشاركه، وهذا النفي متضمن لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الكمال.

(٢) **الكُفْء في لغة العرب**: النظير، أي: ليس له نظيرٌ ولا مثيلٌ ولا شريكٌ مِن خلقه.

(٣) أي: يتخذون من دون الله أندادًا، وأمثالًا، ونظراء يساوونهم بالله في العبادة والمحبة والتعظيم.

﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾: أحبُّوا معبوداتهم حبًّا عظيمًا كما يُحِبون الله، فسوَّوها بالله في المحبة، وهذا شِركٌ في المحبة، وهي - كما ذكر ابن القيم في «طريق الهجرتين» (ص٤٤٢) - المحبة مع الله المستلزِمة للخوف والتعظيم والإجلال.

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: الآية ١١١][(١)].

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: الآية ١][(٢)].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١، ٢].

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢][(٣)].

---

(١) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: (أل): للاستغراق والشمول، أي: الحمد كله لله، فهو المستحق للحمد؛ لِما اتصف به من صفات الكمال.

(٢) كل ما في السماوات وما في الأرض يسبِّح الله وينزِّهه عن النقص والعيب، والله قادرٌ على خلق الإدراك في الجمادات، وإنطاقها كما يُنطق الجلود والأعضاء يوم القيامة، وقد سَمع النبي تسبيح الحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

(٣) ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: لو كان مع الله إلهٌ آخر لَكان له مُلْك خاص، ولله مُلْك خاص، وهذا معنى ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾، **وقد ذكر ابن القيم**: أن هذا الدليل في إثبات انفراد الله بالربوبية والألوهية يُسمى دليلَ التمانع، وبيانه: أنه لو قُدِّر تعدُّد الآلهة فوُجِد إلهانِ، **فلا بد من أحد أمور ثلاثة**:

١ - إما أن يَذهب كل إله بخلْقه وسلطانه، وحينئذٍ لا ينتظم الكون؛ لوجود الانقسام، والواقع المشاهد أن الكون منتظم لا انقسام فيه.

٢ - وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وكلٌّ منهما يطلب قهْر الآخر ومخالفته، كحال=

وقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النَّحل: الآية ٧٤][1].

❐ **في هذه الآيات إثباتُ المُلْكِ لله، ونفيُ المثيلِ والشريكِ عنه سبحانه، وبيان أنه المتفرد بالربوبية والألوهية، وصفات الكمال التي لا تشبه صفات خلْقه.**

يتجلى هذا صريحًا في هذه الآيات: ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ [الإسراء: الآية ١١١]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون: الآية ٩١]، ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النَّحل: الآية ٧٤].

والله سبحانه لا مَثيل له في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، بل هو وحده المتفرد بالكمال والجلال والعظَمة، لا سَمِي له، ولا نِدَّ له، ولا شريك له.

❊ ❊ ❊

= ملوك الدنيا.

٣ - وإما أن يكونوا كلهم تحت مُلْك وقهرِ إلهٍ واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، فيكون وحده الإلهَ الحقَّ المستحق للعبادة، وهم العبيد المربوبون، والواقع أن انتظام الكون يدل على وجود إله واحد. انظر: «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٦٣، ٤٦٤).

(١) ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾: الأشباه، أي: لا تجعلوا لله مثالًا ولا شبيهًا، فتقولوا: مَثَل الله كمَثَل كذا، وإنه يشبه كذا، فإنه سبحانه لا مِثلَ ولا نِدَّ له في ذاته، ولا أسمائه، ولا صفاته، ولا أفعاله.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٣].

❑ **هذه الآية أصل عظيم في النهيِ عن هذه الأمور المذكورة**، وأعظَمُها أن يقولَ الإنسان على ربِّه ما لم يعلمْه، وأعظمُ بابٍ يُتكلَّم فيه عن الله هو باب الأسماء والصفات.

قال ابن القيم معلِّقًا على الآية: «فرتَّبَ المحرَّماتِ أربعَ مراتبَ، وبدأ بأسْهَلِها، وهو الفواحش، ثم ثَنَّى بما هو أشد تحريمًا منه، وهو الإثم والظُّلم، ثم ثلَّث بما هو أعظمُ تحريمًا منهما، وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كلِّه، وهو القول عليه بلا عِلم، وهذا يعُم القول عليه سبحانه بلا عِلم في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وفي دِينه، وشَرْعه»[(١)].

وذكر كذلك أن القول على الله بلا عِلمٍ أعظم المحرَّمات عند الله وأشدها إثمًا، فقال: «فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسْبتَه إلى ما لا يَليق به، وتغيير دِينه وتبْديله، ونفْي ما أثبته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما حقَّقه، وعداوة مَن والاه، وموالاة مَن عاداه، وحُب ما أبغضه، وبُغْض ما أحبَّه، ووصْفه بما لا يَليق به في ذاته، وصفاته، وأقواله، وأفعاله.

فليس في أجناس المحرَّمات أعظمُ عند الله منه ولا أشدُّ إثمًا، وهو

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ٧٣).

أصل الشرك والكفر، وعليه أُسِّست البِدع والضلالات، فكل بدعةٍ مُضِلة في الدين أساسُها القول على الله بلا عِلم»[١].

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥].
﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] في سِتَّةِ مَواضِعَ.

الكلام على هذه الآيات في مسائل:

أولًا: هذه الآيات كلها في إثبات صفة الاستواء لله ﷻ، واستواؤه على العرش هو استواءٌ يَليق بجلاله وعظَمته، لا يشبه استواءَ المخلوقين، ولا نعرِف صفته، لكننا نعتقد أن له كيفيةً، ولا نعلمها، كما قال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول[٢].

ثانيًا: اعلم أن الاستواء في لُغة العرب له أربعة معانٍ: فتأتي «استوى» بمعنى: ١- علا. ٢- ارتفع. ٣- صعِد. ٤- استقر[٣].

وعلى هذه المعاني الأربعة تدور عليها تفاسير السلف للاستواء الوارد في الآيات، قال ابن القيم في «النُّونية»[٤]:

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عليها أَرْبَعٌ ... قد حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلا وَكَذلِكَ ارْ ... تَفَعَ الذي مَا فِيهِ من نُكْرَانِ
وكَذاك قدْ صَعِدَ الذي هُوَ رابعٌ ... وأبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٨).
(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٦٤).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥١٩، ٥٢٠).
(٤) «النونية» (ص٣٦١، ٣٦٢).

يَخْتَارُ هذا القَوْلَ في تَفْسِيرِهِ   أَدْرَى مِنَ الجَهْمِيِّ بِالقُرآنِ

ثالثًا: تتابع الأئمة على إثبات استواء الله ﷻ على ما يليق بجلاله.

قال ابن عُيَينة: «سُئل رَبيعةُ عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥]: كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومِن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديقُ»(١).

وقال أبو حَنيفة: «ونُقِر بأن الله تعالى على العرش استوى، من غير أن يكون له حاجة»(٢).

وقال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٣).

وقال ابن المُبارَك: «نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماوات، على العرش استوى، بائنٌ مِن خلْقه، ولا نقول كما قالت الجهمية»(٤).

وقال ابن تيميَّة: «أهل السنة والحديث، وسلف الأمة متَّفِقون على أنَّه فوق سماواته على عرشه، بائنٌ من خلقه، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، وعلى ذلك نصوص الكتاب والسُّنة وإجماع سلَف الأمة وأئمة السُّنة، بل على ذلك جميع المؤمنين

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٦٥).
(٢) انظر: «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل» (ص٨٧).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه عثمان الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٥٣)، وابن المقرئ في «المعجم» (٢٩١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٠٣).

والأولين والآخِرين»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ عن التفاسير المنقولة عن السلف في الاستواء: «وإن اختلفت عباراتهم فمقصودهم واحدٌ، وهو إثبات علوِّ الله على العرش»[٢][٣].

---

(١) «التسعينية»، لابن تيمية (٢/ ٥٤٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٢٢).

(٣) قد ضلَّ في هذه الصفة الجهمية والمعتزلة، فأوَّلوا هذه الصفة بأنها بمعنى: استولى، وأوَّلو العرش بالمُلك، فأصبح المعنى عندهم: استولى على المُلْك وقهَر غيره، وسببُ هذا التأويل: أنهم اعتقدوا أن ظاهر الآية أنه استواء كاستواء المخلوقين، فأوَّلوه خوفًا من المشابَهة.

واستدل هؤلاء المؤولة النفاة للاستواء على قولهم ببيت شعر للأخطل النصراني، وهو:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مِهْرَاقِ

والجواب عن هذا التفسير والتأويل: أنه باطل مردود، من عدة أوجه:

١ - أنه مُحْدَثٌ مخالفٌ لتفسيرِ السلفِ من الصحابة والتابعين، ولم يَقُل به أحدٌ منهم، بل أوَّل مَن قال به الجهميةُ والمعتزلة، وأوَّل مَن أحدثه الجَعْدُ بن دِرهمٍ. انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٠).

٢ - لو كان المراد بالاستواء على العرش الاستيلاءَ على المُلك، لم يكن هناك فرقٌ بين العرش وبين غيره من السماوات والأرض؛ لأنه مستولٍ على جميع المخلوقات، مالكٌ لها، وحينئذٍ فلا يكون لذِكر العرش فائدةٌ، وحاشا للقرآنِ ذلك. انظر: «الفتوى الحموية الكبرى» (ص٥٠٦).

٣ - أنه أتى بـ(ثُم)، وهي تفيد الترتيب، فلو كان المعنى الاستيلاءَ، لم يتأخر ذلك إلى الفراغ من خلق السماوات والأرض. انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٢٨٩).

٤ - أنه يلزم على قولهم هذا لوازمُ باطلةٌ:

أ- يلزم أن يكون الله حين خلق السماوات والأرض ليس بمستولٍ عليها.

ب- أن الغالب من كلمة (استولى) أنها لا تكون إلا بعْد مغالَبة، ولا أحد يغالِب الله.

جـ- أنه يصح أن نقول: استوى الله على الأرض وعلى الشجر، ونحو ذلك، أي: أنه=

رابعًا: لا يَلزم مِن كونه مُستويًا على العرش أن يكون محتاجًا إليه، أو أن العرش يَحمِله؛ فإن هذا لا يلزم، بل الله سبحانه لا يحتاج لشيء مِن مخلوقاته، ولا يَحمِله شيءٌ منها.

خامسًا: اعلم أن الاستواء يأتي مقيَّدًا، وله ثلاثة أنواع:

١ - **مقيَّد بـ(إلى)**، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٩]، فهذه

= مستولٍ عليها. «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٣٧٧).

وقد ذكر ابن القيم اثنين وأربعين وجْهًا، لإبطال هذا التفسير: «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٣٧١ - ٣٩٠).

وأما البيتُ الذي يستدلون به - وهو بيت الأخطل - **فيجاب عنه من أوجه:**

١- أن هذا البيت مكذوب لم يثبت أنه شعر عربي، ولم يُعرَف في شيء من دواوين المسلمين، قال ابن تيمية: ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه، وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يُعرف في اللغة، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته، فكيف ببيت من الشعر لا يُعرف إسناده! وقد طعن فيه أئمة اللغة، فكيف يَردُّ هؤلاء الأحاديث الصحيحة لأنها آحاد، ويقبلون هذا البيت المكذوب؟!

٢- أن الأخطل لا يُعتدُّ به في اللغة؛ لأنه من المولَّدين الذين دخلوا في العرب، وليس من البلغاء، فلا يكون حُجةً.

٣- لو فرضنا أنه من البلغاء، فهو نصراني وعقيدته سيئة، فلا يُغتَر بكلامه، ولذا قال ابن تيمية:

قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ الكِتَابَ وَرَاءَهُ   وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ

٤- أن يُحمل الاستواء هنا على ظاهره، فيكون المعنى: استوى بِشرٌ على العراق، بمعنى: ارتفع عليه، وعلا علوَّ غلبةٍ وقهْر.

انظر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٠٤)، و«مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٥/ ١٤٦) (٦/ ٢٩٧)، و«شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٣٧٨)، و«شرح الواسطية»، للجبرين (١/ ٢١٣).

بمعنى العلوِّ والارتفاع، وقيل: إن معناها: أنه قصَد إليها قصدًا كاملًا؛ لأنها عُدِّيت بـ (إلى).

٢ - **مقيَّد بـ (على)**، كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزُّخرُف: الآية ١٣]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هُود: الآية ٤٤]، ومعناها: العلو والارتفاع والاعتدال.

٣ - **مقرونٌ بـ (واو المعية)**، كقولهم: (استوى الماءُ والخشبةَ)، فهي بمعنى: ساواها[١].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «الصواعق المرسلة»، (١/ ١٩٥، ١٩٦).

وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥][(١)].

وقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٨].

وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠][(٢)].

وقوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٥، ٣٦][(٣)].

وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك: ١٦، ١٧][(٤)].

---

(١) ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: رفعه الله إلى السماء وهو حيٌّ، وفيه دلالة على العلو على خلقه؛ إذ الرفع لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى. انظر: «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: يرتفع إلى الله كل كلمة يتقرب بها إلى الله، من قرآن وذكر ودعاء وغيره.

﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾: قيل: المراد بها أن العمل الصالح يَرفع الكلم الطيب؛ إذ إنه لا يُقبَل إلا بالعمل الصالح، فمَن ذكر الله به ولم يؤدِّ فرائضه رُد كلامه.

وقيل: المراد أن الله يرفع العمل الصالح كذلك. انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٣٧).

(٣) ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: طُرُق السماء وأبوابها، وكل ما أدى إلى شيء فهو سبب إليه. انظر: «تفسير الطبري» (٣٠/ ٣٢٤، ٣٢٦).

(٤) ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: هو الله تعالى، أي: هلْ أمنتم عُقوبةَ مَن في السماء إنْ عصيتموه.

وأهل السنة لهم توجيهانِ في قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

الأول: أن تكون (في) بمعنى (على).

الثاني: أن يُراد بالسماء: العلو. =

الكلام على هذه الآيات في مسائلَ:

أولًا: في هذه الآيات دليلٌ على عُلوِّ الله سبحانه، يتبيَّن هذا من قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ...﴾، ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، والسماء في جهة العُلو، وهذه نصوصٌ صريحة. وأهلُ السنة يعتقدون أنَّ الله عالٍ على خلْقه، بائن منهم، وأنه فوق جميع مخلوقاته، ومستوٍ على عرشه، في سمائه، يعلم أعمالهم، ويسمع أقوالهم، لا تخفى عليه خافيةٌ منهم.

قيل لعبد الله بن المبارك: بماذا نعرف ربَّنا؟ قال: بأنه فوق سماواته، على عرشه، بائنٌ مِن خلْقه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض[1].

وقال أبو حنيفة: «مَن قال: لا أعرِف ربي في السماء أم في الأرض، فقد كفَر، وكذا من قال: إنه على العرش، ولا أدري العرش أفي السماء أم في الأرض»[2].

وقال الإمام الشافعي: «القولُ في السُّنة التي أنا عليها، ورأيت عليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما: إقرارٌ بشَهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنَّ الله على عرشه في سمائه، يقرب من خلْقه كيف شاء، وينزل إلى السماء الدُّنيا كيف شاء»[3].

= انظر: «أضواء البيان» (٨/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الفقه الأكبر» (ص١٣٥).

(٣) أخرجه ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (ص١٨٠)، وانظر: «العلو للعلي الغفار» للذهبي (ص١٦٥).

وقال الآجري: «الذي يذهب إليه أهل العلم: أن الله ﷻ على عرشه فوق سماواته، وعِلمه محيطٌ بكل شيء، قد أحاط علمه بجميع ما خلَق في السماوات العُلى، وبجميع ما في سبع أرضين، وما بينهما، وما تحت الثَّرى»[(١)].

ثانيًا: عُلو الله يأتي على وجهينِ:

١ - علوٌّ معنوي. ٢ - علوٌّ ذاتي.

أما العلو المعنوي: فهو عُلو قَدْرِه؛ فهو سبحانه عالي القدر، وعلو قهره، فهو قاهرٌ لغيره؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١٨]، وهذا العلو المعنوي ثابتٌ بإجماع أهل القِبلة، كلهم يؤمنون به.

وأما العلو الذاتي: فهذا ثابت له سبحانه بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفِطرة.

ثالثًا: الأدلة على إثبات صفة العلو:

أما القرآن والسنة فقد دلَّا على إثبات علو الله ﷻ من ثمانية عشر وجْهًا، ساقها ابن القيم بالتفصيل، **ومنها:**

◈ التصريح بالفوقية، مقرونة بأداة «مِن» المعيِّنة لفوقية الذات، نحو: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل: الآية ٥٠].

◈ التصريح بالعروج إليه، نحو: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: الآية ٤]، وقول النبي ﷺ: **«فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ»**[(٢)].

(١) «الشريعة» (٣/ ١٠٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

◆ التصريح بالصعود إليه، كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: ١٠].

◆ التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٨]، وغير ذلك.

وأما العقلُ: فيقال: إن الله إما أن يكون في العلو أو في السُّفل، وكونه في السفل مستحيل؛ لأنه نقصٌ، ويلزم منه أن يكون شيء من مخلوقاته فوقَه، فلا يكون له العلو التامُّ، وعلى هذا: يكون العلو له واجبًا.

وأيضًا: فالعلو صفة كمال، ولله كلُّ صفات الكمال.

وأما الفطرة: فإن كل إنسان مفطور على أن الله في السماء، والتوجُّهِ إلى السماء عند الدعاء، وهذا الأمر هو الموافق للفطرة؛ ولذلك فإن مَن نفى هذه الصفة قد نافى الفطرة السَّوية[(١)].

وقد وقع أن أبا المعالي الجُويني كان يقرر نفي صفة العلو، فقال له أبو جعفر الهمذاني: دَعْنَا مما تقول، ما هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؟ ما قال العارف قط: (يا الله) إلا وجد مِن قلبه معنًى يطلب العلو، لا يلتفت يَمنةً ولا يَسرةً، فكيف ندفع هذه الضرورة من قلوبنا؟ فصرخ أبو المعالي، ووضع يده على رأسه، وقال: حيَّرني الهمذاني، أو كما قال، ونزَل[(٢)].

ومِما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية مع مَن نَفى صفة العلو وغيرها من

(١) انظر: «شرح الواسطية» للعثيمين (١/ ٣٨٨ - ٣٩٢)

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٤، ٦١) و(٦/ ٥٤٥).

الصفات، ما حكاه بقوله: «ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا مَن هو مِن مشايخهم، وهو يطلب مني حاجة، وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكِر له، وأخَّرتُ قضاء حاجته حتى ضاق صدره، فرفع رأسه إلى السماء، وقال: يا الله، فقلت له: أنت محققٌ، لمن ترفع طرفك؟ وهل فوق عندك أحدٌ؟ فقال: أستغفر الله، ورجع عن ذلك، لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته، ثم بيَّنتُ له فساد هذا القول، فتاب من ذلك، ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فِطَرهم»[(١)][(٢)].

---

(١) «درء التعارض» (٦/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) **قد نفى صفة العلو:**

١- **معطِّلة الجهمية والمعتزلة:** وهؤلاء يقولون: إنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباينٌ له ولا مماثِل له، فينفون عنه الوصفينِ المتقابلينِ اللذينِ لا يخلو موجود عن أحدهما، فشبَّهوه بالمعدومات، وهذا ضلال.

٢- **الحلولية:** الذين يقولون: إنه بذاته في كل مكان، وهذا قول باطل، يلزم منه أن الله بذاته في كل موضع ولو كان نجسًا، وفي كل جسم ولو كان حيوانًا، وتصوُّر هذا القول كافٍ في بطلانه.

٣- **الأشاعرة،** وقد أوَّلوا نصوص العُلو بالغلبة والقهر والسيطرة والملك والشرف، وغير ذلك.

وعِلتهم في ذلك: أنه لو كان العلو بذاته سبحانه كان في جهة، وإذا كان في جهة كان محدودًا وجسمًا، وهذا ممتنع، **والجواب عن هذا من أوجه:**

١ - أنه لا يجوز إبطال دلالة النصوص بمثل هذه التعليلات، ولو جاز هذا لأمكن كل شخص لا يريد ما يقتضيه النص أن يعلِّلَه ويؤوِّله.

٢ - أن الله سبحانه يعلم ما يلزم من كلامه، فلو كانت نصوص العلو تستلزم معنًى فاسدًا لَبيَّنه.

٣ - يقال لهم: ما مرادكم بالحدِّ وبالجسم؟

هل تريدون بالحدِّ: أن شيئًا من المخلوقات يحيط بالله؟ فهذا منتفٍ في حق الله، ولا يلزم من إثبات العلو لله ذلك. =

= أو تريدون بالحدِّ أن الله بائن من خلقه غير حالٍّ فيهم؟ فهذا صحيح، لكن لا نطلق لفظة الحدِّ؛ لعدم ورودها.

وأما الجسم فهل تريدون به أنه جسم مركَّب من عظم ولحْم وجِلد؟ فهذا باطل منتفٍ في حق الله؛ فالله ليس كمثله شيء.

أو تريدون بالجسم ما هو قائم بنفسه متصف بما يليق به؟ فهذا حق من حيث المعنى، لكن لا نطلق لفظه نفيًا ولا إثباتًا؛ لعدم وروده.

انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٢٠٣ - ٢٠٩)، «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٣٨٧).

والغريب أن الأشاعرة نفَوا صفة العلو، وأثبتوا صفة الرؤية مثلًا، برغم أن العلو ورد فيه مئات النصوص تثبته، وجوابهم عن إثبات هذا ونفي هذا: أن إثبات الرؤية من باب (العقليات) لا من باب (السمعيات)، **ومعنى هذا أنهم يقولون**: إن العقل يحيل الجهة على الله تعالى - أي: يحكم باستحالة ثبوت جهةٍ له سبحانه -؛ لأن إثبات الجهة من خصائص الأجسام، ونحن ننزِّه الله تعالى عن الجسمية.

فإذا سُئلوا: وبِمَ أثبتم الرؤية؟

قالوا: أثبتناها بالعقل، لا بمجرد السمع؛ لأن العقل يجيز الرؤية دون اشتراط المقابَلة والجهة وانطلاق شُعاع من عين الرائي إلى المرئي... إلخ.

فانظر إلى عقلهم هذا الذي حكم باستحالة العلو، ولم يحكم باستحالة ذاتينِ منفصلتينِ، يرى كلٌّ منهما الآخر بلا جهة ولا مقابَلة!

وبهذا سَخِر منهم المعتزلة، قائلين: «مَن أثبت الرؤية وأنكر الجهة، فقد أضحك الناس على عقله». انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٨٨).

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: الآية ٤].

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: الآية ٧].

وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

وقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: الآية ٤٦].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٨].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

وقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩].

۞ الكلام على هذه الآيات في مسائل:

أولًا: في هذه الآيات السبعِ إثباتُ صفة المعية لله ﷻ لخلقه.

ومعيَّةُ الباري سبحانه وردت في الآيات على وجهينِ:

١) معيَّةٌ عامَّة: وهي التي تقتضي إحاطة الله بخلقه، واطِّلاعه عليهم، ومراقبته لهم، وقُربَه منهم، وسمْعَه لهم، ورؤيتَهُ لهم، وهذه المَعيَّةُ ينبني عليها أن يَحذر العباد من عِلمه واطلاعه وقدرته، ولا ينافي هذا عُلوَّه على

عرشه[(١)].

وهذه المعيَّة ورد فيها الآيتانِ الأُولَيَانِ؛ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾.

قال ابن تيمية: «دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ومقتضاها: أنه مطَّلعٌ عليكم، شهيدٌ عليكم، مهيمنٌ، عالِمٌ بكم»[(٢)].

٢) معيَّةٌ خاصَّة: بالمؤمنين، ومقتضاها: النصرُ والتأييدُ والإعانةُ والحفظ والرعاية، وهذه ورد فيها الخمسُ الباقية.

١- ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ قالها رسول الله ﷺ لأبي بكر حين كانَا في الغار، والكفار يتبعونهما، وخرجوا من كل طريق يبحثون عنهما، فقال له رسول الله ﷺ بمقال اليقين التام: «**لَا تَحْزَنْ؛ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**»[(٣)]: بحفظه ونصْره وكلاءته ورِعايته.

٢- ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ قالها ربنا سبحانه لموسى وهارون، حين خافا بطْش فرعون ومن معه؛ إذ يدعونهم إلى الله، فقال ربنا: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾، أي: بحفظي واطلاعي ورعايتي.

٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ أكرمهم بمعيته لهم، حين اتقَوا وأحسنُوا.

٤، ٥- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهذا شيء مِن

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٨/ ٣٧٣)، و«عدة الصابرين» (ص٥٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٠٣).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩).

ثَمرة صبْرهم؛ أنْ كان الله معهم، ومِن كرامة الله لهم كذلك قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

قال الشوكاني حين تكلَّم عن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: ويا حبَّذا هذه المعيةُ التي لا يَغْلِبُ مَن رُزِقها غالبٌ، ولا يُؤتَى صاحبُها من جهة من الجهات، وإن كانت كثيرةً[١].

وقد ورد في القرآن عدة آيات فيها إثبات معية الله- المعية الخاصة- لأقوام اتصفوا بصفات محبوبة لله، ومنها: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ١٩].

ثانيًا: إن قيل: كيف نَجمع بين معيته لخلْقه وبين عُلوه سبحانه على عرشه؟

فالجواب: لا بد أن تَعلم أن معية الله تعالى على حقيقتها، لكن ليست معيةً كمعيَّةِ الإنسان مع الإنسان، فنحن نقول: ليس مقتضى المعية أن تكون ذات الرَّبِّ مختلطةً بالخلق، وأنه بذاته في كل مكان، أو أن وجوده عينُ وجود المخلوقات، وكذلك لا نقول بأن معيته كنايةٌ عن العلم والسمع والبصر؛ فإن هذا مقتضاها، وإلا فهي حقٌّ على حقيقتها[٢].

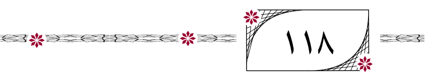
والجمع بين عُلوه ومَعيته سبحانه من وجهينِ:

١) أنه ممكن أن يكون الشيء عاليًا وهو معك، كما تقول العرب:

---

(١) «فتح القدير»، للشوكاني (٢/ ٣٦٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٠٤)، و«العرش» للذهبي (١/ ١٧٦).



سِرْنا والقمر معنا، والشمس معنا، مع أن القمر والشمس في السماء، فإذا أمكن اجتماع العلوِّ والمعية في المخلوق، فاجتماعهما في الخالق من باب أَولى[١].

أرأيت: لو أن رجلًا بكى طفله، فأطلَّ عليه من مكانٍ مرتفع، أو من السطح، وقال له: إنني معك، يعني: مطلع عليك قريب منك[٢].

٢) لو فرضْنا أنه تعذَّر اجتماعهما في المخلوق، فإنه لا يكون متعذِّرًا في حق الخالق؛ لأنه سبحانه أعظمُ وأجَلُّ، ولا يمكن أن تُقاس صفاتُه بصفاتِ خلْقه[٣].

ثالثًا: قد يشكل على البعض قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجَادلة: الآية ٧]، مِن جهة أنها قد تفيد الحلول، وقد استَدل بها الحُلولية على ذلك.

وقد أجاب عنها الآجري بقوله: «عِلمه ﷻ، والله على عرشه، وعِلمُه محيط بهم، كذا فسر أهل العلم الآية، يدل أوَّلُها وآخرُها على أنه العلم.

فإن قيل: كيف تؤول هذه الآية بالعلم، ومعلوم أن أهل السنة لا يُؤوِّلون؟!

قال: الآية يدل أولُها وآخرُها على أنه العلم؛ ابتدأ الله ﷻ الآية

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٠٣)، «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٤٠٤).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٠٤).
(٣) «شرح الواسطية»، للعثيمين (١/ ٤٠٥) «القواعد المثلى» (ص٥٩).

بالعلم، وختمها بالعلم، فعِلمه ﷻ محيط بجميع خلقه، وهو على عرشه، وهذا قول المسلمين، قال مالك بن أنس: الله ﷻ في السماء، وعِلمه في كل مكان، لا يخلو مِن عِلمه مكانٌ، وفي كتاب الله آيات تدل على أن الله في السماء على عرشه، وعلمه محيط بجميع خلقه... ثم ساق آياتٍ وأحاديثَ في ذلك[(١)].

وذكر ابن تيمية كلامًا طويلًا في هذه المسألة، ثم قال: وقد بُسِط الكلام عليه في موضع آخر، وبُيِّن أن لفظ المعية في اللغة وإن اقتضى المصاحبة والمقاربة، فهو إذا كان مع العباد لم ينافِ ذلك عُلوَّه على عرشه، ويكون حكْم معيته في كل موطن بحسبِه؛ فمع الخلْق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان، ويَخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد[(٢)].

---

(١) «الشريعة»، للآجري (٣/ ١٠٧٥-١٠٩٥).

(٢) «شرح حديث النزول» (ص١٢٥ - ١٢٨) وتمام كلامه قوله: لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة في آيتيهما، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم، وقالوا: هو معهم بعِلمه، وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يخالفهم أحدٌ يُعتَدُّ بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك، ومقاتل ابن حيان وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية: هو على العرش وعِلمُه معهم، وهكذا عمن ذُكِر معه، وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية في «الرد على الجهمية».

ولفظ المعية في كتاب الله جاء عامًّا، كما في هاتينِ الآيتينِ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، وجاء خاصًّا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فلو كان المراد: بذاته مع كل شيء، لكان التعميم يناقض التخصيص؛ فإنه قد عُلِم أن قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أراد به تخصيصه وأبا بكرٍ دون عدوِّهم من الكفار، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، خصَّهم بذلك دون الظالمين والفُجار. وأيضًا: فلفْظ المعية ليس في لغة =

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٢]؟! ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النِّساء: الآية ٨٧](١)؟!

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المَائدة: الآية ١١٠].

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١١٥](٢).

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤](٣).

وقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٣].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣].

وقوله: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريَم: الآية ٥٢](٤). وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٠].

= العرب، ولا شيء من القرآن أن يُراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى، كما في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾، وقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ﴾، ومثل هذا كثير.
وأيضًا: فامتنع أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يدل على أن ذاته مختلِطةٌ بذوات الخلق.
وأيضًا: فإنه افتتح الآية بالعِلم، وختمها بالعلم، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالِمٌ بهم.

(١) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾: استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أصدق من الله حديثًا وقولًا.

(٢) ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: أي: كلام ربك سبحانه، صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.
﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾: لا أحد يُعَقِّب ويردُّ كلماته الكونية، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(٣) ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾: مصدر مؤكد لدفْع كون التكليم مجازًا.

(٤) ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾: النداء هو الصوت المرتفع، ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾، أي: أدنيناه حتى كلَّمناه وناجيناه، والمناجاة: تكون للقريب بصوت غير مرتفع، والمناداة للبعيد بصوت مرتفع.

وقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٢].

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القَصَص: الآية ٦٥].

الكلام على هذه الآيات في أربع مسائلَ:

أولًا: هذه الآيات المتقدِّمة دالةٌ على صفة الكلام لله سبحانه. وأنه سبحانه يتكلم بكلامٍ حقيقي يُسمَع. وأنه سبحانه يتكلم متى شاء بما شاء وكيف شاء. وأن كلامه لا يماثِل كلام المخلوقين. وأن الله سبحانه ينادي ويناجي ويتكلَّم كيف شاء. وأن كلام الله قديم النوع - بمعنى: أن الله لم يَزَل متصفًا بالكلام - وحادث الآحاد[1]، فهو لا زال متكلِّمًا، ويتكلم متى شاء.

وهذا الأمر استقر عليه إجماع أهل السنة، وهو مذهب الأئمة الأربعة، حكى قولهم شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع[2]، ثم قال: «فمن قال: إن حروف المعجَم مخلوقة، وأن كلام الله تعالى مخلوق؛ فقد قال قولًا مخالفًا للمعقول الصريح والمنقول الصحيح، ومن قال: نفْسُ أصواتِ العبادِ أو مِدادهم أو شيئًا من ذلك قديمٌ، فقد خالف أيضًا أقوال السلف،

(١) قال ابن تيمية موضِّحًا معنى (قديم النوع حادث الآحاد): «وكلام الله غير مخلوق عند سلف الأمة وأئمتها، وهو أيضًا يتكلم بمشيئته وقدرته عندهم لم يزل متكلمًا إذا شاء، فهو قديم النوع، وأما نفس النداء الذي نادى به موسى ونحو ذلك فحينئذٍ ناداه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [طه: الآية ١١]، وكذلك نظائره، فكان السلف يفرقون بين نوع الكلام وبين الكلمة المعينة. «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٧٧).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح» (٢/ ١٦٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٧، ٣٨).

وكان فسادُ قولِه ظاهرًا لكل أحد، وكان مبتدعًا قولًا لم يقُلْه أحدٌ من أئمة المسلمين، ولا قالته طائفةٌ كبيرة من طوائف المسلمين، بل الأئمة الأربعة، وجمهور أصحابهم بَريئون من ذلك»[(١)].

وقال الآجري: «مَن ادَّعى أنه مسلم، ثم زعم أن الله ﷻ لم يُكَلِّمْ موسى فقد كفَر، يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتِل.

فإن قال قائل: لِمَ؟

قيل: لأنه ردَّ القرآن وجحَده، ورد السُّنة، وخالف جميع علماء المسلمين، وزاغ عن الحق، وكان ممن قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النِّساء: الآية ١١٥]، فمن زعم أن الله ﷻ لم يكلِّمْ موسى، فقد ردَّ نصَّ القرآن وكفَر بالله العظيم»[(٢)].

ثانيًا: كلام الله نوعانِ:

١) كلامٌ كوني قدَري: به تُوجَد الأشياء، ومنه قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢].

ومنه: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقًا وَعَدۡلًاۚ﴾ [الأنعام: الآية ١١٥].

٢) كلامٌ دِيني شرعي: وهو القرآن والكتب المنزَّلة على رسله وشرعه الذي أنزله، فقد تكلَّم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٤، ٥٥).

(٢) «الشريعة» (٣/ ١١٠٩).

(٣) «التنبيهات السنية» (١٤١).

ثالثًا: تكليم الله لعباده نوعانِ:

١) بلا واسطة: كما كلَّم موسى ومحمدًا، والأبوَين - آدم وحوَّاء - عليهما السلام.

٢) بواسطة: كما كلَّم عباده بالوحي الخاص للأنبياء، أو بإرساله رسولًا إليهم يكلِّمهم مِن أمره بما شاء(١).

---

(١) **أنكر الأشاعرة هذه الصفة، فزعموا أن كلام الله:**

١- معنًى قائمٌ بالنفس، ليس بحروف ولا أصوات، وإنما كلام نفسي.

٢- معنًى واحدٌ قديم، قائم بذات الله أزلًا وأبدًا، كحياته وعِلمه، لا يتعلق بمشيئة الله وقدرته، ولا يتكلم إذا شاء متى شاء.

٣- قالوا عن القرآن المتلوِّ: إنه ليس كلام الله، بل هو حكاية أو عبارة عن كلام الله؛ لأن الكلام عندهم هو المعنى فقط، أما إطلاق اللفظ عليه فمجازٌ. انظر: «تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل» (ص٢٨٣)، «المواقف» للإيجي (٣/ ٢٠٣).

٤- وأجابوا عن النصوص الواردة في تكليم الله لملائكته وتكليمه لموسى، وتكليمه لعباده يوم القيامة، ومُناداته لمن ناداه: أن هذا **خلْق إدراكٍ في المستمِع أدرك به ما لم يَزَل موجودًا.** انظر: «درء التعارض» (٢/ ٣٠٥، ٣٠٦).

ودافِعُهم في ذلك: أنهم ظنُّوا أن إثبات صفة الكلام لله يترتب عليه تشبيهه بالمخلوق، ولذلك فهمْ حرَّفوا النصوص هَرَبًا من الإثبات.

واعلم أن مذهبهم في صفة الكلام هو جزءٌ من مذهبهم في الصفات الاختيارية القائمة بالله، والتي نفَوها لأجْل دليلِ حدوث الأجسام والأعراض الذي استدلوا به على حدوث العالَم. انظر: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٣/ ١٢٦١).

وقد ردَّ عليهم ابن تيمية هذا مِن تسعين وجْهًا - في كتابه «التسعينية» - وقد أخبر رحمه الله: أن هذا في الحقيقة تكذيبٌ للرسل، الذين إنما أخبروا الأمم بكلام الله الذي نزل إليهم، فمَن زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي فقد زعم أن الله أخرس.

قال ابن تيمية: فالسلف والأئمة نصُّوا على أن الرب تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء وكما شاء، كما نصَّ على ذلك عبد الله بن المبارَك وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة الدين وسلف المسلمين. «مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٨٥). وسيأتي لهذا ذكر في المتن، حيث=

رابعًا: كلام الله ليس له نهاية، ولا يحيط به محيطٌ، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ﴾ [التوبة: الآية ٦][1].

وقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٥][2].

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح: الآية ١٥][3].

وقوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾ [الكهف: الآية ٢٧].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: الآية ٧٦].

❐ **في هذه الآيات الخَمس إثبات أن القرآن كلام الله حقيقة، وأن الله متَّصفٌ بصفة الكلام متى شاء وكيف شاء، وأن القرآن جميعَه كلام الله،**

= يذكر المصنف فصلًا مستقلًّا في مذهب أهل السنة في القرآن.

(١) ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾: طلب جوارك وحمايتك، ﴿فَأَجِرْهُ﴾: أمِّنه.

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: حتى يسمع القرآن؛ لأن سماعه مؤثِّر، وربما أدى إلى إسلامه.

(٢) ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: هم اليهود يحرفون التوراة، ويغيرون معناها.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: مِن بعد ما فَهموه، وهم يعلمون أنهم بتحريفهم مفترون.

(٣) ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾: هو الوعد الذي وعَد به أهل الحديبية؛ أن غنيمة خيبر لهم خاصةً.

حروفه ومعانيه، ليس شيءٌ من ذلك كلامًا لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآنُ اسمًا لمجرد المعنى، ولا لمجرد الحرف، بل لمجموعهما.

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ أُنزِل»[(١)].

وقال ابن خُزَيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القرآن كلام الله غير مخلوق، فمن قال: إن القرآن مخلوق، فهو كافر بالله العظيم، لا تُقبل شَهادته، ولا يُعاد إن مرِض، ولا يُصلَّى عليه إن مات، ولا يُدفَن في مقابر المسلمين، ويُستتاب، فإن تاب، وإلا ضُرِبت عُنقه»[(٢)].

وقال الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «عقيدته»: «وإن القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحْيًا، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقًّا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة»[(٣)].

وقال أيضًا: «ليس - أي: القرآن - بمخلوقٍ ككلام البَرِية، فمَن سَمعه فزعم أنه كلام البشر، فقد كفَر»[(٤)].

وقال الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «عقيدة السلف»: «ويشهدُ أصحاب الحديث ويعتقدون: أن القرآن كلام الله وكتابه، ووحْيه وتنزيله غير مخلوق، ومَن قال بخلْقه واعتقده فهو كافر عندهم، والقرآن - الذي هو كلام الله ووحْيه - هو الذي ينزل به جبريل على الرسول ﷺ قرآنًا عربيًّا لقوم

---

(١) «الفقه الأكبر» (ص٢٠).
(٢) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص١٦٧، ١٦٨).
(٣) «متن الطحاوية» (ص٤٠).
(٤) المصدر نفسه.

يعلمون، بشيرًا ونذيرًا، كما قال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وهو الذي بلَّغه الرسول ﷺ أمته، كما أخبر به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: الآية ٦٧]، فكان الذي بلَّغهم - بأمر الله تعالى - كلامَه ﷻ، وفيه قال ﷺ: «**أَتَمْنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟**»[(١)]. وهو الذي تحفظه الصدور، وتتلوه الألسنة، يُكتب في المصاحف، كيفما تصرف بقراءة قارئٍ، ولفظ لافظٍ، وحِفظ حافظٍ، وحيث تُلِي، وفي أيِّ موضع قُرِئ، وكُتِب في مصاحف أهل الإسلام، وألواح صِبيانهم وغيرها؛ كلُّه كلامُ الله - جلَّ جلالُه - غير مخلوق[(٢)].

وكلمات السلف في إثبات أن القرآن كلام الله ﷻ كثيرة جدًّا[(٣)].

وسيأتي زيادة كلام لهذه المسألة، وأن القرآنَ المتلوَّ في المصاحف هو كلام الله حروفه ومعانيه؛ لأن الكلام إنما يُنسب إلى مَن قاله ابتداءً، لا إلى مَن قاله مؤدِّيًا مبلِّغًا، فلو قرأتَ رسالة شخصٍ فأنت تقرأ رسالته

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، من حديث جابرٍ رضي الله عنه، بلفظ: «**ألا رجلٌ يَحمِلُني إلى قومِهِ؟ فإنَّ قريشًا قد مَنَعوني أن أُبلِّغ كلامَ رَبِّي ﷻ**».

(٢) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص١٦٥، ١٦٦).

(٣) وقد خالف في هذا المعتزلةُ والجهميةُ، وقالوا بأن القرآن ليس هو كلامًا، وإنما هو مخلوق خلَقه الله.

وإنما وقع هذا القول منهم؛ لأنهم لما نفَوا صفة الكلام لله، وجعلوا الكلام خاصًّا بالمخلوق، أُورِدَ عليهم القرآن، فلم يَجدوا بُدًّا من القول بأنه مخلوق، وأنكروا أن يكون هو كلام الله.

فجاء لهم أهل السنة بهذه الآيات وغيرها، من الآيات الدالة على إثبات كلام الله، وأن القرآن هو كلام الله مُنزَّل غير مخلوق.

وكلامه، لا كلامك، وهذا قدْ قرَّره ابن تيمية في مواضعَ عديدةٍ[(١)].

وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: الآية ٩٢].

وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: الآية ٢١][(٢)].

وقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣][(٣)].

❏ **في هذه الآيات كلِّها إثبات أن القرآن كلام الله مُنزَّل من السماء، وأنه غير مخلوق، وأنه كلام الله، لا كلام غيرِه من الملائكة أو البشر.**

والنزول الوارد في القرآن ثلاثة أنواع:

(١) وقد ألَّف كتابًا يَرُد فيه على مَن قال: إن كلام الله كلام نفسي، مِن تسعين وجهًا، اسمه «التسعينية».

(٢) أي: لو أن هذا القرآن أنزله الله على جبل لرأيت الجبل ذليلًا خاشعًا، متصدعًا من خشية الله، مع أنه شديد الصلابة، وهذا دليل على عَظَمة القرآن وأنه تخشع له الجبال، فما بال قلوب بعض الناس لا تخشع؟!

(٣) يقول الله: إذا نسخنا آيةً وأنزلنا غيرها لمصلحة العباد، قال كفار قريش لمحمد ﷺ: إنما أنت كذابٌ، تتقوَّل على الله، حيث تزعم أنه أمرك بشيء، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فبيَّن الله أن أكثرهم لا يعلمون الحكمة من ذلك، ولا يعلمون شيئًا من ذلك.

١) **نزول مقيَّد بأنه من الله:** ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾، وهذا الذي قصد به القرآن، ومن ذلك قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزُّمَر: الآية ١].

٢) **نزولٌ مقيَّدٌ بأنه من السماء:** ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفُرقان: الآية ٤٨].

٣) **نزول غير مقيَّدٍ لا بهذا ولا بهذا، بل مطلَق:** ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحَديد: الآية ٢٥][١].

وفي الآيات أيضًا إثبات صفة العلو لله؛ لأن نُزول الشيءِ يدل على أنه ينزل من عُلو.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/٢٤٧)، و«التنبيهات السنية» (ص١٤٨).

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣][1].

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: الآية ٢٦][2].

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق: الآية ٣٥][3].

الكلام على هذه الآيات في مسائل:

أولًا: أفادت هذه الآيات إثبات الرؤية لله، وهي رؤية حقيقية، يراه المؤمنون بأبصارهم، وليست كنايةً عن انتظار الثواب، كما أوَّله النُّفاة.

ثانيًا: أفادت الآيات أن رؤية الله خاصةٌ بيوم القيامة، وأما في الدنيا فلم يَثْبُتْ أن أحدًا رأى ربَّه فيها، حتى الأنبياء، واختُلِف في محمد ﷺ؛ هل رأى ربَّه أمْ لا؟ واستقر الأمرُ على أنه لم يَرَه بإجماع الصحابة[4].

(١) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾: هي وجوه المؤمنين يوم القيامة، ناضرة: من النضارة، وهو البهاء والحسن.
﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾: مِن النظَر بالعين، فيرَون ربهم سبحانه يوم القيامة وفي الجنة.

(٢) ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هي النظر إلى وجه الله، كما فسرها بذلك النبي ﷺ في حديث صهيب عند مسلم (١٨١)، قال ابن رجب في بيان مناسبة كون جزاء المحسنين رؤية الله: «لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظرَ إلى وجه الله تعالى عيانًا في الآخرة». «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٢٦).

(٣) ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: هو النظر إلى وجه الله تعالى، كما رُوِي عن علي بن أبي طالب. أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٩٣)، وكذا رُوِي عن أنسٍ بإسناد صحيح: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، قال: «**يَتَجَلَّى لَهُمْ كُلَّ جُمُعَةٍ**»، أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٧/ ٢٤).

(٤) انظر: «رد الدارمي على بشر المريسي» (ص٢٨٧). =

ثالثًا: أفادت الآيات أن رؤية الله مِن أجلِّ نعيم الجنة وأعظَمه، فهو الزيادة التي يُعطاها المؤمن في الجنة(١)، نسأل الله أن يرزقنا ذلك بفضْله.

وسيأتي لاحقًا - في فصل خاصٍّ - الإشارة إلى رأي مَن خالف في هذه المسألة، وشبهتهم، والجواب عنها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

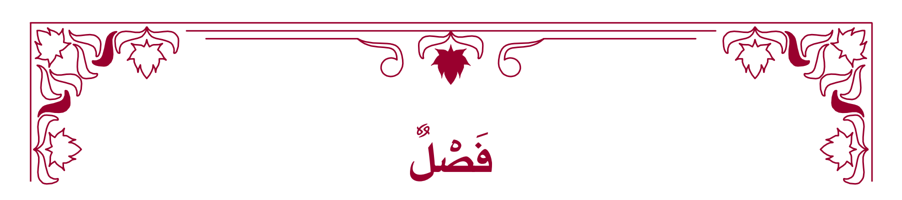
وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ القُرآنَ طالِبًا الهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ.

القرآن الكريم مليء بالآيات التي تخبر بصفات الله ﷻ، بل لا تكادُ تخْلو سورةٌ من القرآن من ذِكر أسماء الله وصفاته، والمؤلِّف لم يقصد استيفاءها كلَّها.

فمَن تفكَّر في كتاب الله طالِبًا للهُدى، اتضح له سبيل الصواب بإذن الله.

= نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام قوله: وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «الرد» له إجماع الصحابة على أنه ﷺ لم يرَ ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس من ذلك، وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة؛ فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه رآه، ولم يقل: بعيني رأسه. ولفظ أحمد كلفظ ابن عباس. اهـ.
انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٦/ ٥٠٧)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (٢٢).

(١) كما في حديث صهيب الذي رواه مسلم (١٨١).



فَصْلٌ

فيما جاءَ فِي السُّنةِ مِن إِثباتِ الصِّفاتِ للهِ ﷻ

ثُمَّ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ ﷻ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

الكلام على هذا في مسألتين:

أولًا: العقيدة مأخوذة ومستقاةٌ من الوحيَين: الكتاب والسنة، والسنة تبيِّن معاني القرآن، وتوضِّح مُجمَله وتدل عليه، وقد قال ﷺ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ**»(١).

فكما أنه يجب الإيمان بما وصَف الله به نفْسه في القرآن، فكذلك يجب الإيمان بكل ما وصَف به الرسول ﷺ ربَّه ﷻ في الأحاديث؛ لأنه كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣)، وأحمد (٢٣٨٦١)، من حديث أبي رافع.

لكن لا بُد لقَبول الحديث والإيمان به وبما فيه من الأسماء والصفات؛ مِن صحة الحديث وثبوته عن النبي ﷺ، ولا يُعتدُّ بحديثٍ لم يَثبت ولم يصح.

وقد تتابعت كلماتُ العلماء المحقِّقين في اعتمادهم السُّنة واحتجاجهم بها.

قال أبو حنيفة: «إذا جاء القولُ عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجالٌ وهمْ رجال»[(١)]؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أتباع التابعين.

وقال أيضًا: «إذا قلتُ قولًا كتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله، قيل: إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبرِ رسول الله ﷺ، قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة»[(٢)].

وقال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك، إلا صاحبَ هذا القبر»[(٣)]، يعني: رسول الله ﷺ.

وقال: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخُذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[(٤)].

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٧٤)، والنص في «فضائل أبي حنيفة وأخباره ومناقبه» (ص٩٧) بلفظ: «وما جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ اخترنا».

(٢) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٧٤).

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٩٣).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٤٣٥).

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي»[(١)].

وقال: «إذا خالف قولي قولَ رسول الله ﷺ فخذوا بقول رسول الله، واضربوا بقولي عرْض الحائط»[(٢)].

وقال: «إذا وجدتم سُنة رسول الله ﷺ فاتبعوها، ولا تلتفتوا إلى أحد»[(٣)].

وقال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عجِبْتُ لقومٍ عرَفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان»[(٤)].

وقال: «لا تقلِّدني ولا تقلِّد مالكًا ولا الثوري ولا الأوزاعيَّ، وخُذْ من حيث أخذوا»[(٥)].

هذا كلام الأئمة الأربعة المتبوعين في الفقه، وكلهم قالوا ما مؤداه: إن الكتاب والسنة إذا صحَّت فهي مقدَّمة على قولهم وقولِ غيرهم، وكلماتُ غيرهم من العلماء والأئمة في تقرير هذه القضية أكثر من أن تُحصر، **فو اعجبًا لمن يتبع هؤلاء الأئمة في الفقه، ثم يحيد عن عقيدتهم ويخالف ما قرروه!**

ثانيًا: ورد في السنة جمهرةٌ كبيرة من نصوص الصفات، وأهلُ السنة يعتقدونها، وأما أهل البدع فقد فتح لهم الشيطان بابًا أغلقوا من خلاله

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٣٥).
(٢) انظر: «مناقب الشافعي» (١/ ٤٧٣) بنحوه، و«إعلام الموقعين» (٢/ ٢٠١).
(٣) أخرجه الهروي في «ذم الكلام وأهله» (٣٨٥).
(٤) انظر: «الصارم المسلول» (ص٥٦، ٥٧)، و«الفروع» لابن مفلح (١١/ ١٠٧).
(٥) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٦٩).

الاستدلال بالسنة؛ وهو أنهم قالوا: أكثر السنة أخبار آحاد، ونحن لا نَستدل في باب الاعتقاد إلا بالمتواتر[(١)].

وقد اخترع هذه البدعةَ والشُّبهةَ المعتزلةُ، وهم بهذه الحُجة يرُدُّون جُلَّ النصوص النبوية؛ لأنها أخبار آحاد.

ثم إنهم حتى في المتواتر لم يَستدلوا به، بل قالوا: «إن المتواتر وإن كان قطعيَّ السند، لكنه غيرُ قطعيِّ الدَّلالة؛ فإن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين، وبهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات، والآحاد لا تفيد العلم، فسدُّوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول ﷺ، وأحالوا الناس على قضايا وهْمية ومقدِّمات خيالية سمَّوها قواطعَ عقلية، وبراهينَ نقلية، وهي في التحقيق ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: الآية ٣٩]، ومن العجَبِ أنهم قدَّموها على نصوص الوحي، وعزلوا لأجلها النصوص»[(٢)].

وقد أطال ابن القيم في ردِّ هذه الشبهة، وسمَّاها طاغوتًا، وفنَّدها عبر عشرة مقامات، بكلامٍ لا مزيد عليه، فلْيُراجع[(٣)].

والإشكالُ أن هذه الشبهة أشْكَلت على بعض الناس، حين «أوردها بعض العلماء ممن ألَّف في أصول الفقه - وجملةٌ منهم ممَّن يَنتسب إلى المعتزلة أو الأشاعرة أو الماتُريدية - فأدخلوا هذه المسألة وصاروا

(١) انظر: «التلخيص في أصول الفقه» (٢/ ٤٣٠)، «الفصول في الأصول» (٣/ ٧٥).
(٢) «مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (ص٥٣٠).
(٣) المرجع السابق.

يذكرون فيها أن أخبار الآحاد لا تفيد إلا الظن، فيُحتج بها في الأمور العملية من الأحكام، لا العلمية، ويقصدون بها أمور العقائد، بينما لو تتبعْنا نصوص السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، لَوجَدْنا الإجماع منهم - تقريبًا - على عدم التفريق في أخبار الآحاد بين الأحكام والعقائد»[(١)].

وقد رُوِي عن إسحاق بن راهويه قال: «دخلت على عبد الله بن طاهر، فقال لي: يا أبا يعقوب، تقول: إن الله ينزل كل ليلة؟ فقلت: أيها الأمير، إن الله تعالى بعَث إلينا نبيًّا نقل إلينا عنه أخبارًا، بها نُحلِّلُ الدماءَ وبها نحرِّم، وبها نُحَلِّلُ الفروجَ وبها نُحَرِّم، وبها نُبيح الأموالَ وبها نُحرِّم، فإن صحّ ذا صحّ ذاك، وإن بطَل ذا بطَل ذاك، قال: فأمسك عبد الله»[(٢)].

ثالثًا: ذكر ابن القيم أن المقبول من أنواع السنة في هذا الباب أنواع:

١ - ما تواتر لفظًا ومعنًى.

٢ - ما تواتَرَ معنًى.

٣ - أخبار مستفيضة متلقَّاة بالقَبول.

٤ - أخبار آحاد ثبتت بنقل العدل الضابط عن مِثله.

فهذه الأنواع الأربعة مفيدة للعلم واليقين، موجِبة للعلم والعمل جميعًا[(٣)].

---

(١) «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (١/ ٦٣).
(٢) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٥٠).
(٣) «مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (ص٥٤٨).

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنا إِلى سماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأخيرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُوني فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُني فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لَهُ؟» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

۞ الكلام على هذا الحديث في مسائل:

أولًا: هذا الحديثُ فيه إثبات نزولِ الله سبحانه إلى السماء الدنيا، نزولًا يليق بجلاله، وهو من الصفات الفعلية لله، ونزوله كل ليلة ووقتُ نزولِه حين يبقى ثلث الليل الآخر، وأهلُ السنة يعتقدون بهذا؛ لأنه صحَّت به الأخبار، ونَقَلَةُ هذه الأخبار عنه ﷺ هم الذين نقلوا لنا الأحكام.

قال الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان بصفة النزول واجب، ولا يسع المسلمَ العاقلَ أن يقول: كيف ينزِل؟ ولا يرُدُّ هذا إلا المعتزلة، وأما أهل الحقِّ فيقولون: الإيمانُ به واجب بلا كيف؛ لأن الأخبار قد صحت عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ**»، والذين نقلوا إلينا هذه الأخبار هم الذين نقلوا إلينا الأحكام من الحلال والحرام، وعِلم الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، فكما قَبِل العلماء عنهم ذلك كذلك قبِلوا منهم هذه السنن، وقالوا: مَنْ ردَّها فهو ضالٌّ خبيثٌ، يَحذرونه ويحذِّرون منه»[(٢)].

ثانيًا: أهل السنة لا يخوضون في كيفية نزوله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما يؤمنون بذلك

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).
(٢) «الشريعة» (٣/ ١١٢٤).

على ما ورد عن النبي ﷺ، وإنما يعتقدون أن له كيفيةً لا يعلمها إلا الله.

قال ابن تيمية: «مذهب سلف الأمة أنه مع نزوله إلى السماء الدنيا لا يزال فوق العرش، لا يكون تحت المخلوقات، ولا تكون المخلوقات محيطةً به، بل هو العليُّ الأعلى، العلِيُّ في دُنوِّه، القريب في عُلوِّه»[(١)].

وورد أن بعض الجهمية قال لبعض أهل السنة: أتقول: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا؟ فقال: ومَن أنا حتى أقول ذلك؟! فقدْ قاله رسول الله ﷺ وبلَّغه الأُمة، فقال له الجهمي: هذا يلزم منه الحركة والانتقال؟ فقال له السُّنِّي: أنا لم أقل من عندي شيئًا، وهذا الإلزام لمَن قال ذلك، وهو الرسول ﷺ، وتصديقه واجب علينا، فإن كان تصديقه على ذلك بطَل الإلزام به، فبُهِت الجهْمي[(٢)(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٩٧ - ٤٠٣).

(٢) «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٤٧٢).

(٣) قد أنكر هذه الصفة طوائفُ من أهل البدع، فأنكرها الجهمية والمعتزلة والمعطِّلون للصفات، **وتأوَّلوها** بأنه ينزل أمره أو رحمته. انظر: «رد الدارمي على بشر المريسي» (ص٧٠).

وهذا باطلٌ من وجوهٍ:

١- أن الأصلَ عدمُ الحذفِ.

٢- أنه لا يُعقَل أن يكون أمرُه أو رحمتُه تقول: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟**».

٣- أنه حدد نزوله: الثُّلث الأخير، ولو كان الذي ينزلُ أمْرَه أو رحمتَه لم يُحدَّد بذلك؛ فهي تنزل كل وقت.

وتأولها آخرون: بأن الذي ينزل هو ملَك من الملائكة. انظر: «غاية المرام في علم الكلام» (ص١٤٣).

وهذا باطلٌ من جهة: أن المنادي عن غيرِه لا يقول بلسانه، بل بلسان مَن أمَره بذلك، =

ثالثًا: **الإيمان بهذا الحديث يورِث المسلم استشعارًا بأهمية وقت التنزل الإلهي، واستغلاله بالدعاء والاستغفار.**



وَقَوْلِهِ ﷺ: «للَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتوبةِ عَبْدِهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ...» الحديثُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

❑ **في الحديث إثباتُ الفرحِ لله تعالى فَرَحًا يَليق بجلاله وعظَمته**، وهذا الفرحُ منه سبحانه فَرَحُ إحسانٍ ولُطفٍ، لا فرَح محتاجٍ إلى توبةِ عبْده منتفعٍ بها؛ فإنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضرُّه معصية العاصين.

والضحكُ مِن الصفات الفعلية لله سبحانه، وليس ضَحِكه كضَحِك المخلوق، بل هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى: الآية ١١].

والحديث دلَّ كذلك على أن فرَحَ الله يتفاضل؛ لأن فرَحه هنا أشد فرحٍ.

وهذا - بلا شك - دليلٌ على رحمته بعباده، وعلى محبة الله للتوبة؛ لأن الفرح يكون بحصول المحبوب، كما ذكر ابن تيمية[(٢)(٣)].

= وعلى هذا: فلو كان على قولهم: إنه ملَك، فإنما يقول: إن الله يقول: مَن يدعوني، ولا يصح أن يكون ملكًا، ويقول هو: مَن يدعوني فأستجيبَ له؟ ونحو ذلك! انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤١٥، ٤١٦).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٢٣).

(٣) وأما المبتدعة من الخوارج والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم، فقد أنكروا هذه الصفة، وغيرها من الصفات الفعلية؛ لأنه يلزم منها التشبيه بالمخلوق - على زعمهم -، =

وَقَوْلِهِ ﷺ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، يَدْخُلانِ الْجَنَّةَ»، متفق عليه[(١)].

الكلام على هذا الحديث في مسائل:

أولًا: **أفاد هذا الحديث إثبات صِفة الضحك لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظَمته**، وقد بيَّن النبي ﷺ سبب الضحك في بقية الحديث، فقال: «**يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى القَاتِلِ، فَيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُسْتَشْهَدُ**».

والأحاديثُ في إثباتِ ضحكه سبحانه كثيرة، ومنها قوله ﷺ: «**حَتَّى يَضْحَكَ اللهُ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ اللهُ مِنْهُ، قَالَ: ادْخُلِ الجَنَّةَ**»[(٢)].

وقوله ﷺ حين سأله الصحابة: مِمَّ تضحك يا رسول الله؟ قال: «**مِنْ ضَحِكِ رَبِّ العَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ**»[(٣)].

= وتأوَّلوها بأنها: إثابته للتائب، أو إرادة الثواب.

وسبق تقرير الردِّ عليهم، ونقول لهم: كيف تثبتون لله إرادةً؟ أوَليس للمخلوق إرادةٌ، فهل تشبه إرادةُ الخالق إرادةَ المخلوق؟ فيقولون: لا، فيقال لهم: وكذلك فرَحُ الله ليس كفَرَحِنا، بل يَليق به ولا نعلم كيفيته، وقد قرَّر ابن تيمية أصلًا نافعًا، فقال: «القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر»، فمَن أثبت صفةً لزمه أن يثبت بقية الصفات، وسواءٌ أثبتها بدلالة النقل، أو بدلالة العقل، فالنقل والعقل يدلانِ على إثبات الصفات الأخرى، كالتي ثبتت، وبهذا يُرَد على الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات دون بعض. انظر: «شرح الواسطية» للعثيمين (٢/ ٢٠).

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧).

ونحن نثبت لله هذه الصفة، ونقول بأنه ضَحِكٌ حقيقي، ولكننا لا نعلم كيف ضَحِكُه؟ إنما اليقين أنه ضَحِكٌ يَليق بجلاله، لا يماثل صفة المخلوق.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «يضحك الله، ولا نعلم كيف ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ»[1].

وقال الإمام ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب: ذكر إثبات ضحك ربنا عَزَّ وَجَلَّ بلا صفةٍ تصِف ضَحِكه جلَّ ثناؤه[2]، ولا يشبَّه ضحكه بضحك المخلوقين، وضحكهم كذلك، بل نؤمن بأنه يضحك؛ كما أعلم النبي ﷺ، ونسكت عن صفة ضحكه جل وعلا؛ إذ الله عَزَّ وَجَلَّ استأثر بصفة ضحِكه، لم يطلعنا على ذلك؛ فنحن قائلون بما قال النبي ﷺ، مصدِّقون بذلك بقلوبنا، منصتون عمَّا لم يبين مما استأثر الله بعلمه»[3].

ثانيًا: لا يلزم مِن إثبات الضحك لله نقصٌ؛ لأن الضحك في موضعه المناسب له صفةُ مدْح وكمال، **قال ابن تيمية:** «الضحك في موضعه المناسب له صفةُ مدْحٍ وكمال، وإذا قُدِّر حيَّانِ، أحدُهما: يضحكُ مما يُضْحَكُ منه، والآخر: لا يضحك قطُّ؛ كان الأولُ أكملَ من الثاني»[4].

ثالثًا: صفة الضحك دالة على إحسان الله وإنعامه، قال ابن تيمية: «ولهذا قال النبي ﷺ: «**يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ**

---

(١) «إبطال التأويلات لأخبار الصفات» لأبي يعلى بن الفراء (ص٤٥).

(٢) أي: بلا تكييف لضحكه.

(٣) «التوحيد» (٢/ ٥٦٣).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٢١).

قَرِيبٌ»(١)، وقال أبو رزين العقيلي: «أوَيضحكُ الربُّ؟ **قال**: **نَعَمْ**، قال: لن نَعْدَم من ربٍّ يضحكُ خيرًا»(٢)، فجعل الأعرابي العاقل - بصحة فطرته - ضحكه دليلًا على إحسانه وإنعامه، فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود، وأنه من صفات الكمال(٣).

❍ **ومِن هنا تُؤخَذ فائدة؛ وهي**: أنَّ الصحابة ﷺ كانوا يَفهَمون معانيَ نصوص الصفات، خلافًا لما يدَّعيه فيهم مفوِّضة المعاني، مِن أنهم كانوا يقرؤون آيات الصفات وأحاديثها قراءةً مجرَّدة، دون أن يفهَموا منها أيَّ معنًى؛ فإن أبا رَزين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لن نَعدَم من ربٍّ يضحك خيرًا».

وقال ابن القيم متحدثًا عن هذه الصفة العظيمة لله تعالى: «ومِن هذا ضحِكُه سبحانه من عبْده؛ حيث يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه، فيضحك سبحانه فَرَحًا ورِضًا، كما يضحك مَن عبدِه إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعةِ حبيبه إلى خدمته، يتلو آياته ويتملَّقه، ويضحك من رجل هرَب أصحابه عن العدو فأقبل إليهم، وباع نفسه لله ولقَّاهم نحْره حتى قُتل في محبته ورِضاه(٤)، ويضحك إلى مَن أخفى الصدقة عن

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٦١) بلفظ: «**يُشرِف عليكم آزِلين مُشفِقِين**».

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (١٦١٨٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٢١).

(٤) أخرج الدارمي في «رده على المريسي» (١٩٤): «**إن الله يضحك إلى اثنين: رجل قام من جوف الليل فتوضأ وصلى، ورجل كان مع قوم فلقوا العدو فانهزموا وحمل عليهم، فالله يضحك إليه**».

وأخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٣): «**ثلاثة يحبهم الله ﷻ، يضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله ﷻ، فإما أن يُقتَل، وإما أن ينصره الله ﷻ ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي كيف صبَّر لي نفسه. والذي له امرأة**=

أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرًّا حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه[(١)]، فهذا الضحك إليه حبًّا له وفرَحًا به، وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة، فيضحك إليه فَرَحًا به وبقدومه عليه[(٢)]»[(٣)][(٤)].

❋ ❋ ❋

= **حسناء وفراش لين حسن، فيقوم من الليل، فيذر شهوته فيذكرني ويناجيني، ولو شاء لرقد. والذي يكون في سفر وكان معه ركب فسهروا ونصبوا ثم هجعوا، فقام في السحر في سراء أو ضراء**».

(١) أخرج الترمذي (٢٥٦٨)، والنسائي (١٦١٥)، وأحمد (٢١٣٥٥)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «**ثلاثة يحبهم الله عز وجل: رجل أتى قومًا، فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم، فمنعوه، فتخلفهم رجل بأعقابهم فأعطاه سرًّا، لا يعلم بعطيته إلا الله عز وجل والذي أعطاه**».

(٢) أخرج ابن أبي شيبة (١٩٣٥٣) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الذين يلقون في الصف الأول فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة، يضحك إليهم ربك، إن ربك إذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم**».

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٤) نفت الأشاعرة وغيرهم هذه الصفة، بحُجَّة أن إثباتها يقتضي التشبيه، ثم تأوَّلوها بالرِّضا، وقالت الأشاعرة: إنها صفة أزلية. انظر: «رسالة إلى أهل الثغر» (ص٥٦)، وهذا بناءً على أصلهم في مسألة حلول الحوادث.

وقال ابن العربي: «هي - أي: صفة الضحك - عبارة عما يكون من فضل الله وفيض عطائه، فهي كما يُقال: ضحكت الأرضُ؛ إذا أبرزت زينتها». «العواصم من القواصم» (٢/ ٣٠٣).

ولكن هذا صرفٌ للنص عن ظاهره بلا دليل، والواجب إثبات الصفة، على ما يليق بربنا سبحانه.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنا مِنْ قُنُوطِ عِبادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ» حَدِيثٌ حَسَنٌ[(١)(٢)].

الكلام على الحديث في مسائل:

أولًا: في هذا الحديث إثباتُ صفةِ العَجَب لله، وهو عَجَبٌ يليق بجلاله وعظمته، لا يشابه صفة المخلوقين، وهي من الصفات الفعلية.

ثانيًا: قد ثبتت هذه الصفة في القرآن كذلك في آيتين:

١- قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٢] بقراءة الضم، وهي قراءة حمزة والكسائي، وهذه القراءة مروية عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، قال الفَرَّاء: «قرأها الناس بنصب التاء ورَفْعها، والرفعُ أحبُّ إليَّ؛ لأنها قراءة عَليٍّ وابن مسعودٍ وعبد الله بن عبَّاسٍ»[(٣)].

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (١٦١٨٧).

(٢) «عجب ربنا»: **العَجَبُ والتعجُّب يكون لأمرين:**

١- ما يحمده المتعجب، ومعناه: الاستحسان، والإخبار عن رضاه به.

٢- ما يكرهه، ومعناه: الإنكار والذم له. انظر: «المصباح المنير» (٢/ ٣٩٣).

«**من قنوط عباده**»: القنوط: شدة اليأس من الشيء، والمراد هنا: اليأس من نزول المطر وزوال القحط.

«**قُرْب غِيَرِهْ**»: بكسر الغين وفتح الياء، أي: تغييره الحال من شدة إلى رخاء.

«**أزلين**»: أي: واقعين في ضيق.

(٣) انظر: «معاني القرآن»، للفراء (٢/ ٣٨٤)، «إعراب القرآن»، للنحاس (٣/ ٤١٣)، «تفسير البغوي» (٧/ ٣٦).

وقد روى الحاكم بسندٍ صحيح عن الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، قال: «قرأ عبد الله - يعني: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٢]؛ فقال شريحٌ: إنَّ الله لا يعجب مِن شيء، إنما يعجب مَن لا يعلم، قال الأعمش: فذكرت لإبراهيم، فقال: إنَّ شريحًا كان يعجبه رأيه، إنَّ عبد الله كان أعلم من شريح، وكان عبد الله يقرؤها: «بَلْ عَجِبْتُ»»[1].

وقال الشنقيطي حين ذكر الرواية بالضم: «وقد قدَّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن القراءتينِ المختلفتينِ يُحكَم لهما بحكم الآيتينِ.

وبذلك تعلم أن هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي فيها إثبات العجب لله تعالى، فهي إذًا من آيات الصفات على هذه القراءة»[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرَّعد: الآية ٥].

وكذا ثبتت في عدَّة أحاديث، ومنها: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ**»[3].

وحديث: «**قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ**»[4].

وقد عقد ابن أبي عاصم في كتابه السُّنة بابًا، فقال: «بابٌ: في تَعَجُّبِ ربنا من بعضِ ما يصنعُ عباده مما يُتَقرب به إليه»، ثم سردَ جملةً من

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٢٥).
(٢) «أضواء البيان» (٦/ ٣٠٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠١٠).
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

الأحاديث التي تُثبِتُ هذه الصفة لله عَجَّلَ[١].

ثالثًا: اعلم أن تعجب الله صفةُ كمالٍ؛ لأنه ليس مقرونًا بجهلٍ، بل يتعجب لخروج هذا الأمر عن نظائره؛ تعظيمًا له، ولا ينافي كونه يعلم بذلك.

وقد قال أبو يعلى بن الفراء بعد أن ذكر ثلاثة أحاديث في إثبات صفة العَجَب: «. . . لا يمتنع إطلاق ذلك عليه - أي: التعجب - وحمله على ظاهره؛ إذ ليس في ذلك ما يحيل صفاته، ولا يخرِجها عما تستحقه؛ لأنَّا لا نثبت عَجَبًا هو تعظيمٌ لأمر دَهَمَه استعظمه لم يكن عالمًا به؛ لأنه مما لا يليق بصفاته، بل نثبت ذلك صفة كما أثبتنا غيرها من صفاته»[٢].

وقال الشيخ البراك: «العَجَبُ الذي يُثْبَتُ لله تعالى ليس كَعَجَبِ المخلوقين؛ لا في حقيقته، ولا في سببه؛ فإنَّ عَجَبَ المخلوقِ يكون لخفاء السبب، كما قيل: إذا ظهَر السبب بطَل العَجب، أما العَجبُ من الله تعالى فإنه واقع مع كمال العلم، فهو لا تخفى عليه خافية، لكنه يقتضي أن الشيء الذي عَجِب الله منه قد تميز عن نظائره»[٣][٤].

---

(١) «السنة»، لابن أبي عاصم (١/ ٢٤٩).

(٢) «إبطال التأويلات» لأبي يعلى بن الفراء (ص٢٤٥).

(٣) «تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري» (٦/ ١٤٥).

(٤) أنكرت الأشاعرة وغيرهم هذه الصفة، وأوَّلوها بالرضا.

قال البراك: «وهذا لا يصح؛ فإن الله يعجب من بعض ما يحب ويرضى، ويعجب مِن بعض ما يُبغِض ويَسخط، كما في الآيتينِ والحديث، ومَن يفسر مِن النفاة العَجبَ بالرضا يُفسر الرضا بالإرادة؛ فيؤول الأمر إلى تفسير العجب بالإرادة؛ وهذا كلُّه من صرف ألفاظ النصوص عن ظاهرها بغير حجة؛ وهذا هو التحريف الذي نهى الله عنه في كتابه، وذم به اليهود في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]»=

رابعًا: **يفيد هذا الحديث أن على العبد أن يَحذَر من القنوطِ من رحمة الله واستبعاد رحمته**؛ فهذانِ أمرانِ ينافيانِ تعظيم الله، بل إنهما لا يصدرانِ ممن عرَف الله حقًّا.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فيها، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها - وفي رِوايَةٍ: عَلَيْها - قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُها إلى بَعْضٍ، وتَقُولُ: قَطْ قَطْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الكلام على هذا الحديث في مسألتين:

الأولى: **في الحديث إثباتُ صفة القَدَم والرِّجل لله ﷻ على الوجه الذي يليق بجلاله وعظَمته**، والحديث ثَبَت بكلتا الروايتينِ، في البخاري ومسلم.

فأما لَفظ القدم: ففي الصَّحيحين من حديث أنسٍ رضي الله عنه، وهو الذي ذكره المصنف.

وأما لفظُ الرِّجل: ففي الصحيحين كذلك من حديث أبي هريرة: «حَتَّى يَضَعَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - رِجْلَهُ».

❍ **وعقيدتنا** أنها قدمٌ ورِجلٌ حقيقةٌ، لا تماثل أرجل المخلوقين، وهذه من الصفات الذاتية الخبرية[2].

قال حنبلٌ: «سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تروى «**إنَّ اللهَ**

= «تعليقات البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري» (٦/ ١٤٥).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) سبق أن الذاتية: التي تتعلق بذاته، والخبرية: أي: التي لا تُعلَم إلا بالخبر.

- تبارك وتعالى - **«يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»**(١)، و**«إِنَّ اللهَ يَضَعُ قَدَمَهُ»**(٢)، وما أشبه هذه الأحاديث، فقال أبو عبد الله: نؤمن بها، ونصدِّق بها، ولا كيف، ولا معنى، ولا نرُدُّ منها شيئًا، ونعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ حقٌّ إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا نردُّ على الله قوله، ولا يُوصف بأكثر مما وصف به نفسه، ولا حدَّ ولا غاية، ليس كمثله شيء»(٣)(٤).

الثانية: الله رحيم، وحكم عدْلٌ، لا يعذِّب أحدًا بلا جُرْم؛ ولذا لم يعذِّب أحدًا من النار بلا جُرم، ولما كانت النار متسعةً كبيرةً، فإنه سبحانه يضع عليها قدَمَه حتى لا يبقى فيها مكان فارغ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٧٠٨، ٧٠٩).

(٤) أنكرت المبتدعة من المعتزلة والأشاعرة هذه الصفة، وتأولوها بتأويلات غريبة.
فقال بعضهم: «رِجله»، يعني: طائفة من عباده، وهم أهل الشِّقوة الذين سبق في علمه أنهم صائرون إلى النار؛ لأن الرِّجل تأتي بمعنى: الطائفة، كما يقال: جاءنا رِجلٌ مِن جراد، أي: جماعة جراد. انظر: «رد الدارمي على المريسي» (٢/ ٨٠٤، ٨٠٥)، و«النهاية»، لابن الأثير (٢/ ٢٠٣).
وقال الآمدي: «يحتمل أن يُراد به: بعض الأمم المستوجبين النار، وتكون إضافة القدَم إلى الجَبار تعالى إضافة التمليك». انظر: «غاية المرام» (ص١٤١).
وكل هذا باطل:
١- لأن النبي ﷺ قال: «**حَتَّى يَضَعَ**»، ولم يقل: حتى يُلقي.
٢- ولأن النبي ﷺ قال: «**عَلَيْهَا**»، فكيف يضعهم عليها؟!
٣- ولأنه لا يمكن أن يضيف اللهُ أهل النار إلى نفسه؛ لأن إضافة الشيء إلى الله تكريم وتشريف. انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٣٣).
٤- ولأن الأصل في الكلام الحقيقة.
والخلاصة: أننا نؤمن أن لله قَدَمًا، مِن غير تشبيهٍ بالمخلوقين، ومِن غير تكييف لها، ومن غير تحريف لمعناها وحقيقتها، ومن غير تعطيل.

وأما الجنة فإنه ينشئ لها خلقًا آخرين، فضلًا منه سبحانه.

وأما رواية: «**إِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ، فَيُلْقَوْنَ فِيهَا، فَتَقولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟** - ثَلَاثًا - **حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا، فَتَمْتَلِئُ، وَيُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، قطْ**»[1]، فهي رواية مقلوبة، انقلبت على بعض الرواة[2]، **والصواب**: ما ذكرنا، والله أعلم.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ عَجَّلَ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا آدَمُ!**
فَيَقُولُ: لَبَّيْك وَسَعْدَيْك.
فَيُنادي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِك بَعْثًا إلى النَّارِ..» **مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ**[3].
وَقَوْلِهِ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ**»، **متفق عليه**[4].

❑ **هذان الحديثانِ متعلقانِ بصفةٍ من صفات الباري عَزَّ وَجَلَّ، وهي صفة الكلام.**

أما الحديث الأول: فهو في الصحيحينِ، وهو مشهورٌ، وتمامه: «**قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى**

---

(١) أخرجها البخاري (٧٤٤٩).
(٢) انظر: «إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات»، لابن الوزير (ص٢١٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).
(٤) أخرجه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦).

وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا ذَاكَ الرَّجُلُ؟...».

◈ والشاهد فيه قوله: «**فَيُنَادِي بِصَوْتٍ**».

وأما الحديث الثاني: فالشاهد فيه قوله: «**سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ**».

فقد أفاد الحديثانِ **إثباتَ صفة الكلام والقولِ لله تعالى**، وأن هذا الكلام بصوت مسموع، وأنه سبحانه يتكلم متى شاء، ولا يشبِه كلام خلْقه، وكلامه قديمُ النوع، حادثُ الآحاد، وأنه يتكلم بحرفٍ وصوتٍ مسموع، وتقدمت الإشارة لذلك.

◈ وأفاد الحديث الثاني أن الله يُكَلِّمُ الجميعَ، بلا ترجمانٍ - **والترجمانُ** هو: الذي يكون واسطة بين متكلمين مختلفين في اللغة، أو المبلِّغ للصوت لمن لم يبلغه -، حيث قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ**»، والخطاب للصحابة، ويلحق بهم المسلمون.

فإن قيل: فهل هذا خاصٌّ بالمؤمنين، أم يُلحق بهم الكفار؟

فالجواب: ظاهر الحديث: أنه حتى الكفار، **قال ابن تيمية**: «القرآن والحديث يدلانِ على أن الله يكلمهم تكليمَ توبيخٍ وتقريع وتبكيتٍ، لا تكليم تقريبٍ وتكريمٍ ورحمة، وإن كان من العلماء مَنْ أنكر تكليمهم جملةً»(١).

فائدة: وكما أن الله تعالى يُوصَف بالكلام، وهي صفة كمال، فهو سبحانه يُوصَف بالسكوت، كما في قوله ﷺ: «**وَسَكَتَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ غَيْرِ**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٨٧).

نِسْيَانٍ، فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ فَاقْبَلُوهَا»[١]، وهذا من كمال صفاته وعظمته سبحانه؛ فإنه إذا شاء تكلم، وإذا شاء لم يتكلم، قال ابن تيمية: «فثبت بالسنة والإجماع أن الله يُوصَف بالسكوت»[٢][٣].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٦١، ٨٩٣٨)، والدارقطني (٤٨١٤)، من حديث أبي الدرداء، والدارقطني (٤٣٩٦)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٢)، من حديث أبي ثعلبة.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٧٩).

(٣) وخالفت الأشاعرة في هذا ونفَوا عنه صفة السكوت؛ بناءً على أصلهم الفاسد، أن هذا يلزم منه حلول الحوادث فيه سبحانه، وهم إنما يقررون أن كلام الله قديم، وهذا كلام فاسد، يلزم منه أن الله لا يتكلم متى شاء بما شاء.
وكذلك المعتزلة ينكرون صفة السكوت؛ لأنهم نفوا صفة الكلام، وقالوا: القرآن مخلوق، وفساد هذا والرد عليه أمر مستفيض عند علماء أهل السنة. انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٩٧).

وَقَوْلِهِ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبُّنا اللَّهُ الذي في السَّماءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ في السَّماءِ والأَرْضِ، كما رَحْمَتُكَ في السَّماءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ في الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنا حُوبَنا وَخَطايانا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبينَ، أَنْـزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفاءً مِنْ شِفائِكَ على هذا الوَجعِ فيَبْرَأَ» رواهُ أَبو داودَ[١].

وَقَوْلِهِ ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[٢].

وَقَوْلِهِ ﷺ: «وَالعَرْشُ فَوْقَ ذلِكَ، واللَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ»[٣]، وَقَوْلِهِ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٠٩).
وقوله: «**أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»: أمر الله نافذ في السماء والأرض، أمره الكوني وأمره الشرعي.
وقوله: «**كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ**»: هذا توسل من الله، كما جعل رحمته في السماء، فشملت كل أهلها، أن يجعل رحمته في الأرض.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد، بلفظ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ، وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟!**» قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، فَقَالَ: «**وَيْلَكَ! أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ!**».

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) من حديث جُبير بن مُطعِم بلفظ: «**إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته**».
وأخرجه الذهبي في «العلو للعلي الغفار» (ص٤٦، ٧٩، ٢٢٧) موقوفًا على ابن مسعود بلفظ: «**والعرش فوق الماء، والله ﷻ فوق العرش، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم**».

قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، رواه مسلم(١).

❐ في هذه النصوص إثباتُ صفةِ العُلو لله سبحانه، وذلك من وجهينِ:

١- بذكر أن الله في السماء، وتقدم أن لهذا توجيهينِ عند أهل السنة:

١) أن تكون بمعنى (على)، كما في قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التَّوبَة: الآية ٢]، أي: على الأرض، وقوله: ﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [المُلك: الآية ١٥]، أي: عليها وفوقها، وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: الآية ٧١].

قال أهل التأويل العالِمون بلُغة العرب: يريد: فوقها، وهو قول مالكٍ، مما فَهِمه عن جماعة مَن أدرك مِن التابعين، مما فهِموه عن الصحابة، مما فهموه عن النبي ﷺ، أن الله في السماء، يعني: فوقها وعليها(٢).

٢) أن يكون المراد بها جهة العلو، والسماء: كلُّ ما أظلَّك وعلاك(٣).

---

(١) هذا الحديث هو في قصة معاوية بن الحكم السلمي: اطلعت على غُنَيمةٍ ترعاها جاريةٌ لي، قِبَل أُحد وَالْجَوَّانِيَّةِ، فاطلعت فإذا الذئب قد أصاب منها شاةً، وأنا من بني آدم آسَف كما يأسفون، فصككتها صكةً، فأتيت رسول الله فأخبرته، فعظَّم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها، قال: «**بلى، جئني بها**»، فجئت بها، فسألها النبي ﷺ: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، فقال: «**مَنْ أنا؟**» قالت: أنت رسول الله، فقال ﷺ: «**أعتقها فإنها مؤمنة**». أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٢) «بيان تلبيس الجهمية»، لابن تيمية (١/ ١٧٧)، «اجتماع الجيوش الإسلامية»، لابن القيم (ص١١٣) (٢/ ١٨٨)، وهو كلام أبي بكر بن وهب المالكي، شارح رسالة ابن أبي زيد.

(٣) انظر: «مختار الصحاح» (ص١٥٥)، «التنبيهات السنية» (١٦٩).

٢- بذكر علو العرش، وأنه سبحانه فوق العرش، وهو مع هذا لا يخفى عليه شيء.

وقد أفاد حديث الجارية أن صفة العلو والفوقية لله أمرٌ فُطِرَ عليه الخلقُ وغُرِزَ في نفوسهم، وأن هذا الأمر شرطٌ لصحة الإيمان.

قال ابن تيمية عن الحديث: «دليل على أنها لو لم تؤمِن بأن الله في السماء - كما قال الله ورسوله - لم تكن مؤمنةً»[(١)].

وَقَوْلِهِ: «أَفْضَلُ الإِيمانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُما كُنْتَ» حَدِيثٌ حَسَنٌ[(٢)].

❏ **في هذا الحديث إثبات معية الله لخلقه،** وتقدم أنها عامة وخاصة، والمراد هنا العامة، وهي معية الاطلاع والإحاطة، وقد أفاد الحديث أن الإيمان بهذه المعية أفضل الإيمان؛ لأنه يترتب عليها رقابة الله، وحينها لن يعصي الله أو يَغفُل عن طاعته أو يتهاون فيها؛ لأنه مستشعر أن الله معه.



(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٥٨).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦)، و«مسند الشاميين» (٥٣٥).

وَقَوْلِهِ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ»، متفق عليه[١].

❑ **في الحديث دليل على قُرْب الله من عبده، وإحاطته به، كما يليق بجلاله وعظَمته،** ولا ينافي هذا كونه في السماء مستويًا على العرش - كما تقدم -؛ لأنه يمكن أن يكون الشيءُ عاليًا وهو قِبَلَ وجهك، كما تكون الشمسُ آخر النهار في السماء وهي أمامك، والخالقُ لا يُقاس بخلقه.

قال ابن تيمية: «قوله ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ**...» الحديث، حقٌّ على ظاهره، وهو سبحانه فوق العرش، وهو قِبَل وجْه المصلي، بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات؛ فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء أو يناجي الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه، وكانت أيضًا قِبل وجهه»[٢].

❍ **ومن ثمرات هذا الاعتقاد** أن العبد يستحضر قُرْب الله ومعيَّته حال العبادة؛ لأنه مدعاةٌ للخوف والرجاء والخشوع.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥)، ومسلم (٥٥١)، من حديث أنس بن مالك، وأخرجه البخاري (٤١٤)، ومسلم (٥٤٨)، من حديث أبي سعيد الخدري.
(٢) «الحموية» (ص٥٢٦).

وَقَوْلِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّماواتِ السَّبْعِ، وربَّ الأرضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيم، رَبَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْراةِ وَالإنْجِيلِ وَالفُرقانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِناصِيَتِها، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ» رواهُ مُسْلِمٌ[1].

❑ **في الحديث إثبات هذه الصفات لله** ﷻ: صفة الأولية، والآخِرية لله، **الأول**: الذي ليس قبله شيءٌ، **والآخِر**: الذي ليس بعده شيء.

وأنه سبحانه هو الظاهر والباطن، وسبق ذكر ذلك عند الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

وَقَوْلِهِ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، متفق عليه[2].

❑ **هذا الحديث في غزوة خيبر لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير**، فقال لهم: «**ارْبَعوا**»، أي: ارفقوا.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

وقد أفاد الحديثُ **إثباتَ قُرْبِ الله من داعيه**، ومعيته لخلقه، وسماعه لأصواتهم، وذلك لا ينافي عُلوَّه واستواءه على عرشه، كما تقدم، فإن الشيء قد يكون بعيدًا قريبًا بالنسبة للمخلوق، فكيف بالخالق سبحانه؟![1]

وَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا تُضامُونَ في رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا على صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِها؛ فَافْعَلُوا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

❏ **في الحديث إثباتُ رؤيةِ اللهِ للمؤمنين**، وتقدَّم بيانها، ويأتي لها زيادة بيان، فمَن أراد نَيل هذه الفضيلة فليحافظ على هاتينِ الصلاتينِ.

وتشبيهُ رؤية الله برؤية القمر إنما هو لتحقيق الرؤية، ونفيِ أنها مجازٌ - كما يعتقد المعطِّلة -، وهو تشبيهٌ للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئي.

وقوله: «لَا تُضَامونَ فِي رُؤْيَتِهِ»: لها وجهانِ:

١- **بتخفيف الميم**، أي: لا يلحقكم ضَيمٌ في رؤيته، كما يلحق الناس مِن رؤية الشيء المشعِّ، كالشمس.

٢- **بالتشديد**: من التضامِّ والازدحام، أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض، كما يتضام الناس عند رؤية الشيء الخفي، بل كل يراه رؤية محققة[3].

---

(١) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٥٥).
(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).
(٣) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٤٤٦).

إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

❐ **هذه الجملة فيها تقرير لمذهب أهل السنة والجماعة تجاه نصوص الصفات في السنة، وخلاصةُ مذهبهم**: أنهم يؤمنون بأحاديث الصفات، ولا يعارضونها بمعقولٍ، ولا يتأولونها، ولا يُشَبِّهُون، كما يؤمنون بآيات الصفات في القرآن من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فلا فرْق بينهما.

فالكتاب والسنة كلاهما حُجة، سواء المتواتر والآحاد، وسبق الإشارة لذلك.

بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ.

❐ **الوسطية تأتي على معنيَين:**

١) التوسط بين شيئين.

٢) بمعنى: العدول الخيار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣]، أي: عُدولًا خيارًا.

وقد أشار المصنِّف هنا إلى وسطية أمة الإسلام، ووسطية أهل السنة.

فأما وسطية أمة الإسلام: فهم وسطٌ بين الأُمم من اليهود والنصارى في أمور كثيرة:

ففي حقِّ الله: أمةُ الإسلام وسطٌ بين اليهودِ الذين يَصِفون الله بالنقائص، وبين النصارى الذين يُشبِّهون المخلوق بالخالق.

وفي حق الأنبياء: أمةُ الإسلام قالوا: عيسى عبد الله ورسوله، وهم وسط بين اليهود الذين جفوا فيه، فكذبوه وكفروا به، وقالوا: إنه ولد زِنا، وبين النصارى الذين غَلَوا في عيسى، حتى جعلوه إلهًا. وكذلك يثبتون نبوة بقية الأنبياء عليهم السلام دون غُلو ولا جَفاءٍ.

وفي العبادات: هم وسَطٌ بين اليهود الذين يُشَدِّدون في الطهارة، فإذا أصاب أحدهم بولٌ قرض ثوبه - أي: قطعه -[1] وبين النصارى الذين لا يتطهرون من الخبث والنجاسة.

وفي القِصاص: أمةُ الإسلام وسطٌ بين اليهود الذين فُرِض عليهم القصاص، وبين النصارى الذين فُرض عليهم العفو.

◈ فأما الإسلام: فيُخيَّر وليُّ الدم بين القصاص والدية، والعفو مجانًا.

هذه بعض معالم وسطية أمة الإسلام بين اليهود والنصارى.

◈ وأما وسطية مذهب أهل السنة، فهو ما أشار له المصنف هنا، وقد ذكَر خمسة أصولٍ حَقق فيها أهل السنة والجماعة الوسطية بين فِرَق الأمة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦) عن أبي وائل، قال: كان أبو موسى الأشعري يشدد في البول، ويقول: إن بني إسرائيل كان إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه.

فَهُمْ وَسَطٌ في بابِ صِفاتِ اللَّهِ ﷻ : بَيْنَ أَهلِ التَّعْطيلِ «الجَهْمِيَّةِ»، وَبينَ أَهْلِ التَّمْثيلِ «المُشَبِّهَةِ».

❐ ١/ وسطية أهل السنة في باب صفات الباري سبحانه:

أثبت أهلُ السُّنةِ للهِ الأسماءَ والصفات، ونفَوا عنه مشابَهة المخلوقين، **وهم وسَطٌ بين طرَفَين مذمومَين:**

١- المعطِّلة: الذين عطَّلوا الله عن صفاته، فأنكروا صفات الله، وزعموا أن إثباتها لله يستلزم التشبيه.

وهم يتفاوتون: فأشدهم غُلوًّا: **الجهمية**[(١)] الذين نفوا الأسماء والصفات، وقالوا: إن الله ليس له بصرٌ ولا قدرةٌ ولا إرادةٌ، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، وما أُضيف إلى الله من الأسماء فهو من باب المجاز، وهكذا، حتى أصبح إلَهُهُم ليس له وجود بالكلية، بل هو مقدَّر في الأذهان، لا وجودَ له في الأعيان، ولذا قيل: الممثِّل يَعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدَمًا، وهمْ بهذا قد جمعوا بين التشبيه والتعطيل.

وقد أفاض العلماء في الردِّ عليهم، ومِن أشهر من أطال في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «بيان تلبيس الجهمية»، وابن القيم في كتابه «الصواعق المرسلة في الردِّ على الجهمية والمعطِّلة»، وقد رُدَّ في الكتابينِ على طوائف التعطيل كلها، ولكن أبرزها الجهمية.

---

(١) هم: المنتسبون إلى الجهم بن صفوان الترمذي، الذي أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، وهو أول من تكلَّم بالتعطيل، فقتَله خالد بن عبد الله القَسْري، ونُسِبَ المذهبُ إلى الجهْم؛ لأنه الذي ناضل عنه، وأظهره ودعا له.

وقد حكم كثيرٌ من العلماء على الجهمية بأنهم ليسوا من فِرَق الإسلام الثِّنتين والسبعين، وممن قال بذلك: ابن المبارَك وغيره[١]، قال ابن تيمية: «المشهور من مذهب أحمد، وعامة أئمة السنة: تكفير الجهمية، وهم المعطلة لصفات الرحمن»[٢]، وقال ابن القيم[٣]:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البُلْدَانِ
واللَّالِكَائِيُّ الإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ... ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي

ومِن المعطلة: المعتزلة[٤].

وقولهم في الصفات والأسماء: أنهم أثبتوا الأسماء ونَفَوا المعاني، فيقولون: سميعٌ ولكن بلا سمع، بصيرٌ بلا بصر، عليمٌ بلا علم، وقالوا: ليس له قدرةٌ ولا عِلم ولا حياةٌ ولا رؤية، ولا إدراك للمسموعات[٥].

والفرق بينهم وبين الجهمية في الأسماء والصفات: أن الجهمية ينكرون الأسماء حقيقة، والمعتزلة لا ينكرون الأسماء، وإنما ينكرون الصفات[٦].

وممن يدخل في المعطِّلة: الأشاعرة: وهم يثبتون الأسماء، وسبعَ صفات، وهي صفات الذات العقلية: «الحياة، والعلم، والقدرة،

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٥٠)، و«درء التعارض» (٧/ ١١٠).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٨٥).
(٣) «القصيدة النونية» (ص٤٢).
(٤) وهم أصحاب واصل بن عطاء، سُمُّوا بالمعتزلة؛ لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري، وقيل: غير ذلك.
(٥) انظر: «التسعينية» لابن تيمية (٣/ ٩٨٩).
(٦) انظر: «التنبيهات السنية» (ص١٨٦).

والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام»، ويسمونها معاني، وينفون الباقي[(١)].

ولهم تفاصيل ليس هذا محلها، وقد أفاض علماء أهل السنة في الردِّ عليهم، وإلزامهم بإثبات بقية الصفات على غرار ما أثبتوه؛ إذ القول في بعض الصفات كالقول في بعض، فكلها دلَّ عليها النص، وكلها يمكن أن تثبت بلا تشبيه، وإن قالوا: إنهم أثبتوا السبع بمقتضى العقل، فكذا نقول بأن العقل - أيضًا - يثبت بقية الصفات.

قال ابن تيمية في الردِّ عليهم: «فإن كان المخاطب ممن يقول بأن الله حيٌّ بحياة، عليم بعِلم، قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقةً، وينازع في محبته ورضاه، وغضبه وكراهته، فيَجعلُ ذلك مجازًا، ويفسره إما بالإرادة وإما ببعض المخلوقات من النِّعم والعقوبات، فيقال له: لا فرْق بين ما نفيته وبين ما أثبته؛ بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فإن قلت: إن إرادته مثل إرادة المخلوقين، فكذلك محبته ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل، وإن قلت: إن له إرادة تليق به، كما أن للمخلوق إرادة تليق به، قيل لك: وكذلك له محبة تليق به، وللمخلوق محبة تليق به، وله رِضًا وغضب يليق به، وللمخلوق رِضًا وغضب يليق به.

وإن قلت: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام. **فيقال لك**: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة.

---

(١) انظر: «الفرق بين الفرق» (ص٣٢٢)، «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (١/ ٤١٧).

فإن قلت: هذه إرادة المخلوق. **قيل لك**: وهذا غضب المخلوق.

وكذلك يلزم القول في كلامه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته؛ إنْ نُفِيَ عنه الغضب والمحبة والرضا ونحو ذلك مما هو من خصائص المخلوقين؛ فهذا منتفٍ عن السمع والبصر والكلام وجميع الصفات.

وإن قال: إنه لا حقيقة لهذا إلا ما يختص بالمخلوقين، فيجب نفيه عنه.

قيل له: وهكذا السمع والبصر والكلام والعلم والقدرة، فهذا المفرِّق بين بعض الصفات وبعضٍ يقال له فيما نفاه كما يقوله هو لمنازعه فيما أثبته.

فإذا قال المعتزلي: ليس له إرادة ولا كلام قائم به؛ لأن هذه الصفات لا تقوم إلا بالمخلوقات، فإنه - أي: الأشعري - يبيِّن للمعتزلي أن هذه الصفات يتصف بها القديم، ولا تكون كصفات المحدثات، فهكذا يقول له المثبتون لسائر الصفات من المحبة والرضا ونحو ذلك...»[1].

٢-الطرف الثاني: المشبِّهة: وسُموا بذلك؛ لأنهم غلَوا وأفرطوا في إثبات الصفات، حتى شبَّهوا الله بخلقه، ومَثَّلوا صفاته بصفات خلقه! تعالى الله عما يقولون، قال الإمام أحمد: «المشبِّه الذي يقول: بصرٌ كبصري، ويدٌ كيدي، وقدمٌ كقدمي، ومن قال هذا فقد شبَّه الله بخلقه»[2].

(١) انظر: «الرسالة التدمرية»، لابن تيمية (ص٣١ - ٣٣)، و«مجموع الفتاوى» (٣/ ١٧، ١٨).

(٢) «إبطال التأويلات» (ص٤٣، ٤٥).

وقال إسحاق بن راهويه: «من وصف الله، فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله، فهو كافر بالله العظيم»[(١)].

والتشبيه ضلالٌ يتنافى مع قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى: الآية ١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النَّحل: الآية ٧٤]، وغيرها من الآيات.

قال ابن تيمية: «فكل قولٍ يتضمن إثبات شيء من خصائص المخلوقين لله، فهذا هو التشبيه الممتنع على الله تعالى»[(٢)].

❍ **تنبيه: اعلم** أن نفي التشبيه ليس معناه نفي صفات الباري سبحانه؛ فإن أهل السنة يثبتون الصفات، وينفون التشبيه، وأما أهلُ البدعِ فإنهم يدَّعون أن أهل السنة مشبِّهة بمجرد إثباتهم للصفات.

قال نعيم بن حماد: «من شبَّه الله بشيءٍ مِن خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفَر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه»[(٣)]، وقال إسحاق بن راهويه: «علامةُ جهمٍ وأصحابِه: دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أُولِعوا به من الكذب: أنهم مشبِّهة، بل هم المعطلة»[(٤)].

وقال: «علامة الجهمية: تسميتهم أهل السنة مشبِّهةً، وعلامة

---

(١) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»، للالكائي (٩٣٧)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٢٢)، و«درء التعارض» (٤/ ١٤٦) بتصرف.

(٣) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٩٣٦).

(٤) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٩٣٨).

القدرية: تسميتهم أهل السنة مجبِّرةً، وعلامة المعتزلة: تسميتهم أهل السنة حَشَويةً، وعلامة الرافضة: تسميتهم أهل السنة نابتةً»[(١)].

وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ.

❏ ٢/ **وسطية أهل السنة في باب أفعال الباري سبحانه:**

انقسم الناسُ في باب القدَر وأفعال الله إلى ثلاثة أقسام:

١- **الجبْرية:** نسبةً إلى القول بالجبْر، وهؤلاء غَلَوا في إثبات القدَر لله؛ حتى سلَبوا الإنسان قدرته واختياره، وقالوا: إن الله فاعل كل شيء حقيقةً، وليس للعبد اختيار ولا قدرةٌ، وإنما يفعل العبد الفعل مجبَرًا عليه، ولا إرادة له، إنما هو كحركة المرتعِش، وإضافة الأعمال إلى العبد مجاز.

وأول من قال بالجبر: هو الجهْم بن صفوان.

٢- **القدرية النُّفاة من المعتزلة:** وهؤلاء غلَوا في إثبات أفعال العباد؛ فقالوا: إن العبد مستقلٌّ بفِعله، وليس لله فيه مشيئة ولا تقدير، فأفعالهم ليست داخلةً تحت قضاء الله وقدَره، فالله لا يقدِّر أفعال العباد ولا شاءها منهم. وغلا بعضهم، فقال: إن الله لا يعلم فعْل العبد إلا إذا فعَله، وقد روى عبد الرزاق عن مالك أنه قال في القدرية: هم الذين يقولون: إن الله لا يعلم الشيء قبل كونه[(٢)]، ورُوي نحوه عن الشافعي[(٣)]، ولهذا

(١) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٩٣٩).
(٢) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (١٣٠١).
(٣) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (١٣٠٢).

سُموا مجوسَ هذه الأُمة؛ لأن المجوس يثبتون خالِقَيْن: خالق الخير، وخالق الشر، وهما النور والظلمة، والقدَرية أثبتوا أن كل إنسان هو خالق لفعْله.

وأول مَن تكلم بالقدَر: معبدٌ الجُهَني، ثم غَيلان الدمشقي، وكان ذلك في آخر عصر الصحابة، فأنكر عليهم الصحابة، وردوا عليهم كابن عمر وغيره(١).

٣- أهل السنة: توسَّطوا بين هؤلاء وهؤلاء، فقالوا: إن العباد فاعلون حقيقةً، وإن أفعالهم تنسب إليهم حقيقةً لا مجازًا، وإن العبد له قدرة ومشيئة وعمل، وهو مختار ليس بمجبَر، والله خالقهم وخالق أفعالهم، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٩٦].

فالله هو الخالق لكل شيء، لكنه أعطى العباد قدرة واختيارًا.

فإن قلت: كيف تكون خلْقًا لله وهي مِن فعل الإنسان؟

فالجواب: أن أفعال العباد صدرت بإرادة وقدرة، والله هو الذي خلق الإرادة والقدرة، ولو شاء الله لسَلَبَك القدرة.

فالإنسان يفعل باختياره وقدرته، والذي خلق فيه القدرة والاختيار هو الله(٢)، وسيأتي زيادة كلام في الكلام عن القدر.

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٣)، و«شرح أصول السنة»، للالكائي (٤/ ٧٥٠)، و«الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار»، للعمراني (١/ ٦٢).
(٢) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٦٨).

وفي بابِ وَعِيدِ اللَّهِ:
بَيْنَ «المُرْجِئَةِ»، وبينَ «الوَعِيدِيَّةِ» - مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِم -.

❐ ٣/ وسطية أهل السنة في باب وعيد الله سبحانه:

انقسم الناس في باب وعيد الله إلى ثلاثة أقسام:

١- المرجئة: ومذهبهم في وعيد الله: أنه لا يضرُّ مع الإيمان ذنْبٌ، فإذا كُنْتَ مسلمًا موحِّدًا فلا تضرك الذنوب كلها، وعندهم أن مرتكب الكبيرة غير فاسق، وأن الناس في الإيمان سواء.

وسيأتي زيادة كلام على المرجئة في فصل (أن الإيمان يَزيد ويَنقص).

وسُمُّوا مرجئة: نسبةً إلى الإرجاء، وهو التأخير؛ لأنهم أخَّروا الأعمال عن مسمى الإيمان، حيث زعموا أنه لا يضر مع الإيمان ذنْب.

٢- الوعيدية مِن القدَرية: ومذهبهم: أن الله لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلَّا بالتوبة، وأن أهل الكبائر مخلَّدون في النار، ويخرجون من الإيمان بالكلية.

وهم - أيضًا - يكذِّبون بشفاعة النبي ﷺ وغيره؛ زعمًا منهم أنه إذا أوعد الله عبيده، فلا يجوز ألَّا يعذبهم ويخلف وعيده.

وإنفاذ الوعيد من أصول المعتزلة، وهو قول الخوارج.

فهؤلاء طَرَفَا نقيضٍ؛ فالأولون يقولون: إن الذنوب ولو كثرت لا تضر، والآخرون يقولون: إن الذنب يخلِّد في النار.

٣- أهلُ السنة: توسَّطوا بينهم، وقالوا: إن مرتكب الكبيرة آثم ومعرَّضٌ للوعيد، وناقص الإيمان ويُحكَم عليه بالفسق، خلافًا للمرجئة.

ولكنه لا يخرج من الإيمان ولا يُخلَّد في النار إن دخلها، وهو تحت المشيئة؛ إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عذَّبه بقدْر معصيته ثم أدخله الجنة، خلافًا للوعيدية.

وعلى هذا: فلا يُسلَب عنه مطلق الإيمان، ولا يُعطى الإيمان المطلَق الكامل، بل هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو هو مؤمن ناقص الإيمان.

وهذا هو الحق، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨].

والمغفرة فيها محمولة على صاحب الذنوب والكبائر، أما من تاب من الذنوب ومن الشرك، فإن الله يغفر له حتى الشرك، كما قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣].

واعلم أن منشأ الخلاف وسببه بين الطائفتين: أن طائفة المرجئة أخذوا بنصوص الوعد، والوعيدية أخذوا بنصوص الوعيد فقطْ، وابن تيمية لما تكلم عن الوعيدية الخوارج قال: «فعارَضَهم غالبة المرجئة بنصوص الوعد، فقال الأوَّلون: لا تتناول إلَّا مؤمنًا، وهؤلاء ليسوا مؤمنين، وقال الآخرون: نصوص الوعيد لا تتناول إلَّا كافرًا، وكلٌّ من القولين خطأ»[(١)].

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٨١).

وفي بابِ الإيمانِ والدِّينِ: بَيْنَ «الحَرُورِيَّةِ»، وَ«المُعْتَزِلَةِ»، وَبَيْنَ «المُرْجِئَةِ» وَ«الجَهْمِيَّةِ».

❏ **٤/ وسطية أهل السنة في باب أسماء الدِّين:** والمراد بهذا ما يتعلق بالأسماء التي تُطلَق على العبد حين يتلبَّس ببعض الذنوب، مثل مؤمن، وفاسق، وكافر، أي: متى يُسمَّى مؤمنًا؟ ومتى يُسمَّى كافرًا؟ ومتى يُسمَّى فاسقًا؟

وأهلُ السنة في هذا الباب هم وسطٌ بين طرَفَين ذميمَين:

١- الحَرورية، والمعتزلة: فالحَرورية - وهم الخوارج[١] - والمعتزلة قالوا: إن الدِّين قولٌ وعمل واعتقاد، ولكن لا يَزيد ولا يَنقص، فالخوارج عندهم أن كل مَن فَعل كبيرةً، فهو كافرٌ في الدنيا، مخلَّد في النار في الآخرة.

وقريب منهم المعتزلة، لكنهم قالوا: كلُّ مَن فعَل كبيرةً، فهو فاسقٌ يَخرُجُ من الإيمان، ولا يدخل في الكفر، فهو في منزلةٍ بين المنزلتَين، لكنهم وافقوا الخوارج في كونه يُخلَّد في النار؛ ولذلك فإن الخوارج يرَون كفْر فاعل الكبيرة ويستحلون دمه وماله[٢].

٢- المرجئة والجهمية: فالمرجئة قالوا: الإيمان مجرد التصديق، والجهمية قالوا: مجرد المعرفة، فعندهم أن الأعمال ليست داخلة في

(١) سُمُّوا بذلك؛ نسبةً إلى قرية حروراء، قرية بالكوفة في العراق، اجتمعوا فيها حين خرجوا على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» (٣/ ٦٦٨).

الإيمان؛ ولهذا يرون أن فاعل الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، لأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

٣- **أهل السنة:** توسطوا بين هؤلاء وهؤلاء، وسلكوا الحق، فقالوا: إن صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو هو مؤمنٌ ناقص الإيمان، وفي الآخرة تحت المشيئة، فهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فلا يُعطى كمال الإيمان - كما تقول المرجئة والجهمية -، ولا يُسلب عنه مطلق الإيمان - كما تقول الخوارج والمعتزلة -.

وفي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: بَيْنَ «الرَّوافِضِ»، وبينَ «الخَوارِجِ».

❏ ٥/ وسطية أهل السنة في باب الصحابة:

انقسم الناس تجاه أصحاب رسول الله ﷺ ثلاثة أقسام: غالٍ، وجافٍ، وأهلُ السنة الوسطُ.

١- **الرافضة:** مذهبهم في الصحابة: الغُلو في بعضهم، والجفاء في آخرين؛ فغَلَوا في علي بن أبي طالب وأهل البيت، بل إن بعضهم ألَّه عليًّا، وقالوا: إن عليًّا إمام معصوم.

وأما بقية الصحابة فإنهم يكفِّرونهم ويشتمونهم، ويقولون: لا ولاءَ إلا ببراءٍ، أي: لا يتولى أحد عليًّا حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر، إلى غير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة[١].

---

(١) **الرافضة:** مأخوذة من الرفض، وهو الترك، سُمُّوا بذلك؛ لأنه لما خرج زيد بن علي =

٢- الخوارج: وهم على النقيض من الرافضة؛ فقد كفَّروا علي بن أبي طالب وعثمان، ومَن والاهما، واستحلوا دماءهم ودماء من تولَّاهم.

٣- أهل السنة: سلكوا المسلك الوسط، وهو الحق، فوالَوا جميع الصحابة، وأحبُّوهم وعرَفوا فضلهم، وأنزلوا أهل البيت منزلتهم، واعتقدوا أن لهم حق الإسلام وحق القرابة، لكنهم لا يَغْلُون فيهم.

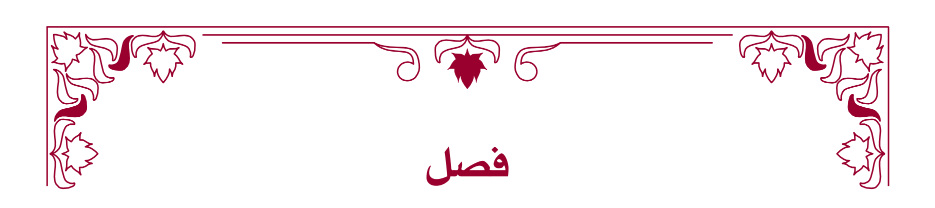
ويعتقدون أن أفضل الأمة: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ﵃، وأن أفضل الأمة: أصحاب رسول الله ﷺ.



= ابن الحسين في الكوفة في خلافة هشام بن عبد الملك، سألوه عن أبي بكر وعمر، فترحم عليهما، فطلبوا منه أن يتبرأ منهما، فقال: معاذ الله! وزيرا جدِّي، فتركه قوم فسُموا بالرافضة، وتولاه قومٌ، فسُموا زَيديةً؛ لانتسابهم إليه. ذكره ابن تيمية في «المنهاج» (٢/ ٩٦).

ويُسمَّون الشيعة، وأصل هذه التسمية: أن الناس في بداية الأمر افترقوا إلى طائفتينِ وفرقتينِ: فرقة شايعت عثمان، وفرقة شايعت عليًّا، ولم يكونوا يُسمَّون رافضةً في ذلك الوقت، ثم صار بعد ذلك لقبًا على من يرى تفضيل عليٍّ على كل الصحابة، ثم تمادى بهم الأمر، وكلما بعد الناس عن زمن النبوة؛ انحرفوا أكثر، حتى صار مَن يرى معتقداتهم يَرى أنها لا تمتُّ للإسلام بصلة، والله المستعان!

وأول من ابتدع الرفض: عبد الله بن سبأ، وكان منافقًا أراد فساد دين الإسلام، كما فعل بولس بدين النصارى. انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٠٢).



فصل

وقَدْ دَخَلَ فيما ذَكَرْناهُ مِنَ الإيمانِ باللَّهِ:

الإيمانُ بِما أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ في كِتابِهِ، وتَواتَرَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ:

مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ سَماواتِهِ، على عَرْشِهِ، عَلِيٌّ على خَلْقِهِ.

وهُوَ سُبْحانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَما كانُوا، يَعْلَمُ ما هُمْ عامِلُونَ.

كَما جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ في قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: الآية ٤].

ولَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ؛ فَإِنَّ هذا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ.

وهو خلافُ ما أَجمَعَ عليهِ سَلَفُ الأمةِ.

وخِلافُ ما فَطَرَ الله عليهِ الخَلْقَ.

بَلِ القَمَرُ آيةٌ مِنْ آياتِ اللَّهِ، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقاتِهِ، ثُمَّ هُوَ مَوْضُوعٌ في السَّماءِ، وهو مع المُسافِرِ أَيْنَما كانَ.

وهُوَ سُبْحانَهُ فَوْقَ العَرْشِ، رَقيبٌ على خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِم، مُطَّلِعٌ إليهِم إلى غَيْرِ ذلك مِنْ مَعاني الرُّبُوبيَّةِ.

وكُلُّ هذا الكلامِ الذي ذَكَرَهُ اللَّهُ - مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ وأَنَّهُ مَعَنا - حَقٌّ على حَقِيقَتِهِ، لا يَحْتاجُ إلى تَحْرِيفٍ، ولكن يُصانُ عنِ الظُّنُونِ الكاذِبَةِ.

هذا الفصل عقَده المؤلف لبيانِ عُلو الله واستوائِه على عرشه، وأنه داخلٌ في الإيمان بالله، والجمعِ بين عُلوه على خلقه واستوائه على عرشه، وبين مَعيَّتِه وقُربِه منهم، والأدلةِ على عُلو الله تعالى.

وهاهنا عدة مسائل:

الأولى: عقيدةُ أهل السنة إثبات علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، على ما يليق بجلاله وعظَمته، وقد تتابع العلماء على إثبات هذه العقيدة في كتبهم.

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله تعالى يُدعى مِن أعلى لا من أسفل؛ لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء...»[1].

وقال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الاستواء: «هو العلو والارتفاع، ولم يَزَل الله تعالى عاليًا رفيعًا قبْل أن يخلق عرشه، فهو فوق كل شيء، والعالي على كل شيء»[2].

الثانية: هذا الأمرُ ثبت بالكتاب والسنة والإجماع.

◈ فمن القرآن آياتٌ كثيرة، كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل: الآية ٥٠]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعَام: الآية ١٨]، وغيرها من الآيات.

(١) «الفقه الأبسط» (ص٥١).

(٢) «اعتقاد الإمام ابن حنبل»، للتميمي (ص٢٩٦).

◈ ومن السُّنَّةِ أحاديثُ كثيرة، تواترت عن رسوله ﷺ، بالقول والفعل، وبالإقرار، كحديث الجارية، وتقدَّم.

◈ وإجماعُ السلف منعقد على ذلك، وطريق معرفة إجماعهم عدمُ نقلِ ضدِّ ما جاء في الكتاب والسنة من آيات الصفات؛ كالعلو والاستواء، قال أبو عمر الطلمنكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع أهل السنة على أن الله على عرشه على الحقيقة، لا على المجاز»(١).

قال ابن تيمية: «كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله، من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة؛ مملوء بما هو إما نص أو ظاهر في أن الله سبحانه هو العلي الأعلى، وهو فوق كل شيء، وهو على كل شيء، وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء»(٢).

الثالثة: في قوله: (هُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ).

قرَّر أن مِن الإيمان بالله الإيمانَ بمعية الله لخلقه، كما يليق بجلاله وعظَمته، **وتقدم أن معيَّة الله قسمانِ:**

١) **عامَّةٌ:** تشمل كل أحد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤]، ومقتضاها العلم والسمع والبصر والإحاطة.

٢) **خاصة:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النّحل: الآية ١٢٨]، ومن مقتضاها النصر والتأييد.

(١) «العلو للعلي الغفار» (ص٢٦٤).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٢).

الرابعة: جمع الله سبحانه بين إثبات علوه على خلقه واستوائه على عرشه وبين معيته لهم، في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: الآية ٤]. **ولا تنافي بينهما؛ لثلاثة أوجهٍ:**

١) أن الله تعالى جمع بينهما في الآية، وإذا جمع الله لنفسه بين وصفينِ، فإننا نعلم عِلم اليقين أنهما لا يتناقضانِ؛ لأنه لو كان هناك تناقضٌ للَزِم أن يكون أول الآية يكذِّب آخرها، وهذا محالٌ.

٢) أنه قد يجتمع العلو والمعية في المخلوقات، كما في مثال القمر الذي سيذكره المؤلف.

٣) لو فُرِض تعارضهما بالنسبة للمخلوق، لم يلزم ذلك بالنسبة للخالق؛ لأن الله ليس كمثله شيء[١].

الخامسة: قد يظنُّ ظانٌّ أنه يُفهم من معية الله لخلقه أنه مختلط بالخلق، فبيَّن المؤلف هنا أن قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ **لا يُفهَم منه أنه مختلِط بالخلق من أوجُهٍ:**

١) أن هذا المعنى لا توجبه لغة العرب التي بها نزل القرآن؛ لأن كلمة (مع) في اللغة هي لمطلق المصاحبة، ولا تُشعِرُ بامتزاجٍ ولا اختلاطٍ ولا مُماسةٍ ولا مجاورةٍ؛ فإنك تقول: زوجتي معي، وأنت في مكان وهي في آخَر، وتقول: ما زلنا نسير والقمر معنا، وهو في السماء ومع المسافر وغير المسافر أينما كان.

---

(١) انظر: «شرح الواسطية» للعثيمين (٢/ ٨٠).

وإذا صحَّ أن يقال هذا في حق القمر وهو مخلوق صغير، فكيف لا يقال في حق الخالق الذي هو أكبر من كل شيء؟![(١)]

قال العثيمين: «وتأمل في دقة كلام شيخ الإسلام؛ فإنه قال: «لا توجبه»، ولم يقل: «لا تقتضيه»؛ لأن اللغة قد تقتضيه، وفرْق بين كونها تقتضي ذلك وكونها توجِب ذلك»[(٢)].

٢) أن هذا الفَهْم خلاف ما عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهم القرون المفضَّلة؛ فقد أجمعوا على أن الله مستوٍ على عرشه عالٍ على خلقه بائنٌ منهم، وأجمعوا على أنه مع خلقه سبحانه وتعالى[(٣)].

٣) أن هذا الأمر خلاف ما فطَر الله عليه العباد وركزه في فِطَرِهم؛ فإن الإنسان مفطور على الإقرار بأن الله بائنٌ من خلقه، والإقرار بعلوه على خلقه؛ ولذا فإن الإنسان عند الشدائد يتجه نحو العلو بموجب الفطرة.

ولما سأل النبي ﷺ الجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، قال ابن تيمية: «حتى الصبيان الذين لم يبلغوا الحنث قد عرَفوه بذلك، إذا حزَب الصبيَّ شيءٌ يرفع يده إلى ربه يدعوه في السماء دون ما سواه، وكل أحدٍ بالله أعلَمُ من الجهمية»[(٤)].

ومما يدفع هذا التوهم: أن القرآن قد جعل المعية خاصةً أكثر مما

(١) انظر: «جامع المسائل لابن تيمية - المجموعة الثالثة» (ص١٦٦)، «شرح الواسطية»، للفوزان (ص١١٥)، و«التنبيهات السنية» (ص١٩٧).
(٢) «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٨١).
(٣) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١٩٠).
(٤) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٥٩).

جعلها عامةً، ولو كان يُفهَم منها اختلاطُ ذاته بالمخلوقات لكانت عامةً لا تقبل التخصيص؛ إذ ما معنى تخصيص النبي ﷺ وأبي بكر بمعية الله دون الكفار حين قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، وتخصيص المؤمنين دون الكفار في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [النحل: الآية ١٢٨][(١)].

٤) أنه إذا كان القمر - وهو من أصغر مخلوقات الله السماوية - يكون مع المسافر وغير المسافر، مع أنه في مكانه في السماء عاليًا، فالمسافر يسير والقمر معه، والمقيم يقيم والقمر معه، والقمر في مكانه غير مختلط بهم ولا محاذٍ لهم ولا مجاورٍ، فإذا كان هذا في القمر، فكيف بمعية الخالق سبحانه؟ وقد ورد في حديث أبي رَزين العقيلي: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَرَى رَبَّهُ مُخْلِيًا بِهِ**»، فقال أبو رزين: كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع؟ فقال ﷺ: «**سَأُنْبِئُكَ بِمِثْلِ هَذَا فِي آلَاءِ اللهِ، هَذَا القَمَرُ كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُخْلِيًا بِهِ وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، فاللهُ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ**»[(٢)]. والمقصود بالتمثيل جواز هذا وإمكانه، لا تشبيه الخالق بالمخلوق.

السادسة: إن قيل: بماذا يُجاب عمن فسَّر المعية من السلف بأن معناها: أن الله معهم بعلمه وإحاطته واطلاعه؟

فالجواب: هذا قول بعض السلف، ولكن الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية أن معية الله هي معيةٌ على ظاهرها حقيقةً، لكنها تليق بجلاله وعظَمته، وأن مِن مقتضاها العلم والإحاطة والاطلاع والسلطان ونحو ذلك، وتفسيرُنا للمعية بالعلم يفتح بابًا للتأويل.

---

(١) انظر: «شرح الواسطية من كلام ابن تيمية»، للمصلح (ص١٠٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وأحمد (١٦١٨٦).

ولما تكلَّم الشيخ محمد بن إبراهيم عن قول بعض السلف: «معهم بعلمه»، قال: «إذا جاءت هذه الكلمة، فهي تفسير للمعية بالمقتضى، ليست تفسيرًا لحقيقة الكلمة، والذي يحمل ويحدو على التفسير بهذا أن المنازع في هذا من المبتدعة الذين يقولون: إنه مختلِط بهم، فيأتي البعض من السلف بالمراد بالسياق، وهو أنه بكمال علمه، ولكن لا يريدون أن كلمة (مع) مدلولها بكل شيء عليم، بل اجتمعت معها في العلم وزادت المعية في المعنى، وهو كونه معهم، فتفسيرها بالمقتضى لا يدل على أن معناها باطل، فالكل حق»، إلى أن قال: «وهؤلاء العلماء الذين رُوِي عنهم التفسير بالمقتضى لا ينكرون المعية، بل هي عندهم كالشمس»[(١)].

وهل يصح أن نقول: هو معنا بذاته؟

قال ابن عثيمين: «هذا اللفظ يجب أن يبعد عنه المرء؛ لأنه يوهِم معنًى فاسدًا يَحتج به مَن يقول بالحلول، ولا حاجة إليه؛ لأن الأصل أن كل شيء أضافهُ الله إلى نفسه، فهو له نفسه، كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفَجر: الآية ٢٢]، لا نحتاج إلى أن نقول: جاء بذاته، إلَّا في مجادلة من يدَّعي أنه جاء أمره»[(٢)].

السابعة: مع تقرير عُلو الله على عرشه ومَعيته لخلقه، هو سبحانه رقيب على خلقه، أي: مراقب لأحوالهم مطَّلع عليها، ومهيمِن عليهم، أي: مسيطر على عباده، شاهدٌ على خلْقه بأعمالهم.

(١) «فتاوى محمد بن إبراهيم» (١/ ٢١٢، ٢١٣).
(٢) «شرح الواسطية» (٢/ ٨٣، ٨٤).

فرُبوبيته سبحانه تقتضي أن يكون فوق خلْقه، وهو الخالق المالِك المدبِّر الرقيب المهيمن عليهم.

الثامنة: **كل ما تقدم ذِكره من أن الله فوق العرش، وأنه مَعَنا، هو حقٌّ على حقيقته،** ولا يحتاج إلى تحريفٍ، كما يدَّعيه المعطلة من الجهمية والمعتزلة، الذين تأوَّلوا هذا بتأويلات باطلة، كقولهم: إن استواءَ الله على عرشه ليس حقيقةً، **وإنما هو مجاز.**

بل مذهب أهل السنة إثباتها على حقيقتها[1].

ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة، مثل أن يُظَنَّ أن ظاهرَ قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [المُلك: الآية ١٦] أن السماء تُقِلُّه أي: تحمله وترفعه، أو تظلُّه، أي: تستره وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان.

وليس هذانِ المعنيانِ مرادَيْن من كونه سبحانه في السماء، **والرد على من يقول بذلك من وجهين:**

١) أن هذا باطلٌ بإجماع أهل العلم والإيمان.

فقد أجمع السلف أن الله بائن مِن خلقه، فليس في ذاته شيء مِن مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، **قال ابن تيمية:** «فأهل السنة إذا قالوا: إنه فوق العرش، أو إنه في السماء، لا يقولون: إن هناك شيئًا يَحْويه أو يحصره، ويكون محلًّا أو ظرفًا أو وعاءً، تعالى الله عن ذلك، بل هو فوق كل شيء، وهو مستغنٍ عن كل شيء وكل شيء مفتقِر إليه[2]،

---

(١) وسبق كلام أبي عمر الطلمنكي: «أجمع أهل السنة أن الله استوى على عرشه على الحقيقة، لا على المجاز» «العلو للعلي الغفار» (ص٢٦٤).

(٢) وتقدم أن قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ **له توجيهان:** =

فإن الله قد وسع كرسيه السماوات والأرض وهو يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٥]»[١].

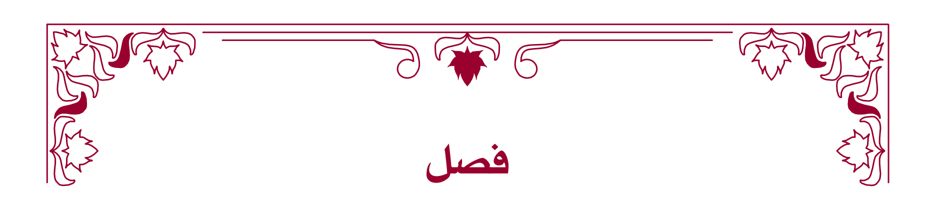
٢) أن هذا الظن مخالفٌ ومصادمٌ لآيات القرآن الدالة على عظمة الله وغِناه عن خلْقه، وحاجة خلقه إليه، كقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]، والكرسي أعظم من السماوات والأرض، وهو بالنسبة إلى العرش كحلقة أُلْقِيت بين ظَهري فلاة[٢]، فإذا كان كذلك فكيف تحويه السماواتُ والأرضُ أو تَحوطه أو تُقِله؟!

بل دلت الآيات الأخرى على أن السماوات مفتقرة إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فَاطِر: الآية ٤١]، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحَجّ: الآية ٦٥]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٥]، فهذه الآيات صريحة في أن الرب ليس هو عَين هذه المخلوقات وأنها محتاجة إليه، فكيف يُتوهَّم بعْد هذا أنها تَحويه، أو أن خلقًا مِن خلْقه يُظِله ويحويه؟! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا[٣].

* * *

= ١- بمعنى (على) كقوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [المُلك: الآية ١٥]، أي: على.
٢- أن السماء جنس للعالي، فقوله: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [المُلك: الآية ١٦]، أي: في العلو دون السُّفل.

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٤٢، ١٤٣).
(٢) انظر: «صحيح ابن حبان» (٣٦١)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٣٠٠).
(٣) انظر: «التنبيهات السنية» (ص٢٠٣)، و«شرح الواسطية» للفوزان (ص١١٨).



فصل

ودَخَلَ في ذَلِكَ:

الإيمانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦].

وقالَ النبيُّ ﷺ: «إِنَّ الذي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِهِ».

وما ذُكِرَ في الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ، لا يُنافي ما ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وهُوَ عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ في عُلُوِّهِ.

❏ هذا الفصلُ هو في بيانِ قُربِ الله وإجابته، وأن ذلك لا ينافي عُلوَّه وفَوقيته.

وتضمن عدة مسائل:

الأولى: مِن الإيمان بالله وبصفاته الإيمانُ بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **قريبٌ من عباده، وأنه مجيب لدعائهم**، وقد دلَّ على إثبات صفة القرب لله تعالى: الكتاب والسنة:

◈ **أما الكتاب**: ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ

أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦].

◈ **وأما السنة**: ففي قوله ﷺ: «**ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ**»(١)، وفي رواية: «**وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ**»(٢).

وقربُ الله نوعانِ:

١) قرب خاص: وهو قربه من داعيه بالإجابة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦]، وقربه من عابده بالإثابة، كقوله ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»(٣).

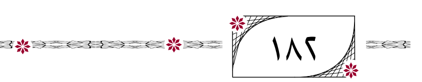
وهذا القُرب لا ينافي كمال مباينته لخلْقه واستوائه على عرشه، بل يلازمه، فإنه قربٌ يَليق بجلاله وعظَمته، لا كقُرْبِ الأجسام بعضها من بعض، تعالى الله عن ذلك.

٢) قُرب عام: وهو إحاطة عِلمه بجميع الأشياء، وقدرته على كل شيء.

وهذا النوع من القُرب يدل له اسم (الباطن)، فقد فُسِّر بالقُرب، وفُسِّر القُرب بالعلم والقدرة، كما أُثِر ذلك عن مقاتل بن حيَّان أنه قال: «بلغنا - والله أعلم- في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء، ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ بعد كل شيء، ﴿وَٱلظَّاهِرُ﴾ فوق كل شيء، ﴿وَٱلْبَاطِنُۖ﴾ أقرب من كل شيء،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٤).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢).



وإنما نعني بالقرب: بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه»[(١)(٢)].

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٤٢). ويُنظَر: «شرح حديث النزول» لابن تيمية (ص٣٦١)، و«العلو» للذهبي (ص١٣٧).

(٢) قرَّر ابن تيمية وابن القيم أن قرب الله نوع واحد، وهو القرب الخاص، وأما قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦] فهذه الآية قيل: إن المراد بها قرب الملائكة منه، وأضافها لنفسه بصيغة الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها.

قال ابن تيمية: «وليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب من كل شيء أصلًا، بل قُربه الذي في القرآن خاص لا عام». «شرح حديث النزول» (ص٣٥٤).

وقال أيضًا: «ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود».

وقال ابن القيم: «ولم يجئ القرب كما جاءت المعية خاصة وعامة، فليس في القرآن ولا في السنة أن الله قريب من كل أحد، وأنه قريب من الكافر والفاجر، وإنما جاء خاصًّا». «مختصر الصواعق» (ص٤٥٨).

ويمكن القول - والله أعلم- بأن القرب بالنظر لمعناه يمكن تقسيمه إلى نوعين - كما هو الحال في المعية -: عام وخاص، لكن العام لم يأتِ بلفظ «القرب»، وإنما بألفاظ دالة على القرب، ذكرتها في القرب العام، وهذا الأمر لا يعارضه ابن تيمية وابن القيم، بل هما يقرران ذلك، فليس مرادهم نفي ورود المعنى العام للقرب، وإنما مرادهم نفي أن يكون هذا المعنى العام ورد بلفظ «القرب»، ويعضد هذا ما ورد عنهما من إثبات المعنى العام للقرب؛ فقد قال ابن تيمية: «قربه الذي هو من لوازم ذاته مثل العلم والقدرة، فلا ريب أنه قريب بعلمه وقدرته وتدبيره من جميع خلقه، لم يزل بهم عالمًا ولم يزل عليهم قادرًا، هذا مذهب جميع أهل السنة». «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٣).

وقال ابن القيم: «فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله بعده، فالأول: قِدَمُه، والآخر: دوامه وبقاؤه، والظاهر: علوه وعظمته، والباطن: قربه ودنوُّه». «طريق الهجرتين» (ص٥٤).

وقال أيضًا: بل ظهر على كل شيء، فكان فوقه، وبطن، فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه... فهذا أقرب للإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقربٌ خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو ثمرة التعبد باسمه الباطن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ** =

الثانية: قرر الله قربه من داعيه، في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦].

وسبب نزول الآية: «أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أقريبٌ ربُّنا فنناجيهِ، أم بعيدٌ فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فنزلت الآية»[1]، وهذا يدل على قرب الله ممن دعاه، وكذا قوله ﷺ: «**ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ...**»، وتقدم الكلام على الحديث.

الثالثة: ما ورد في القرآن والسنة من تقرير القُرب والمعية، لا ينافي العُلو والفوقية؛ فالكل حقٌّ، والحق لا يتناقض، فالقرب والعلو يجتمعانِ في حقه سبحانه، كما تقدم تقريره، وهو سبحانه:

عليٌّ في دُنوه، يعني: في قربه من عباده.

قريب في عُلوه، يعني: قريب مِن خلْقه وهو على عرشه، لا تنافيَ بينهما.

وأعلمُ الخلقِ بربِّه قال: «**أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**».

قال الشيخ حافظ الحكمي في منظومته[2]:

= **العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِد...**»، فهذا قربٌ خاص غير قرب الإحاطة والبطون. «طريق الهجرتين» (ص٥١، ٥٢).

وحينها يكون الخلاف في هذا التقسيم لفظيًّا؛ فابن تيمية وابن القيم يثبتانِ القرب العام، ولكن ليس بلفظ القرب، والله أعلم.

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٢٢٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٣١٤).

(٢) «سلم الوصول» (ص١٣).

وَذِكْـرُهُ لِـلْـقُـرْبِ وَالْـمَـعِـيَّـهْ   لَـمْ يَـنْـفِ لِلْـعُـلُـوِّ وَالْـفَـوْقِـيَّـهْ
فَـإِنَّـهُ الْـعَـلِـيُّ فِـي دُنُـوِّهِ   وَهُـوَ الْقَـرِيـبُ جَلَّ فِي عُلُوِّهِ

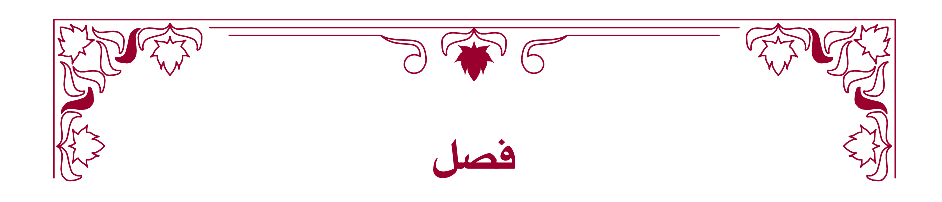
الرابعة: **إنما خص المؤلف هذَين الأمرَين - القرب والإجابة - في هذا الفصل**؛ لشدة الحاجة إلى الإيمان بقُرْبه وإجابته؛ ليكون العبد مراقبًا لله إذا آمن بقُرْبه إيمانًا تامًّا، كثير اللهج بذِكره ودعائه، مُنيبًا إليه على الدوام، إذا آمن بإجابته السائلين وإثابته للمطيعين.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ الجمْع بين الإيمان بعُلو الله وقُربه ومعيته؛ لئلا يظن الظانُّ أن ذلك مثل صفات المخلوقين[1].

❋ ❋ ❋

---

(١) «شرح الواسطية»، للسعدي (ص٧٧).



فصل

ومِنَ الإيمانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ:
الإيمانُ بِأَنَّ القُرآنَ كَلامُ اللَّهِ ﷻ، مَنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.
مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ.
وأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً.
وأَنَّ هَذا القُرآنَ الذي أَنْزَلَهُ الله على نبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كلامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، لا كلامُ غَيْرِهِ.
ولا يَجُوزُ إِطْلاقُ القَوْلِ: بِأَنَّهُ حِكايَةٌ عَنْ كلامِ اللَّهِ، أَوْ عِبارَةٌ عنهُ.
بَلْ إذا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المَصاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يكونَ كلامَ اللَّهِ سبحانهُ وتعالى حَقيقَةً.
فَإِنَّ الكلامَ إِنَّما يُضافُ حَقِيقَةً إِلى مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ مُبْتَدِئًا، لا إلى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

❐ هذا الفصلُ عقَده المؤلِّف للكلامِ على مسألةِ القرآن: هل هو كلام الله أم مخلوق؟ وما يتعلق بذلك من مسائل.

والكلام على الباب في عشر مسائل:

الأولى: من الإيمانِ بالله الإيمانُ بأن القرآن كلام الله، وعقيدةُ أهل

السنة أن الله لم يَزَل ولا يزال متكلِّمًا متى شاء، وأن القرآن كلام الله سبحانه، كما قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبَة: الآية ٦]، وحديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه في المَوسم فيقول: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**»(١).

وعلاقةُ هذا بالإيمان بالله من جهتين:

١-أن القرآن كلام الله، وكلامُ الله صفةٌ من صفاته.

٢-أن الله وصَف القرآن بأنه كلامه وأنه مُنزل، فتصديق ذلك مِن الإيمان بالله.

الثانية: هذه المسألة وقع فيها خلافٌ واضطراب عظيم، حتى قال بعضهم: مسألة الكلام حَيَّرت عقول الأنام(٢)، وهي التي جرى فيها على أهل السنة فتنةٌ عظيمة زمن الإمام أحمد.

واعلم أن السواد الأعظم من الناس كانوا على المنهج الحق في هذا لا يختلفون، حتى جاءت الجهمية وتبِعتهم المعتزلة، فابْتَلَوا الناس بهذا القول المنكَر، وهو أن القرآن مخلوق، وهذا القول منهم فرعٌ عن مذهبهم الفاسد في نفي الصفات عن الله سبحانه، ومِن هذه الصفات صفةُ الكلامِ، وبناءً عليه قالوا بأن القرآن مخلوقٌ من مخلوقاته، وليس صفةً له.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢٠١)، وأحمد (١٥١٩٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٢).

وأولُ من قال بأن القرآن مخلوق: الجعْدُ بن درهم، وأخذها عنه الجهمُ بن صفوان، وعنه أخذ المعطِّلة هذا المذهب.

وكان هذا المذهب متواريًا عن الأنظار، لا اعتبار له في العقول، حتى أظهره الخليفة العباسي المأمون، وامتحن الناسَ عليه، ونصر المعتزلةَ، وابتَلَى الناسَ بهذا ابتلاءً عظيمًا، وقد كان الخلفاءُ قبله على مذهب أهل السنة والجماعة.

قال ابن كثير: «قد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون كان قد اجتمع به واستحوذ عليه جماعةٌ من المعتزلة، فأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل، وزيَّنوا له القول بخلق القرآن، ونفي الصفات عن الله ﷻ، قال البيهقي: ولم يكن في الخلفاء قبله لا مِن بني أُمية ولا من بني العباس خليفةٌ إلا على منهج السلف، حتى وَلي هو الخلافة، فاجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك»[(١)].

الثالثة: القرآن منزَّل من عند الله تعالى، نزل به جبريل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النَّحل: الآية ١٠٢]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٩٣].

الرابعة: لمَّا كان القرآنُ كلام الله، وكلامُهُ صفةٌ من صفاته سبحانه، فإن صفاته غير مخلوقة.

فإن قيل: فهل لي أن أقول: لفظي بالقرآن مخلوق؟

فالجواب: وردت هذه العبارة عن بعض الأئمة، وورد عن الإمام

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير (١٤/ ٣٩٦).

أحمد: مَن قال لفظي بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي[١].

وعلى هذا فللمسألة حالتانِ:

أ- إن كان المراد باللفظ هو **التلفُّظ والصوت الخارج من حركة الفم واللسانِ والشفتَين**: فهذا مخلوق؛ لأن أفعال العباد مخلوقة، وعلى هذا يُحمل ما يُرْوى عن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]، والأولى تجنُّبه.

ب- وإن كان المراد باللفظ: **الملفوظ به**، وهو القرآن، فهذا لا شك أنه هو قول الجهمية، وعليه يُحمَل قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[٣].

لكن يُتنبَّه إلى أنه لم يثبتْ أن البخاري قال: لفظي بالقرآن مخلوق، نبَّه على ذلك الذهبي في «السير»، وبيَّن ما قاله البخاري[٤].

الخامسة: أفاد قوله: **(منه بدأ)** أن ابتداء تنزيل القرآن وخروجه من الله، فهو المتكلِّم به والذي أنزله من عنده.

واعلم أن مقصود السلف بقولهم: إن القرآن بدأ من الله: الرد على الجهمية الذين زعموا أن القرآن خلَقه الله في غيره، فيكون قد بدأ وخرج من ذلك المحل الذي خُلِق فيه لا من الله، كما يقولون: كلامُه لموسى خرج من الشجرة، فبيَّن السلفُ أن القرآنَ من الله بدأ وخرج[٥].

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٢٠٧).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٥٧).

(٣) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (١٢/ ٥٦٧)، وانظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٩٥).

(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٥٣) وما بعدها، وذكر أن الذي قاله هو: إن أفعالنا مخلوقةٌ، وإن ألفاظنا من أفعالنا.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥١٨)، «التنبيهات السنية» (ص٢٠٩).

السادسة: أفاد قوله: (**وَإِلَيْهِ يَعُودُ**) أن القرآن يرجع إلى الله، أي: أنه يُسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور، فلا يبقى في الصدور والمصاحف منه كلمة(١).

السابعة: أفاد قوله: (**أَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً**) أن الله ﷻ تكلم بالقرآن حقيقةً، لا مجازًا، والأدلة على هذا كثيرة.

وفي هذا ردٌّ على من زعم أن كلام الله معنًى قائمٌ بذاته لم يُسمَع منه، وإنما هو الكلام النفسي، فيكونُ الكلام في نفسه ولم يتكلم به حقيقةً، فالقرآن ليس هو كلام الله، وإنما هو عبارة عن كلام الله، كتبه المَلَك الذي فَهِمه من الله، ولم يسمع من ربه حرفًا ولا صوتًا، فهو الذي أحدث نظْم القرآن وتأليفه.

وهذا ضلالٌ عظيمٌ تقدم الردُّ عليه، وردَّ ابن تيمية ذلك من تسعين وجهًا(٢).

الثامنة: قوله: (**وَأَنَّ هَذَا القرآن الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامُ غَيْرِهِ، وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْهُ**) ذكر المصنف قولَين باطِلَين في حق القرآن:

١- **قول**: (**إن القرآن حكاية عن كلام الله**)، وهو قول الكُلَّابية.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٧٤).

(٢) «التسعينية»، لابن تيمية، رسالة من أنفس كتب ابن تيمية، أبطل فيها دعوى القول بأن كلام الله معنى قائم بالنفس بنحو من تسعين وجهًا، وتكلم فيها عن مسائل أخرى، كمسألة الجهة والتحيز، وعدم التعرض لأحاديث الصفات وآياتها عند العوام، وهي مطبوعة، بتحقيق د. محمد العجلان.

٢- **قول: (إن القرآن عبارة عن كلام الله)**، وليس هو كلام الله حقيقةً؛ لأن كلام الله معنًى قائم في نفسه، أما هذه الألفاظ فهي عبارة عن المعنى القائم بالنفس، وهو قول الأشاعرة.

والفرقُ بين القولَين: أن الحكايةَ هي المماثَلة، فكأن المعنى الذي هو الكلام حُكِي بمرآة، كما يحكي الصَّدى كلامَ المتكلِّم.

أما العبارةُ فيُعنى بها: أن المتكلم عبَّر عن كلامه النفسي، بحروف وأصوات خُلِقَت(١).

وقال بعض العلماء: الخلاف بينهم لفظي، لا طائلَ تحته؛ فالأشاعرةُ والكُلَّابيةُ كلهم يقولون: **القرآن نوعانِ**:

١) ألفاظ. ٢) معانٍ.

فالألفاظُ مخلوقةٌ، وهي هذه الألفاظُ الموجودة، والمعاني قديمةٌ قائمةٌ بالنفس، وهي معنًى واحد لا تتبعض ولا تتعدد، وعلى كل حالٍ فالقولانِ متقاربانِ(٢).

وقد استدل هؤلاء بالقواعد العقلية التي يقررونها؛ وهي أن إثبات صفة الكلام لله يلزم منه التشبيه بالمخلوق، ويذكرون في هذا بيتًا للأخطل، وهو:

إِنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلا

---

(١) «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٩٧).

(٢) انظر: «شرح الواسطية»، للفوزان (ص١٢٣).

ويُرَد عليهم في استدلالهم بالبيت من وجوه:

١- أن الكلام يخرج من القلب، ويعبِّرُ عنه اللسان، وأما الكلامُ الذي في اللسان فقط، فإنه يشبه كلام النائم والهاذي ونحوهما.

٢- معلومٌ عند العقلاءِ أن الكلام صفةٌ للمتكلِّم المسموع منه، وما في النفس لا يُسمَّى كلامًا أبدًا، وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ**»[1]، فما حدَّثت به أنفسها ليس كلامًا[2].

٣-أنه قد ورد البيت:

إِنَّ البَيَانَ مِنَ الفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلا

ونقل ابن القيم[3] عن بعضهم قوله: أنا رأيته في ديوانه كذلك، فحرَّفه عليه بعض النفاة، وقالوا:

إِنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الكَلَامِ دَلِيلَا

ويستدلون كذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحَاقَّة: الآية ٤٠]، **ويُجاب عليهم بأمور:**

١- أن إضافته إلى الرسول إضافة تبليغ، لا إضافة إنشاءٍ وابتداءٍ، فإنه قال: (رسول)، ولم يَقُل: مَلَك أو نبي؛ لأن الرسول يبلغ كلام مرسِله.

٢- (أمين) دليل على أنه لا يَزيد ولا ينقص، بل أمين على ما أُرسِل به

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧).

(٢) انظر: «التنبيهات السنية» (ص٢١٢).

(٣) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٤٤).

يبلغه عن مرسِله.

٣- أن الله كفَّر مَن جعَله قول البشر، ومحمدٌ بشر، فمَن جعَله قول محمدٍ أنشأه من عنده فقد كفَر[١].

التاسعة: إذا عرَفنا أن القرآن هو كلام الله حقيقةً، فكذلك إذا قرأه الناس وبلَّغوه أو كتبوه، فلا يخرج عن كونه كلامَ الله حقيقةً، ولذا قال المصنف: **(بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ تكلَّمَ بِهِ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا)**.

وبيان ذلك أن يقال: إن الإنسان لو بلَّغ كلامًا لغيره، فلا يقول: إنه كلامي، بل هو كلام المبلَّغ عنه، فمن قال مثلًا: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...**»[٢]، فإن هذا هو كلام النبي ﷺ، بلَّغه شخصٌ آخر، ولا يخرجه ذلك عن كونه كلام النبي ﷺ، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبَة: الآية ٦].

العاشرة: مذهبُ أهل السنة والجماعة: أن القرآنَ جميعَه كلامُ الله، حروفَه ومعانيه، ليس شيءٌ من ذلك كلامًا لغيره، ولكن أنزله الله على رسوله، وليس القرآن اسمًا لمجرد المعاني، ولا لمجرد الحروف، بل مجموعها.

قال ابن تيمية: «والصوابُ الذي عليه السلف والأئمة: أن الكلامَ حقيقةٌ في اللفظ والمعنى، كما أن الإنسان حقيقةٌ في البدن والروح،

(١) انظر: «التنبيهات السنية» (ص٢١٤).
(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

فالنزاع في الناطق كالنزاع في منطقه»[(١)].

وها هنا انحرف فريقان:

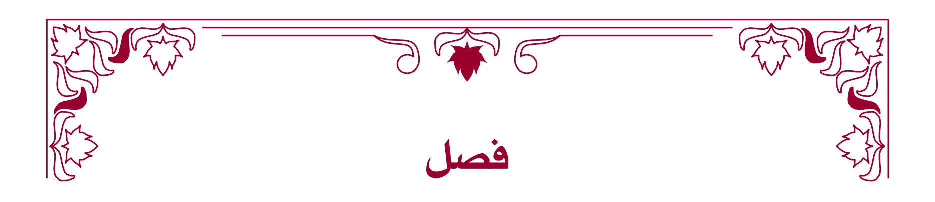
١- **المعتزلة والجهمية:** حيث قالوا: كلامُ الله هو الحروف دون المعاني؛ لأنهم يقولون: إن الكلام ليس معنًى قائمًا بذات الله، بل هو شيء من مخلوقاته، فكلام الله حروفٌ خلقها وسمَّاها كلامًا له، كما خلق ناقة صالح، وسماها ناقة الله، وأما المعاني: فهي مدلول مسماه.

٢- **الأشاعرةُ والكُلَّابية:** حيث قالوا: كلامُ الله هو المعاني دونَ الحروف، وسبق أنهم يقولون: القرآنُ هو عبارةٌ عن كلام الله أو حكايةٌ له.

وكلا القولين باطلٌ، مخالف للكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة، وتقدم الرد عليهم وبيان أن القرآن كلام الله، حروفه ومعانيه.



(١) «جامع المسائل - المجموعة الخامسة» (ص١٢٥).



فصل

وقَدْ دَخَلَ -أَيضًا- فيما ذَكَرْناهُ مِنَ الإيمانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ ورُسُلِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ المُؤْمِنينَ يَرَوْنَهُ يومَ القِيامَةِ عِيانًا بِأَبْصارِهِم، كما يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا ليسَ دونَها سَحابٌ، وكما يَرَوْنَ القمرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا يُضامُونَ في رُؤْيَتِهِ.

يَرَوْنَهُ سُبحانَهُ وَهُمْ في عَرَصاتِ القيامَةِ.

ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الجَنَّةِ، كَما يشاءُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❐ هذا الفصلُ عقده المؤلف لبيان وجوب الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ومواطن رؤيته.

۞ **والكلام على الباب في أربع مسائل:**

الأولى: مسألةُ الرؤيةِ من المسائل العظيمة التي وقع الخلاف فيها بين المسلمين، قال ابن أبي العزِّ: «وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلِّها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمِّرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحُرِمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون»[(١)].

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢٨٥).

ورؤيةُ الربِ تعالى في الجنة هي أعلى نعيمِ أهل الجنة، وغايةُ مطلوبهم، وإن كانوا في الرؤية على درجاتٍ، حسب قربهم مِن الله ومعرفتهم به[١].

وعلاقةُ هذه المسألة بالإيمان بالله من جهتين:

١-أن الإيمان بها هو من باب الإيمان بصفات الله تعالى.

٢-أن الله تعالى أخبر بها في كتابه، وبلَّغها ملائكتُه إلى رسله، وأخبر بها رسلُه، فمَن لم يؤمن بذلك كان مُكَذِّبًا لله، وكتبِه، ورُسلِه، وملائكتِه، ولم يؤمن بكل ما جاءوا به.

الثانية: اعلم أن الناس في الرؤية على ثلاث طوائف:

١) قول أهل السنة - **وهو الحق** - : أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا، وإنما يُرى في الآخرة، وهو الذي دلت عليه الأحاديث الكثيرة المتواترة عن النبي ﷺ، والتي رواها نحو ثلاثين صحابيًّا، ومنها حديث أبي هريرة: أن أناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟**» قالوا: لا، قال: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قالوا: لا، قال: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ...**»[٢].

٢) أن الله يُرى في الدنيا وفي الآخرة، وقال بهذا طوائف من المعتزلة، وهو قولٌ باطل بلا شكٍّ.

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

وقد اتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينيه، ولم يتنازعوا إلا في نبينا محمد ﷺ خاصةً.

والذي عليه جمهور الأمة **أنه لم يَرَه بعينه في الدنيا**، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة والأحاديث الثابتة، كقوله حين سُئِل: هل رأيت ربك؟ قال: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»[1]، أي: كيف أراه، والنور حجابٌ بيني وبينه يمنعني من رؤيته؟!

وفي رواية: «**رَأَيْتُ نُورًا**»[2]، وهو الحجاب، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية[3]، وقال ﷺ: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ**»[4]، ومن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يَرى الله بعينه في الدنيا فهو ضالٌّ مبتدع.

٣) مَن نفوا رؤية الله في الدنيا وفي الآخرة، **وهؤلاء لهم مسلكانِ**:

المسلك الأول: مَن قال بأن الله لا يُرى بحالٍ، ورؤيته ممتنعة، وهو قول الجهمية والمعتزلة ومَن تبعهم مِن الخوارج والإمامية، **واستدلوا بأدلة**:

١- قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣].

والجواب عنه: إن هذه الآية هي في الدلالة على ثبوت الرؤية أقرب؛ لأن الله إنما ذكرها في سياق التَمَدُّحِ، ومعلوم أن المدحَ إنما يكون

(١) أخرجه مسلم (١٧٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٧).
(٤) أخرجه مسلم (١٦٩).

بالصفات الثبوتية، وأما العدمُ المحضُ فليس بكمال، فلا يُمدَح به، وإنما يُمدح الرب بالنفي إذا تضمن أمرًا وجوديًّا، كنفي السِّنةِ والنومِ المتضمنِ كمال القيومية.

وأما الآية فالمراد بها: نفي الإدراك، وهو الإحاطة بالشيء، فالله يُرى، ولكن لا يُدرك ولا تحيط به الأبصار؛ لكمال عظمته، وقال الله عن قوم موسى لما قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فلم ينْف موسى الرؤية، وإنما نفى الإدراك[(١)].

٢ - قوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]، فالله تعالى نفى الرؤية عن موسى بقوله: (لن)، و(لن) تفيد النفي المؤبد.

والجواب: أن هذه الآية دليل على الرؤية من أوجه، ومنها:

أ- أنه لا يُظَن بكليم الله موسى أن يَسأل ما لا يجوز عليه.

ب- أن الله لم ينكِر عليه سؤاله، ولو كان محالًا لأنكر عليه كما أنكر على نوح سؤاله ربه نجاة ابنه ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٦].

ج- أنه قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: لا أُرى، أو: لا تجوز رؤيتي، أو: لستُ بمرئي، والفرق بين الجوابين ظاهر، وهذا يدل على أن الله يُرى، ولكن موسى لا تَحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوى البشر فيها عن رؤية الله، **ويوضحه الوجه التالي:**

د- قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]، فأعلَمه أن الجبل

(١) «شرح الطحاوية» (١/ ٢١٥).

على صلابته لا يثبت للتجلي في الدنيا، فكيف بالبشر الضعيف؟!

هـ- أن الله ﷻ علق الرؤية بشيء ممكن، وهو استقرار الجبل، فالله قادر على أن يجعل الجبل مستقرًّا، وما عُلِّق بممكن فهو ممكن.

و- أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد، وقد قال ابن مالك:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِـ(لَنْ) مُؤَبَّدًا فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا[1]

المسلك الثاني: مَن يرى أن الله يُرى، لكن من غير معاينة ومواجهة، وهذا مذهب طوائف من الأشاعرة، والكُلَّابية.

وهذا القول باطلٌ، ومؤداه إبطال الرؤية، وإنما جرَّهم له الفرار من إثبات العلو لله، فتناقضوا، وتسلط عليهم المعتزلة بسبب ذلك.

قال ابن تيمية: «ولهذا تجد هؤلاء الذين يثبتون الرؤية دون العلو عند تحقيق الأمر منافقين لأهل السنة والإثبات، يفسرون الرؤية التي يثبتونها بنحو ما يفسرها به المعتزلة وغيرهم من الجهمية، فهم ينصِبون الخلاف فيها مع المعتزلة ونحوهم، ويتظاهرون بالردِّ عليهم، وموافقةِ أهل السنة والجماعة في إثبات الرؤية، وعند التحقيق فهم موافقونَ للمعتزلة، إنما يُثبِتونَ من ذلك نحو ما أثبته المعتزلة من الزيادة في العلم، ونحو ذلك مما يقوله المعتزلة في الرؤية، أو يقول قريبًا منه، ولهذا يعترف هذا الرازي بأن النزاع بينهم وبين المعتزلة في الرؤية قريبٌ من اللفظي»[2].

---

(١) ذكر هذه الأوجه ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (١/ ٢١٤).

(٢) «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» (٤/ ٤٠٠).

الثالثة: متى يُرى الله يوم القيامة؟

١- في عرصات القيامة: وهو ثابتٌ لهم، كما في حديث أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ والقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟**» قلنا: لا، قال: «**فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا**»، ثم قال: «**يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ... حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ اليَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ...**»[١].

٢- في الجنة: وهذه خاصةٌ بالمؤمنين، وتقدمت الأدلة عليها في أول «الواسطية» من الكتاب والسنة، كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية ٢٦]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: الآية ١٥]، قال الشافعي: لما نفاها عن أهل معصيته دل على ثبوتها لأهل طاعته[٢]. وغيرها، وكحديث: «**بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ...**»[٣]، وغيرها.

الرابعة: اختلف أهل السنة: هل الرؤية في المحشر يوم القيامة خاصة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٢) انظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (١/ ٤١٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ١٠٢٧) وضعفه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٦).

بالمؤمنين أو لا؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه لا يراه إلا المؤمنون، أما الكفار فلا يرون ربهم، لا المُظهِرُ للكفر ولا المنافق، وهذا قول أكثر العلماء، وعليه يدل كلام المتقدمين[(١)].

القول الثاني: أنه يراه مَن أظهر الإيمان والتوحيدَ من هذه الأمة ومنافقيها، وغُبَّراتٌ[(٢)] من أهل الكتاب، ثم بعد ذلك يحتجبُ عن الكفارِ والمنافقين، وهو قول ابن خزيمة[(٣)]، واختاره العثيمين[(٤)].

القول الثالث: أن الكفار يرونه رؤيةَ تعريف وتعذيب، كاللصِّ إذا رأى السلطانَ، ثم يحتجبُ عنهم؛ ليعظُمَ عذابُهم ويشتد عقابهم[(٥)].

ولكن ذكر ابنُ تيميةَ أنه ليس لأحدٍ أن يُطلِقَ القولَ بأن الكُفارَ يرون ربهم من غير تقييدٍ؛ **لوجهين**:

١) أن الرؤية المطلقة صار يُفْهَمُ منها الكرامةُ والثوابُ، وفي ذلك إيهامٌ، وليس لأحدٍ أن يُطلِق لفظًا يوهِمُ خلافَ الحقِّ إلا أن يكون مأثورًا عن السلف، وهذا اللفظُ ليس بمأثور.

٢) أن الحكم إذا كان عامًّا في تخصيصٍ بعضه باللفظ خروجٌ عن القول الجميل، فإنه يُمنَعُ مِن التخصيص؛ فإن الله خالق كل شيء ومريدٌ لكل

---

(١) انظر: «اعتقاد أئمة الحديث» (ص٦٣)، و«أصول السنة» لابن أبي زمنين (ص١٢٠).

(٢) أي: بقايا.

(٣) «التوحيد» (٢/ ٤٢٨).

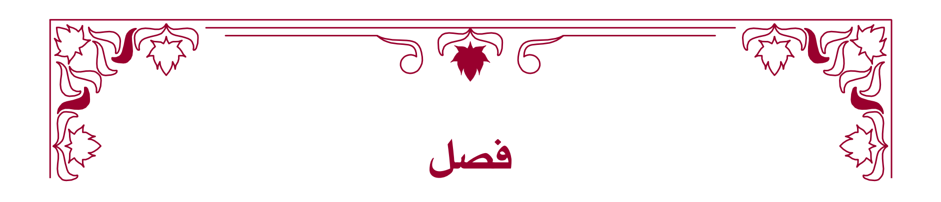
(٤) «شرح الواسطية» له (٢/ ١٠٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٨٧).

حادث، ومع هذا يمنع الإنسان أن يخص ما يستقذر من المخلوقات، وما يستقبحه الشرع من الحوادث، كأن يقول: يا خالق الكلاب، ويا مُريدًا للزنا، ونحو ذلك، بخلاف ما لو قال: يا خالق كل شيء، ويا من يجري كل شيء بمشيئته[(١)].



(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٠٤).



فصل

ومِنَ الإيمانِ بِاليَوم الآخِرِ:

الإيمانُ بِكُلِّ ما أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يكُونُ بَعْدَ المَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ:

بِفِتْنَةِ القَبْرِ.

وبِعذابِ القَبْرِ وَنَعِيمِهِ.

فَأَمَّا الفِتْنَةُ، فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ في قُبُورِهِمْ.

فَيُقالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّكَ؟

وما دِينُكَ؟

ومَنْ نَبِيُّكَ؟

فَ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧].

فَيَقُولُ المُؤْمِنُ: اللَّهُ ربِّي، والإسلامُ ديني، وَمُحَمَّدٌ نَبِيِّي.

وَأَمَّا المُرْتابُ فَيَقُولُ: آ آ! لا أَدْري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شيئًا فَقُلْتُهُ.

فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَديدٍ، فَيَصيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُها كُلُّ شيءٍ إلَّا الإنسانَ، ولَوْ سَمِعَها الإنسانُ، لَصَعِقَ.

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الفِتْنَةِ: إمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذابٌ، إلى يَوْمِ القِيامَةِ الكُبْرَى.

❐ **هذا الفصلُ عقده المؤلف للكلامِ على رُكنٍ من أركانِ الإيمان؛ وهو الإيمان باليوم الآخر.**

۞ والكلامُ عليه في مسائل:

الأولى: الإيمانُ باليومِ الآخر، هو أحدُ أركانِ الإيمان، وسُمِّي باليوم الآخر لتأخره عن الدنيا، ولأنه لا يومَ بعده، والإيمان به فرض.

وقد ذكر المؤلفُ ضابطًا نافعًا جامعًا في الإيمان باليوم الآخر؛ بأنه: **(الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت)**، وهذا ضابطٌ شمل أمورًا كثيرة، **يجمعها أمرانِ**:

١- كل ما يكون في البرزخ.

٢- كل ما يكون في يوم القيامة.

وهذا بالإجمال، وسيذكرها المؤلف بالتفصيل.

الثانية: أهلُ السنةِ يؤمنونَ في القبر بأمرَين:

١- فتنة القبر: والمراد بها سؤال المَلَكَين، وامتحانهما العبد، وهذا ثابتٌ عن النبي ﷺ بأحاديث بلغت بمجموعها حدَّ التواتر[1].

وقد ورد في حديثٍ أن اسم المَلَكين (مُنكَر ونَكير)[2]، وجاء في رواية الترمذي تسميتهما بالمنكر والنكير بالتعريف[3]، وهذا هو المشهور، ولا

---

(١) انظر: «الروح» لابن القيم (ص٥٢).
(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٨٦٤).
(٣) «سنن الترمذي» (١٠٧١)، وقال: حسن غريب.

يصح ما قيل: إنهما للمؤمن المطيع، مُبشِّر وبشير[١].

٢- عذابُ القبر ونعيمُه: فيقررون أن الميتَ إذا مات فإما في نعيمٍ، وإما في عذاب[٢]، قال الإمام أحمد: عذاب القبر حقٌّ، لا ينكره إلا ضالٌّ مضل[٣].

وسيأتي الكلام عليه، إن شاء الله.

الثالثة: أشار المؤلف في كيفية فتنة الميت في قبره إلى أمور:

أولًا: على مَن تكون فتنة القبر؟

والمقرر أن فتنة القبر تكون على جميع الناس، ما عدا أصنافًا اختُلِف فيهم، وهم:

١) الأنبياء: والذي عليه أكثر العلماء أنهم لا يُفتَنون؛ لوجهين:

أ- أن الأنبياء أفضلُ من الشهداء، وقد ورد في الحديث: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَة**»[٤]، فهذا في الشهيد أنه لا يُفتَن، والنبي أفضل منه.

ب- أن الأنبياء إنما يُسأل عنهم، فيقال للميت: مَن نبيُّك؟ ولذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ...**»[٥][٦].

---

(١) «معجم المناهي اللفظية»، لبكر أبو زيد (٦٨٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦٦).
(٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٧٤).
(٤) أخرجه النسائي (٢٠٥٣).
(٥) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥).
(٦) «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ١١٠).

٢) شهداءُ المعركة: لا يُسأَلون؛ لظهور صِدق إيمانهم بجهادهم، والله يعلم بنياتهم، وتقدم حديث: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ....**».

٣) المرابطون: لا يُفتنون؛ لما ورد عن سلمان رضي الله عنه مرفوعًا: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُه الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الفُتَّانَ**»[١]، والفُتَّان: هما المَلَكان.

٤) غير المكلَّفين: كالصغار والمجانين، ففيهم قولانِ[٢]:

القول الأول: أنهم يُمتحنون، حكاه ابن تيمية عن أكثر أهل السنة.

القول الثاني: أنهم لا يُمتحنون؛ لأن المِحنة تكون لمن يكلف في الدنيا، وعلى هذا فلا حساب عليهم.

ثانيًا: هل تُفتن الأمم السابقة في قبورها؟

يُفهم من قوله: **(الناس)** أن الأمم السابقة تُسألُ كذلك، وهذا الذي عليه جماعة من أهل العلم؛ لأنه إذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم تُسأل، فكذا مَن دونها مِن باب أَولى، واختاره ابن القيم[٣] والقرطبي[٤]، وابن أبي العز[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٣).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٠)، و«شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ١١٢).
(٣) انظر: «الروح» (ص٨٦ - ٨٧).
(٤) انظر: «التذكرة» (ص٤١٥).
(٥) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٨٢)، «التنبيهات السنية» (ص٢٢٢).

ثالثًا: هل يُسألُ الكفارُ في قبورهم؟

يُفهم من قوله: (الناس) أن السؤال عام للمؤمن والكافر، وهذا ما عليه جمهور العلماء، واختاره ابن تيمية(١)، وابن القيم(٢)، وقد ورد في الحديث: «**وَأَمَّا الكَافِرُ أو المُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي**»(٣).

رابعًا: أشار المؤلف بقوله: (في قبورهم) إلى أن وقت السؤال يكون إذا مات الإنسان ودُفِن.

ولا يُشترط أن يُدفن في قبره؛ لأن عذاب القبرِ المرادِ هو عذابُ البرزخ، قال ابن القيم: «فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه من ذلك، قُبِرَ أو لم يُقبَر، فلو أكلته السباع، أو أُحرِق حتى صار رمادًا، أو نُسِف في الهواء، أو غَرِق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور»(٤).

خامسًا: طريقة السؤال: هي أن يسأل المَلَكانِ الميتَ - رجلًا أو امرأة - هذه الأسئلة الثلاثة، وتختلف الإجابة بين الناس.

فأما المؤمن: فيجيب بما ذكر المؤلف، وقد ورد في حديث أبي هريرة أن المؤمن حينما يجيب يقال له: «**إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرَهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٧).
(٢) «الروح» (ص٨٣).
(٣) «صحيح البخاري» (١٣٣٨)
(٤) «الروح» (ص٥٨).

إِلَيْهِ»(١)، وحديث أنس: «**انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا**»(٢).

وأما المرتاب - وهو الشاك والمنافق -: فيقول: هاه هاه، أي: أنه يتردد، كأنه يعرف شيئًا، فلم يتيسر له تذكره، فيَستعجم عليه الجوابُ، ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧].

سادسًا: أشار لِعُقوبةِ المُرتابِ حين يَعْجَزُ عن إجابة المَلَكين في القبر بأنه:

◈ **يُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِن حَدِيدٍ**، وهي المطرقة الكبيرة، وورد في بعض الأحاديث أنه «**لو ضُرِب بها جبلٌ لصار ترابًا**»(٣).

◈ **يَسمع صوتَ عذابه كلُّ شيء من المخلوقات**، وقد ورد في حديث زيد بن ثابت أن بغلةَ النبي ﷺ كادت أن تلقيه حين مرَّ على قبور المشركين(٤)، وذكر العلماء أن هذا لسماعها لتعذيب الإنسان، وفي حديث آخر: «**إِلَّا الثَّقَلَيْنِ**»(٥).

◈ **ولو سمعها لصَعِق، أي: خرَّ ميتًا أو غُشِي عليه، فالحكمة من إخفاء الصوت عن الثقلين:**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وقال: حسن غريب.
(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٨٦١٤).
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٧).
(٥) أخرجه البخاري (١٣٣٨).

١) خشية عدم التدافن؛ لقوله ﷺ: **«لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»**(١).

٢) خشية الهلاك؛ لقوله ﷺ: **«وَلَوْ سَمِعَهَا الإنسان لَصَعِقَ»**(٢).

٣) أنه أستر للميت، وأهون على أهله.

قال العثيمين: «ولو كان يُسمع لكان من باب الإيمان بالمشاهدة، لا بالغيب، وحينئذٍ تفوت مصلحة الامتحان»(٣).

سابعًا: بعد انتهاء سؤال الملَكين فلا بد من أحد الأمرين: إما نعيم، وإما عذاب، واعلم أن المعذبين في القبر نوعانِ:

١) **مَن عذابهم دائم:** وهم الكفار ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ [غافر: الآية ٤٦].

٢) **مَن عذابهم إلى مدة ثم ينقطع:** وهو عذاب بعض العصاة، فيُعذَّب بقدْر معاصيه ثم يُخفَّف عنه، وقد ينقطع عنه العذاب إما بدعاء، أو صدقة، أو استغفار، أو نحو ذلك من الأبواب(٤).

مسألة: واختلف العلماء: هل العذاب والنعيم في القبر على الروح، أم البدن، أم كليهما؟

والذي قرره ابن تيمية وغيره: أن العذابَ والنعيمَ في القبر يكون على

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٣١٦).
(٣) «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/١١٨).
(٤) «التنبيهات السنية» (ص٢٢٤).

الروح، والبدنُ تابعٌ لها، بمعنى: أن الروح تُعذَّبُ، لكن الجسم يتأثر بهذا تبعًا، وليس على سبيل الاستقلال[(١)].

وذكر ابن القيم: أن تعلق الروح بالبدن خمسة أنواع:

١- تَعَلُّقُها به في بطنِ الأم جنينًا.

٢- في الدنيا، وهو تعلقٌ واتصال كامل مشاهَد.

٣- حال النوم، ولها تعلقٌ من وجه، ومفارقةٌ من وجه.

٤- في البرزخ، وهو نوع تعلقٍ واتصال، لكنه غير مشاهد.

٥- يوم القيامة، وهذا أكملُ أنواعِ التعلُّق، ولا يحصل بعده انفصال[(٢)].

تتمة: اعلم أن أمور البرزخ وما يحدث فيه من عذاب ونعيم، ومن إقعاد للميت، ومن فسح القبر للمؤمن سبعين ذراعًا، وتضييقه على الفاجر حتى تختلف أضلاعه، وغير ذلك من الأمور والأحوال - إنما هي من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها، والله تعالى على كل شيء قدير.

وأنت ترى الرجل في المنام ينعم برؤيا حسنة، وبجواره آخر يُعذَّب برؤيا مفزِعة، فيقومانِ وأثرُ ما رأيا في المنام عليهما، وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا.

ثامنًا: يستمر النعيم أو العذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/٢١٨).

(٢) انظر: «الروح»، لابن القيم (ص٤٣، ٤٤).

والمراد بها: بعثُ الناسِ مِن قبورهم بعد موتهم، وهذا عامٌّ لجميع الناس.

وسُمِّيت قيامة: لأن الناس يقومون من قبورهم. وبعد هذا تعود الأرواحُ إلى الأجسادِ، وتجتمع أجزاءُ الإنسان بعد تفرقها.

والروح: ما يحيا به الإنسانُ وغيره من ذوات الأرواح.

ويكون هذا حين يَنْفُخُ إسرافيل في الصورِ نفخةَ البعثِ والنشور.

وقد ورد في القرآن ثلاثُ نفخات:

١) **نفخةُ الفزع**: وردت في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النَّمل: الآية ٨٧].

٢) **نفخةُ الصعق**: وردت في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٨].

ومن العلماء من قال: نفخةُ الفزع تطول حتى يكون آخرها الموت، فهي واحدة أولها فزع، وآخرها صعق[(١)].

٣) **نفخة البعث**: وردت في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٨].

وإذا أُطلِق النفخ في الصور، فالمراد به: نفخة البعث[(٢)].

---

(١) «شرح الواسطية»، للجبرين (٢/ ١٠٠) «توفيق الرب المنعم بشرح صحيح مسلم» (٨/ ٣٦٦).

(٢) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٤/ ٢٦٠)، «التنبيهات السنية» (ص٢٢٦).

قوله: (فَتُعادُ الأَرْواحُ إلى الأجسادِ.
وتَقُومُ القِيامَةُ التي أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى بِها في كِتابِهِ، وعلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عليها المُسْلِمُونَ).

الرابعة: قيام القيامة والبعث بعد الموت ثابت بالكتاب والسنة والإجماع:

◈ **أما الكتاب:** فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ [الحج: الآية ١]، وقوله: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: ١ - ٢].

◈ **وأما السنة:** فكثيرة، منها حديث: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا...**»[(١)].

◈ **أما الإجماع:** فقائمٌ على ذلك[(٢)].

وهذا الأمر ثابتٌ بالفطرة كذلك؛ إذ لو لم يكن هناك بعْثٌ وحساب لكان إيجاد الخلائق عبثًا، والله سبحانه منزَّه عن ذلك.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).
(٢) «مقالات الإسلاميين» (١/ ٢٢٧)، «التسعينية» (٢/ ٤٧٤).

قوله: (فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العالَمينَ:
حُفاةً، عُراةً، غُرْلًا.
وتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ.
ويُلْجِمُهُمُ العَرَقُ).

الخامسة: إذا نُفِخ في الصور قام الخلق كلهم، وخرجوا من قبورهم؛ إجابةً لنداء ربهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفِّفين: الآية ٦]، **ويكونون:**

حفاةً: ليس عليهم نعال ولا خفاف.

عراةً: ليس عليهم لباس.

غُرْلًا: غير مختونين، لم ينقص من خلقهم شيء ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٠٤].

وقد ورد في حديث عائشة: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غرْلًا**»، قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض! فقال: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ**»(١).

ويُدني الله الشمس من الناس، كما في حديث المقداد مرفوعًا: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**»، قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين؟ «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي العَرَقِ؛**

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حِقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلْجَامًا»، وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ[(١)].

والآن يقدِّرُ أهلُ الفلك بُعْدَ الشمس عن الأرض بأكثر من مائة وتسعة وأربعين مليون كيلو متر تقريبًا، وأكثر[(٢)]، فما بالك إذا دنَتْ مقدار ميل؟!

وفي ذلك الوقت يُلجِمُ الناسَ العرقُ، أي: يصل إلى أفواههم، فيصير لهم بمنزلة اللجام يمنعهم من الكلام، وهذا غايةُ ما يصل إليه العرق، وتقدم في الحديث أن الناس في العرق درجات على حسب أعمالهم، فمنهم من إلى كعبيه، ومنهم إلى حِقويه - أي: منتصفه - وهو معقد الإزار، وهكذا.

وورد عن أبي هريرة مرفوعًا: «**يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ**»[(٣)].

وفي ذلك الوقت: هناك أناسٌ مستظلون بظلِّ عرش الرحمن[(٤)].



(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، والترمذي (٢٤٢١).
(٢) «الفرقان في بيان إعجاز القرآن» (ص٤١٢)
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٢)، ومسلم (٢٨٦٣).
(٤) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**».

قوله: (وتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَيوزَنُ فيهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣]).

السادسة: من معالم يوم القيامة: نصب الميزان، وتحت هذا سبع مسائل:

أولًا: مذهب أهل السنة والجماعة إثبات الميزان، وأنه ميزانٌ حقيقي حسِّي له لِسان وكِفتان، خلافًا للمعتزلة الذين أنكروه، وقالوا: الميزان عبارة عن العدل، وهذا تأويل فاسد، جرَّهم إليه اعتقادهم في فاعل الكبيرة، حيث يقررون في مذهبهم أن الحسنات تحبطها السيئات الكبيرة، فمَن فعل كبيرةً ولم يتُبْ فإن حسناته كلها تُحبط في مقابلها، ولا أمل له بالنجاة يوم القيامة، وحينها لا فائدة من وزن حسناته وسيئاته[(١)].

ثانيًا: ورد في الآية قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ فاختلف العلماء: هل الميزانُ واحد أو متعدد؟

والصحيح أنه واحد، وأما جمعها في القرآن فيُجاب عنه بأجوبة:

١) أن الميزان يشمل الكِفتين واللسان ونحوه، ولا يتم الوزن إلا باجتماعهما.

(١) انظر: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (٢/ ٣٥٣).

٢) أن الميزانَ جُمِعَ باعتبار الموزون حيث إنه متعدد، وهي الأعمال، أما الميزان فهو واحد.

٣) أن الجمع للتفخيم، كما في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٤١]، مع أنه لم يرسَل إليهم إلا واحدٌ[(١)].

ثالثًا: ما الذي يوزَن في الميزان؟

١) قيل: هي أعمال العباد، كما ذكره ابن تيمية هنا، ولذلك أدلة منها: «**الطَّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، والحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ**»[(٢)]، «**مَا شَيْءٌ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ**»[(٣)]، «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ... سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ...**»[(٤)].

٢) وقيل: الذي يوزن صحائف الأعمال، كما في حديث صاحب البطاقة المشهور[(٥)].

٣) وقيل: إنما يوزن صاحب العمل، كما في حديث: «**يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ، فَلَا يَزِنُ عِندَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ** ، ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٥]»[(٦)]، وقوله ﷺ للصحابة عن ابن مسعود وقد ضحكوا من دقَّة ساقيه: «**لَهُمَا فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ جَبَلِ**

---

(١) «فتح الباري لابن حجر» (١٣/ ٥٣٨)، «التنبيهات السنية» (ص٢٢٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، وأحمد (٢٧٤٩٦).
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤).
(٦) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

أُحُدٍ»[١].

وجمع ابن كثير بين الأقوال بأنها كلها تقع، قال: «وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا؛ فتارة توزَن الأعمال، وتارة توزَن محالُّها -أي: الصحف- وتارة يوزَن فاعلها، والله أعلم»[٢].

قال العثيمين: «ولكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذي يوزَن هو العمل، ويخص بعض الناس فتوزَن صحائف أعماله، أو يوزَن هو نفسه، أما ما ورد في حديث ابن مسعود وصاحب البطاقة فقد يكون هذا أمرًا يخص الله به من يشاء من عباده»[٣].

رابعًا: وزن الأعمال لا يكون لكل أحد، فإن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لا يُرفَع لهم ميزان ولا يأخذون صحفًا[٤].

خامسًا: ما الحكمة من الميزان؟

قال ابن أبي العز: «ولو لم يكن الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدْله سبحانه لجميع عباده، فلا أحد أحب إليه العذر من الله، مِن أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه؟!»[٥].

وفيه كذلك: إظهار فضل أهل الخير والصلاح أمام الناس.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٢٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٧).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٩٠).
(٣) «شرح الواسطية» (٢/ ١٤٣).
(٤) انظر «التذكرة» للقرطبي (ص٧١٩).
(٥) «شرح الطحاوية» (٢/ ٦١٣).

سادسًا: أيهما أول: الميزان أو الحساب؟

قال القرطبي: «قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة؛ فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها». اهـ[(١)].

سابعًا: هل الميزان كميزان الدنيا؟

الجواب: لا نعلم كيفيته، والمقرر أن أحوال الآخرة لا تُقاس على ما في الدنيا وإن اتفقت الأسماء، فنؤمِن به كما ورد من غير زيادة ولا نقص.

وأهل السنة لا يبحثون في هذه الأمور التي لا ينبني عليها عمل، ولذا ورد أن عبد الملك بن حبيب قال: كنا عند زياد بن عبد الرحمن اللخمي، إذ جاءه كتاب مِن بعض الملوك، فكتب فيه، وختمه، ثم قال لنا زياد: إنه سأل عن كِفَّتي الميزان أمِنْ ذهب أم فضة؟ فكتبت إليه: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[(٢)(٣)].



(١) «التذكرة» (ص٧١٥).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).
(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣١٢).

قوله: (وتُنْشَرُ الدَّواوينُ وهي: صَحائِفُ الأَعمالِ؛ فآخِذٌ كِتابَهُ بيَمينِهِ، وآخِذٌ كِتابَهُ بشِمالِهِ، أَوْ مِنْ وَراءِ ظَهْرِهِ.

كَما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤]).

السابعة: من معالم يوم القيامة وما يحدث فيه: نشر الدواوين:

والدواوين: جمع ديوان، وهي الصحائف التي يُكتب فيها أعمال العباد.

ففي يوم القيامة تُنشَر هذه الصحائف ليقف كل إنسان على ما في صحيفته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ [التَّكوير: الآية ١٠]، وقد أشار المصنِّف إلى كيفية أخذ العبد صحيفته.

أما المؤمن: فيأخذها بيمينه، كما قال تعالى في وصفه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٠]، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: الآية ٨]، وأما الكافر والمنافق: فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، كما قال مجاهد: تُجعل شماله من وراء ظهره، فيأخذ بها كتابه[1].

وقد استدل المصنف لنشر الدواوين بقوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣]،

(١) «تفسير مجاهد» (ص٧١٤).

أي: إن الله يخرج يوم القيامة للعبد كتابًا منشورًا، مفتوحًا، فيه عمله، فيراه ولا ينكر منه شيئًا، وهذا من عدل الله ﷻ.

قوله: (وَيُحاسِبُ اللَّهُ الخَلْقَ، ويَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، كَما وُصِفَ ذَلِكَ في الكِتابِ وَالسُّنَّةِ.
وأَمَّا الكُفَّارُ: فَلا يُحاسَبُونَ مُحاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَناتُهُ وَسِيِّئاتُهُ؛ فَإِنَّهُم لا حَسَناتِ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدَّدُ أَعْمالُهُمْ، وَتُحْصى فَيُوقَفُونَ عليها، ويُقَرَّرُون بها، ويُجْزَوْنَ بها).

الثامنة: مِن معالم يوم القيامة: توقيفُ الله العبادَ في المحشرِ على أعمالهم.

والحسابُ ثابتٌ بالكتاب والسنة والإجماع، والإيمان به واجب.

◈ فمن القرآن: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧ - ٨]، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

◈ ومن السنة: أحاديث كثيرة، ومنها: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ**»[١].

وها هنا أمرانِ:

أولًا: حينما يقول: **(الخلائق)** فإنه يشملُ كلَّ مخلوقٍ، وأما البهائمُ

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦).

فإنها تُحاسَب حِسابَ قصاص لا حسابَ تكليفٍ وإلزام، ثم يُقال لها بعد أن يُقتَص لها: كوني ترابًا[(١)].

وأما الإنسُ والجنُّ فيُحاسَبون كلهم، ويُسْتثنى من ذلك السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وما ورد في الروايات الأخرى من الزيادة عليهم.

ثانيًا: ذكر المؤلف أن الحساب على نوعَين:

١) **حساب المؤمن:** ويكون بأن ينفرد به الله ويخلو به، ثم يُقرره بذنوبه: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيعترف بها، ثم يستر عليه، كما في حديث ابن عمر: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»[(٢)].

والحسابُ يختلف؛ فمنه اليسير - وهو العرْض -، ومنه المناقشة، كما في حديث عائشة: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»، قالت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، قال: «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ إِلَّا عُذِّبَ**»[(٣)].

٢) **حساب الكافر:** وليس كحساب من تُوزَن حسناته وسيئاته؛ لأنه لا حسنات له، فالكفر أحبط كل حسنة، وإنما تُعَد أعمالهم وتُحصى،

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٣) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

فيُوقَفون عليها ويُجْزون بها، كما قال الله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٠].

فإن قيل: ما الفائدة من هذا الحساب للكفار؟

فالجواب: الفائدة بيان تفاوتهم في العقاب؛ قال ابن تيمية: «فعقاب من كثرت سيئاته أعظمُ من عقابِ مَن قلَّت سيئاته، ومن كانت له حسنات خففت عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخف عذابًا من أبي لهب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النَّحل: الآية ٨٨]، والنار دركات، فإذا كان عذاب بعض الكفار أشد عذابًا من بعض؛ لكثرة سيئاته وقلة حسناته، كان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخول الجنة»[1].

إشكال: ورد في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً... وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا**»[2]، وظاهره يدل على أن الكافر قد تنفعه بعض القربات.

الجواب: قد أفاد الحديث أن أعمال الكفار قسمانِ:

١) **ما يحتاج إلى نية**: كالصلاة والصوم والحج، فهذه لا تصح منه ولا تُقبَل.

٢) **ما لا يحتاج إلى نية**: كصلة الرحم والعتق، والضيافة، والصدقة،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

ونحوها؛ فهذه يجازى بها في الدنيا، وقد يُخفَّف عنه بها العذاب، وإلا فالأصل أنه ليس له ثواب في الآخرة، وأما تفاوت مراتب الكفار في النار، فهي أنهم كلهم في النار، وكلما زادت ذنوب الكافر زاد نزوله في دركاته.

وقوله: (وفي عَرْصَةِ القِيامَةِ: الحَوْضُ المَوْرُودُ لِمُحمَّدٍ ﷺ).

التاسعة: من معالم القيامة وما يوجَد فيه: الحوض المورود للنبي ﷺ.

والحوض لغةً: مجمع الماء، والمراد به هنا: حوض النبي ﷺ.

والكلام عليه في سبع مسائل:

أولًا: الحوض حق ثابت بإجماع أهل الحق، وتواترت به الأحاديث التي رواها أربعون صحابيًّا كما ذكر ابن القيم[1]، ومن هذه الأحاديث:

١- حديث أنس مرفوعًا: **«إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي مَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ اليَمَن، وَإِنَّ فِيهِ الأَبَارِيقَ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»**[2].

٢- حديث سهل بن سعد مرفوعًا: **«إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ»**[3].

(١) «حاشية ابن القيم على سنن أبي داود» (١٣/ ٥٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠).

وقد تعددت الأحاديث في وصف مقدار الحوض وتقريبه بالبلدان؛ ففي حديث عبد الله بن عمرو: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ**»[(١)]، وفي حديث أبي ذر: «**مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ**»[(٢)]، وفي حديث ابن عمر: «**كَمَا بَيْنَ جَرْباء وَأَذْرُحَ**»[(٣)]، ولا تعارض بين هذه التقديرات، يبيِّن ذلك ما ذكره القاضي عياض حيث قال: «هذا من اختلاف التقدير؛ لأن ذلك لم يقع في حديث واحدٍ فيُعَد اضطرابًا من الرواة، وإنما جاء في أحاديث مختلفة عن غير واحد من الصحابة سمعوه في مواطن مختلفة، وكان النبي ﷺ يضرب في كل منها مثلًا لبُعدِ أقطار الحوض وسَعته بما يسنح له من العبارات، ويقرب ذلك للعِلم بِبُعدِ ما بين البلاد النائية بعضها من بعض، لا على إرادة المسافة المحقَّقة، قال: فبهذا تجتمع هذه الألفاظ من جهة المعنى»[(٤)(٥)].

ثانيًا: خالف في إثبات الحوض الخوارج وبعض المعتزلة، وأوَّلوا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩).
(٤) «إكمال المعلم» (٧/ ٢٥٩، ٢٦٠).
(٥) وقال القرطبي: «ظنَّ بعض الناس أن هذه التحديدات في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف، وليس كذلك، وإنما تحدَّث النبي ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة، مخاطبًا لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها، فيقول لأهل الشام: ما بين أذرح وجرباء، ولأهل اليمن من صنعاء إلى عدن، وهكذا، وتارة أخرى يقدِّر بالزمان، فيقول: مسيرة شهر، والمعنى المقصود: أنه حوضٌ كبيرٌ متسع الجوانب والزوايا، فكان ذلك بحسب مَن حضره ممن يعرف تلك الجهات، فخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها، والله أعلم» «التذكرة لأحوال الموتى وأمور الآخرة»، للقرطبي (ص٧٠٦).

النصوص الواردة فيه، وأحالوها عن ظاهرها[١].

وأهل السنة يثبتون ذلك على ما ثبت في صحاح الأحاديث.

وقوله: ماؤُهُ أَشَدُّ بَياضًا مِنَ اللَّبَنِ.
وأَحْلَى مِنَ العَسَلِ.
طُولُهُ شَهْرٌ.
وعَرْضُهُ شَهْرٌ.
وآنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّماءِ.
فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَها أبدًا).

ثالثًا: ثبت للحوض أوصافٌ في الأحاديث، فمنها: «**أَنَّ مَاءَهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَطْيَبُ مِنْ رِيحِ المِسْكِ، وَآنِيَتُهُ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ**»، وثبت هذا في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصحيحين»[٢].

وأما سَعةُ الحوض: فقد أخبر النبي ﷺ أن عرضه شهر وطوله شهر[٣].

وأما استمدادُ مائِه: فثبت في الحديث أنه يَصُبُّ فيه ميزابانِ من الكوثر، أحدهما ذهبٌ والآخر فضةٌ[٤]، والكوثر هو النهر العظيم الذي أعطيه النبي ﷺ في الجنة، ففي الحديث: «**وَأَعْطَانِي الكَوْثَرَ، وَهُوَ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، يَسِيلُ فِي حَوْضِي...**»[٥].

(١) انظر: «الإبانة عن أصول الديانة»، لابن بطة (ص٢٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢): «**حَوضي مَسيرةُ شهرٍ**».
(٤) «صحيح مسلم» (٢٣٠١).
(٥) أخرجه أحمد (٢٣٣٣٦).

قال ابن أبي العزِّ: «والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم ومورد كريم، يُمَدُّ من شراب الجنة، من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواءٌ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر»[١].

رابعًا: الحوضُ موجود الآن؛ لأن النبي ﷺ قال: «**واللهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ**»[٢].

خامسًا: زمن الحوض وورود الناس عليه هو قبل الصراط.

واختُلِف: هل هو قبل الميزان؟

قال أبو الحسن القابسي: «والصحيح أن الحوض قبلُ، قال القرطبي: والمعنى يقتضيه؛ فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم، فيُقدَّم قبل الميزان والصراط، وقيل: يكون بعد الميزان»[٣].

سادسًا: من يَرِدُ على الحوض هم المؤمنون من أمة محمد ﷺ المتبعون لشريعته، أما من أعرض عن سنته فإنه يُذاد عن الحوض كما يُذاد البعير الضال[٤].

سابعًا: الحوض ليس خاصًّا بالنبي ﷺ، بل لكل نبي حوضٌ، لحديث سمرة مرفوعًا: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حَوْضِهِ، بِيَدِهِ عَصًا،**

(١) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦).
(٣) «التذكرة» (ص٧٠٣).
(٤) انظر: «صحيح البخاري» (٢٣٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩).

يَدْعُو مَنْ عَرَفَ مِنْ أُمَّتِهِ...»[١].

وهذا من عدل الله ﷻ، لكن الحوض الأعظم هو حوض محمد ﷺ[٢].

وقوله: (وَالصِّراطُ مَنْصُوبٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ.
وَهُوَ: الجِسْرُ الذي بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عليهِ على قَدْرِ أَعْمالِهِمْ:
فَمِنْهُمْ: مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ.
ومِنْهُمْ: مَن يَمُرُّ كَالبَرْقِ.
ومِنْهُمْ: مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ.
ومِنْهُمْ: مَن يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ.
ومِنْهُمْ: مَن يَمُرُّ كَرِكابِ الإِبِلِ.
ومِنْهُمْ: مَن يَعْدُو عَدْوًا.
ومِنْهُمْ: مَن يَمْشي مَشْيًا.
ومِنْهُمْ: مَن يَزْحَفُ زَحْفًا.
ومِنْهُمْ: مَن يُخْطَفُ فَيُلْقَى في جَهَنَّمَ، فَإِنَّ الجِسْرَ عليهِ كَلَالِيبُ، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمالِهِمْ.
فَمَنْ مَرَّ على الصِّراطِ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ).

العاشرة: من معالم يوم القيامة وما يحدث فيه: الصراط.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣) وقال: حديث غريب، والصواب أنه مرسلٌ عن الحسن، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩).
(٢) «التنبيهات السنية» (ص٢٣٤)، «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ١٥٩).

وهو الجِسرُ المنصوبُ على متن جهنم، بين الجنة والنار، يَرِده الأولون والآخرون، فيمرون عليه على قدر أعمالهم، بعد مفارقتهم للموقف، والفراغ من حشرهم وحسابهم.

والأدلة على الصراط من الكتاب: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: الآية ٧١]، فسَّره ابن مسعود وقتادة بالمرور على الصراط[١].

ومن السنة: حديث أبي هُريرةَ مرفوعًا: «... **ثُمَّ يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ**»[٢].

وفي الصراط ثلاثة أمور:

أولًا: صفته: ورد في الحديث أن النبي ﷺ سُئِل عن الصراط فقال: «**مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاء، تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَان...**»[٣]، والدحضُ والمزلَّة لا يكون إلا في طريقٍ واسع، فهذا يدل على أنه واسع.

وقيل: بل هو صراط دقيق جدًّا، كما في حديث أبي سعيد: «بلغني أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف»[٤].

ثانيًا: هذا الصراطُ يمرُّ عليه جميع الناس، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: الآية ٧١]، فأما المؤمنون والمنافقون فيمرون على الصراط؛ لأنه الطريق إلى الجنة، فمن نجا بلغ الجنة، وأما الكفار فيُساقون إلى

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ٥٩٥).
(٢) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٨٣).

النار.

وأولُ مَن يعبر الصراطَ من الأممِ أمةُ محمد ﷺ، وفي الحديث: «**فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ**»(١).

ثالثًا: ورد في حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا ذِكرُ صفة مرور الناس على الصراط: «**المُؤْمِنُ عَلَيْهِ كَالطَّرْفِ وكَالبَرْقِ وَكالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ والرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ في نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا**»(٢)، وهذا بقدر أعمالهم، فمَن مرَّ على الصراط دخل الجنة.

وقوله: (فَإِذا عَبَرُوا عليهِ؛ وَقَفُوا على قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ في دُخُولِ الجَنَّةِ).

الحادية عشرة: من معالم يوم القيامة وما يكون فيه: الوقوف على القنطرة.

والقنطرة: موضعٌ بعد الصراط، لمن نجا منه من المؤمنين، وهل هي جسر مستقل أو هي آخر الصراط؟ الله أعلم.

ويكون في القنطرة: القصاص، فَيُقْتَصُّ لكل واحد من المؤمنين من الآخر، ويؤخَذ للمظلوم حقه من ظالمه.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

والحكمة من ذلك: إخراج ما في القلوب من غلٍّ؛ إذ قد يحصل القصاص لكن لم ينتفِ الغل، قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: الآية ٤٧]. فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا من التبعات والحقوق، أُذِنَ لهم بالانصراف إلى الجنة، وقلوبهم سليمة من كل شائبة.

والدليل: حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**»[(١)].

وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بابَ الجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ.
وأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ ﷺ.

الثانية عشرة: استفتاح باب الجنة ودخولها.

إذا فرغ الناسُ من القصاصِ في القنطرة، اتجهوا إلى الجنة فيجدونها مغلقةً، فيأتي محمد ﷺ، ويقرع باب الجنة، كما في حديث أنس مرفوعًا: «**آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**»[(٢)]، وفي رواية: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ...**»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٠).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٦).

وهذا نوع من شفاعات النبي ﷺ، كما سيأتي بإذن الله.

وأول من يدخل الجنة: أمة محمد ﷺ؛ لفضلها على الأمم، فهم آخِرُ الأمم، لكنهم أفضل الأمم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ**»[(١)]، وقد ورد في «المسند» عن معاوية بن حيدة - بسند جوَّده ابن تيمية[(٢)]- أن النبي ﷺ قال: «**أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»[(٣)].

۞ ولَهُ في القِيامَةِ ثَلاثُ شَفاعاتٍ:

الثالثة عشرة: شفاعات النبي ﷺ.

الشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

وقد ذكر المؤلف ثلاثًا من الشفاعات التي يقوم بها النبي ﷺ يوم القيامة، **ويتعلق بالشفاعة أربع مسائل:**

أولًا: اعلم أن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام:

١) أهلُ السنة والجماعة: أثبتوا الشفاعة على وفق ما جاءت به الآيات والأحاديث بشروطها للنبي ﷺ، ولغيره ممن أُثبتت له.

واستدلوا على إثبات الشفاعة بنصوص كثيرة؛ منها:

١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ**

(١) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).
(٢) «الجواب الصحيح» (٢/ ٢٣٢).
(٣) أخرجه أحمد (٢٠٠١١).

- إِنْ شَاءَ اللهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[(١)].

٢- حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الجَنَّةِ...**»[(٢)].

قال ابن تيمية: «أحاديث الشفاعة كثيرة متواترة، منها في «الصحيحين» أحاديث متعددة، وفي السنن والمسانيد مما يكثر عدُّه»[(٣)].

٢) قسم غلَوا في إثباتها، حتى أثبتوا شفاعة الأصنام والأوثان، وهم المشركون، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣].

ووافقهم بعض مبتدعة هذه الأمة، من غلاة المتصوفة والقبوريين، الذين أثبتوا الشفاعة للأموات، وبطلان مذهبهم مشهور، وليس هذا مجالَ الرد عليهم.

٣) قسمٌ غلَوا في نفيها: وهم الخوارج والمعتزلة، فأنكروا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر من أمته.

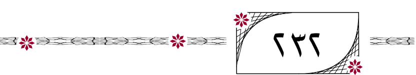
واستدلوا بالآيات في القرآن في نفي الشفاعة، كقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غَافر: الآية ١٨]، ومعلوم أن مذهبهم أن صاحب الكبيرة خالد في النار، كما تقدم.

والجواب عنهم من وجهَين:

١- **أن هذه الآيات مخصوصة بالكفار؛** لأن سياق الخطاب معهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٦).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٤).



٢- أن الشفاعة المذكورة في القرآن قسمانِ:

أ- **شفاعة منفية**: وهي الشفاعة للكافر والمشرك: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثِّر: الآية ٤٨]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُونس: الآية ١٨]، فنفاها وأخبر أنها شرك.

ب- **شفاعة مثبتة**: وهي التي أثبتها القرآن، وهي خالصةٌ لأهل التوحيد بشروط:

◆ إذْن الله للشافع أن يشفع: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥].

◆ رِضاه عن المشفوع له: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٨].

◆ رِضاه عن الشافع: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النّجم: الآية ٢٦][(١)].

والله ﷻ لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قال: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»[(٢)].

(١) «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ١٦٨).
(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَى: فَيَشْفَعُ لأَهْلِ المَوْقِفِ حتى يُقْضى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَراجَعَ الأنبياءُ آدمُ، ونُوحٌ، وإبراهيمُ، ومُوسى، وعيسى ابنُ مَريمَ عليهم من الله السلام عَنِ الشَّفَاعَةَ حتى تَنْتَهيَ إليهِ ﷺ.

ثانيًا: الشفاعة لها أنواع ثمانية، وذكر منها في المتن ثلاثًا:

أول الشفاعات: الشفاعة العظمى، وهذه خاصة بالنبي ﷺ، وهي المقام المحمود، وهي أن يشفع النبي ﷺ للعباد عند الله أن يعجِّل القضاء بينهم بعد طُول الموقف عليهم وبعد مراجعتهم للأنبياء، وهذه ثابتة في «الصحيحينِ» من حديث أبي هريرة[1].

وهذه الشفاعة أعظم الشفاعات؛ لأن فيها إراحة الناس من الكرب والغم، وهي ثابتة بإجماع المسلمين، كما ذكر ابن تيمية[2].

وأَمَّا الشَّفاعَةُ الثَّانِيَةُ:
فَيَشْفَعُ في أَهلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ.
وهاتانِ الشَّفاعَتانِ خاصَّتانِ لَهُ.

ثاني الشفاعات: شفاعته ﷺ في دخول أهل الجنةِ الجنةَ بعد الفراغ من الحساب، وهي خاصة بالنبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣١٣).

وأَمَّا الشَّفاعَةُ الثَّالِثَةُ:
فَيَشْفَعُ فيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ - وهذِهِ الشَّفاعَةُ لَهُ، وَلِسائِرِ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ - يَشْفَعُ فيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لا يَدْخُلَها. ويَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَها أَنْ يَخْرُجَ مِنها.

ثالث الشفاعات: الشفاعة فيمن استحق النار من أهل الكبائر، أن لا يدخلها، وهذه ليس لها حديث صريح يثبتها، لكن قد تُستفاد من دعاء الرسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة، كما في دعائه لأبي سلمة: «**اللَّهُم اغفِرْ له**»[(١)]، وهي للنبي ﷺ ولسائر النبيين والصديقين والشهداء وغيرهم.

وهذا النوع من الشفاعة نصَّ على ثبوته النووي[(٢)]، وابن تيمية[(٣)]، وابن كثير[(٤)]، وابن حجر[(٥)]، والسفاريني[(٦)]، وغيرهم.

وممن توقف فيه: ابنُ القيم؛ حيث قال: «هذا النوع لم أقف إلى الآن على حديثٍ يدل عليه»[(٧)].

والذي يظهر أن هذا النوع من الشفاعة ليس فيه إلا الأحاديثُ العامة، وليس فيه حديثٌ صريحٌ يُستدَل به عليه، وما فيه من الأحاديث فهو

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠).
(٢) «شرح النووي على مسلم» (٣/ ٧٥).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٤٧).
(٤) «الفصول في السيرة» (ص٢٨٣).
(٥) «فتح الباري» (١١/ ٩٧).
(٦) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ٣٨٨).
(٧) «تهذيب السنن»، لابن القيم بهامش «عون المعبود» (١٣/ ٥٥).

ضعيف[(١)].

وَيُشَفَّعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا مِنْ عُصَاةِ المُوحِّدِينَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا.

رابع الشفاعات: الشفاعةُ فيمن دخل النار وهو من أهل التوحيد، أن يخرج منها، وقد ثبتت فيها أحاديث كثيرة، وأجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبةً، ومن الأدلة عليها: حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه أنه ﷺ قال: «**فَأَخِرُّ سَاجِدًا لِرَبِّي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ... ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَقُولُ اللهُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي: لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ...**»[(٢)]، وهذه عامَّةٌ للنبي وغيره.

خامس الشفاعات: شفاعته ﷺ في عمِّه أبي طالب أن يُخفَّف عنه العذاب، وهي خاصة به وبعمه أبي طالب؛ لأن الله أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

ودليلها: حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك، فقال: «**نَعَمْ،**

(١) انظر: «الشفاعة عند أهل السنة»، د. ناصر الجديع (ص٥٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(١).

سادس الشفاعات: شفاعته ﷺ في رفع درجات بعض أهل الجنة.

ودليل ذلك: دعاء النبي ﷺ لأبي سلمة: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ**»(٢)، ودعاء النبي ﷺ لأبي عامر الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين استُشهِدَ، فأتى أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ، وقال: استغفر له، فتوضأ النبي ﷺ، ثم رفع يديه، وقال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ، اللهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ** - أو **مِنَ النَّاسِ**»(٣).

وهذه الشفاعة قيل: إنها خاصة بالنبي ﷺ(٤)، وقيل: إنها ليست خاصة به ولكنه هو المقدم فيها(٥).

سابع الشفاعات: شفاعته ﷺ في دخول بعض المؤمنين الجنة بلا حساب ولا عذاب، وثبت هذا في شفاعته ﷺ في عُكَّاشة بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ففي حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**اللهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**»(٦).

وقد ورد عن أبي أمامة الباهلي مرفوعًا: «**وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِلَا حِسَابٍ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابٍ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ**»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٩٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٢٣)، ومسلم (٢٤٩٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٤/٣٩٩).

(٥) «الشفاعة عند أهل السنة»، د. الجديع (ص٤٩).

(٦) أخرجه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦).

(٧) أخرجه الترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وأحمد (٢٢٣٠٣)، وقال الترمذي: =

ثالثًا: اعلم أن بعض أنواع الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ، كالنوع الأول والثاني والخامس، وما عداها فليس مقصورًا على النبي ﷺ، بل يشفع النبي ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وفي الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «**فَيَقُولُ اللهُ: شَفَعَتِ المَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ المُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**»(١).

وكذلك فالشهيد يشفع، كما في حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه مرفوعًا: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ... ويُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِه**»(٢).

وأولاد المؤمنين الذين يموتون وهم صغارٌ يشفعون لوالديهم(٣).

وكذلك الأعمال الصالحة تشفع؛ فالقرآن يشفع: «**اقْرَؤُوا القُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا...**»(٤)، والصيام يشفع: «**الصِّيَامُ والقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ والشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ...**»(٥).

= حسن غريب. وانظر: «مشكاة المصابيح» (٥٥٥٦).

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٦٣) وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وأحمد (١٧١٨٢)

(٣) أخرج النسائي (١٨٧٦) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلمَيْنِ يموت بينهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله بفضل رحمته إياهم الجنة**»، قال: «**يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون: حتى يدخل آباؤنا، فيقال: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم**».

(٤) أخرجه مسلم (٨٠٤).

(٥) أخرجه أحمد (٦٦٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٥٤) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٥٢٠٣).

وعلى المؤمن اعتقاد ثبوت شفاعة الشفعاء ممن دلت الأدلة الشرعية على شفاعتهم يوم القيامة[(١)].

ويُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أقْوامًا بِغَيْرِ شَفاعَةٍ، بَلْ بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ.

رابعًا: من رحمة الله بعباده أنه بعد ما يشفع النبيون والملائكة والمؤمنون يُخرِجُ الله من النار أقوامًا بفضله ورحمته، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨]، وحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدم: «**شَفَعَتِ المَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ المُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**»[(٢)].

وقد ذكر المصنف أن هذا برحمة الله وفضله، والمقرر عند العلماء أن دخول الناس الجنة وخروجهم من النار هو برحمة الله وفضله، لا بأعمالهم.

فإن قيل: كيف يُجمع بين حديث: «**لَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ...**»[(٣)]، وبين قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: الآية ٣٢]؟

فالجواب: أن دخول الجنة هو بفضل الله ورحمته، لا بالعمل، وإنما العمل سبب لدخول الجنة، والله سبحانه هو خالق السبب والمسبَّب، فرجع الكل إلى محض فضله ورحمته؛ ولذا قال في الآية: ﴿ٱدْخُلُواْ

---

(١) «الشفاعة»، للجديع (ص٦٢ – ٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: الآية ٣٢]، أي: بسبب أعمالكم؛ فالباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلًا للآخر، أي: أن يكون العمل كالثمن لدخول الجنة، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلًّا بحصوله[١].

ويَبْقى في الجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَ مِنْ أَهلِ الدُّنْيا، فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَها أَقوامًا، فَيُدْخِلُهُمْ الجَنَّةَ.

لمَّا كانت الجنةُ واسعةً عرضها السماوات والأرض، فإنها إذا دخلها أهلها لا تمتلئ، فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلهم الجنة، وهذا من فضل الله.

وأما النارُ فلا يُعذَّب فيها إلا من قامت عليه حجته وكذَّب رسله.

والدليل: حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ عَلَيْهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُها إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَط قَط، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الجَنَّةِ فَضْلٌ، حَتَّى يُنشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فِيهَا**»[٢].



(١) «حادي الأرواح»، لابن القيم (ص٨٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨).

وأَصْنافُ ما تَتضَمَّنُهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسابِ، والثَّوابِ والعِقابِ، والجَنَّةِ وَالنَّارِ وتَفاصِيلُ ذلكَ مَذْكُورَةٌ في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّماءِ، والأَثارَةِ مِنَ العِلْمِ المَأْثُورةِ عنِ الأَنْبِياءِ، وفي العِلْمِ المَوْرُوثِ عنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذلكَ ما يَشْفي ويَكْفي، فَمَنِ ابْتَغاهُ وَجَدَهُ.

❐ لما ذكر ما ذكر من أحوال اليوم الآخر، أخبر أن ذلك وتفاصيله مذكور في الكتب المنزلة، كالتوراة والإنجيل، والآثار عن الأنبياء عليهم السلام، وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يشفي ويكفي، فمن ابتغاه وجده، فلا حاجة إلى أن تبحث عن غيره؛ ففيه ما يغني، فمن طلب ذلك وجده وتيسر عليه في القرآن، أو في أحاديث النبي ﷺ، لكن يُراعى فيها الثبوت والصحة.

وَتُؤْمِنُ الفِرْقَةُ النَّاجِيةُ - أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ - بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

❐ شرع المؤلف رحمه الله في الكلام على الإيمان بالقدر، وهو من أهم مسائل الاعتقاد التي وقع فيها الاختلاف كثيرًا، وهو ركن من أركان الإيمان الستة، ولذا عدَّه من الأمور التي يؤمن بها أهل السنة والجماعة، وأجمعوا عليه.

والكلام عليه في أربع عشرة مسألة:

أولًا: تعريف القضاء والقدر.

القدر لغةً: التقدير.

والقضاء: الحكم والفصل.

وأما التعريف الاصطلاحي: فإذا اجتمع القضاء والقدر عُرِّفَا بأمر واحد، ولعل أحسن ما قيل في تعريفهما **أن يقال**: تقديرُ اللهِ الأشياءَ في القِدَم، وعِلمُه سبحانه أنها ستقعُ في أوقاتٍ معلومةٍ عنده، وعلى صفاتٍ مخصوصة، وكتابتُه لذلك ومشيئتُه له، ووقوعُها على حسبِ ما قدَّرها وخلقه لها[(١)].

وإذا افترق القضاء والقدر، عُرِّفا بأن:

القضاء: ما قضى الله به في خلقه؛ من إيجاد وإعدام وتغيير.

والقدر: ما قدَّره الله في الأزل أن يكون في خلقه، فهو أولًا ثم القضاء[(٢)].

ثانيًا: حكم الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان به واجب، ومن أنكره فليس بمؤمن، قال ابن القيم بعد ذكر آثار في الإيمان بالقدر: «هذه الآثار كلها تبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولَبِسَ جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم

---

(١) «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٣٩).

(٢) «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ١٨٨).

يعرفه»(١).

ثالثًا: الأدلة على إثبات القدر والإيمان به:

◈ من القرآن: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القَمَر: الآية ٤٩]، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحَديد: الآية ٢٢].

◈ ومن السنة: حديث جبريل المشهور وفيه: «...**وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(٢).

◈ والإجماع: منعقد عليه عند السلف من الصحابة والتابعين، قال طاوس: «أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر»(٣).

رابعًا: هل في القدر خيرٌ وشرٌّ، أم أن كل ما فيه خير؟

الجواب: كل ما يقدِّره الله سبحانه فهو خير، ولا يقدِّر شرًّا محضًا سبحانه؛ فالشر ليس إليه، كما كان دعاء النبي ﷺ(٤).

وأما قوله ﷺ في ذكر أركان الإيمان: «**بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(٥) **فيجاب عنه**: بأن القضاء والفعل بالإضافة إلى العبد فيه شرٌّ وخير، والشرُّ جزئيٌّ

(١) «طريق الهجرتين» (ص١٥١).
(٢) أخرجه مسلم (٨).
(٣) أخرجه اللالكائي (٤/ ٧٣٢)، وأخرجه مسلم (٢٦٥٥) بلفظ: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ».
(٤) أخرجه مسلم (٧٧١).
(٥) أخرجه مسلم (٨).

بسبب جهلِه وذنوبه وظُلمِه، وبالإضافة للخالق سبحانه: فهو خيرٌ، وكله حكمة، وربما كانت الحكمة خافية على المخلوق، ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الرُّوم: الآية ٤١]، فظهور الفساد شرٌّ بالنسبة للمخلوق، ولكنه بالنسبة لله فهو خيرٌ، ولذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال ابن القيم: «القَدَرُ لا شرَّ فيه بوجه من الوجوه؛ فإنه عِلمُ الله وقدرته وكتابته ومشيئته، وذلك خيرٌ محض وكمال من وجهٍ، فالشرُّ ليس إلى الربِّ تعالى بوجه من الوجوه؛ لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وإنما يدخل الشرُّ الجزئي الإضافي في المقضي المقدَّر، ويكون شرًّا بالنسبة إلى محل، وخيرًا بالنسبة إلى محل آخر، وقد يكون خيرًا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه كما هو شر له من وجه، بل هذا هو الغالب، وهذا كالقصاص وإقامة الحدود وقتل الكفار؛ فإنه شر بالنسبة إليهم، لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه، وخير بالنسبة إلى غيرهم؛ لما فيه من مصلحة الزجر والنكال، ودفع الناس بعضهم ببعض، وكذلك الآلام والأمراض وإن كانت شرورًا من وجه فهي خيرات من وجوه عديدة.

فالخير والشرُّ مِن جنسِ اللذَّة والألم والنفع والضرر، وذلك في المقضي المقدَّر لا في نفس صفةِ الرب وفعله القائم به؛ فإنَّ قطع يد السارق شرٌّ مؤلم ضارٌّ له، وأما قضاءُ الربِّ ذلك وتقديره عليه فعدلٌ وخير وحكمة ومصلحة»[1].

---

(١) «شفاء العليل»، لابن القيم (ص٢٦٩).

خامسًا: استصحابُ القَدَرِ عند فعل الطاعات من أنفع الأمور للعبد؛

قال ابن تيمية: «فشهودُ القدَرِ في الطاعات من أنفع الأمور للعبد، وغَيبتُه عن ذلك مِن أضرِّ الأمور به؛ فإنه يكون قدَريًّا منكرًا لنعمة الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، وإن لم يكن قدريَّ الاعتقادِ كان قدريَّ الحال، وذلك يورثُ العُجْب والكِبر ودعوى القوة والمِنَّة بعمله، واعتقاد استحقاق الجزاء على الله به، فيكون مَن يشهد العبودية مع الذنوب والاعتراف بها - لا مع الاحتجاج بالقدر عليها - خيرًا من هذا الذي يشهد الطاعة منه لا مِن إحسان الله إليه، ويكون أولئك المذنبون بما معهم من الإيمان أفضل من طاعةٍ بدون هذا الإيمان»[(١)]، ولذا قال أبو سليمان الداراني: «إنما يُعجَبُ بعمله القَدَري»[(٢)].

سادسًا: هل يُضاف الشرُّ إلى الله سبحانه؟

الشرُّ لا يُضاف إلى الله مجردًا عن الخير، **إنما يذكَرُ على أحدِ وجوهٍ ثلاثة:**

١) مع إضافته إلى المخلوق والسبب، كقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفَلَق: الآية ٢].

٢) مع حذف الفاعل، كما في قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾ [الجنّ: الآية ١٠].

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٣١).
(٢) «الشريعة» للآجري (٢/ ١٢٥).

٣) أن يدخل في عموم المخلوقات، كقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرَّعد: الآية ١٦][(١)].

ولا بد أن يوقن المسلم: أن الله لا يخلق شيئًا، ولا يقدِّر أمرًا إلا وفيه الخير للعباد عاجلًا أو آجلًا، وإلا وفيه حكمةٌ ومصلحة ظاهرة أو خافية، وإذا خفيت الحكمة فلا يلزمنا أن نعرفها، فالله سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣]، ولو جلس الإنسان يتأمل في حِكَمِ خلقِ الأشياء لحار فِكره، فسلِّم لربك، واطمئن لتدبيره، وارض بأقداره.

والإيمانُ بِالقَدَرِ: على دَرَجَتَيْنِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:
فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإيمانُ بِأَنَّ اللَّهَ تعالى عَلِمَ ما الخَلْقُ عامِلونَ بِعِلْمِهِ القَدِيمِ الذي هو مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وأَبدًا.
وعَلِمَ بجَمِيعِ أَحْوالِهِمْ مِنَ الطَّاعاتِ والمَعاصي، والأَرْزاقِ والآجالِ.

سابعًا: الإيمانُ بالقدر له أربع مراتب:

١) **مرتبة العلم:** وهي الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء، وأنه عَلِم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه عَلِمَ ما الخلقُ عاملون قبْل أن يخلقهم، وعَلِمَ أرزاقهم وآجالهم، وحركاتهم وسكناتهم، وأعمالهم، ومَن مِنهم مِن أهل الجنة ومَن هم أهل النار،

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٦٦)، (٨/ ٤٠٠)، «شرح الطحاوية»، لابن أبي العز (٢/ ٥٥٦).

وأنه يعلم كل شيء بعلمه القديم المتصف به أزلًا وأبدًا[١].

وقوله: (القديم): هو الذي لا أول لابتدائه، أي: أنه لم يزل فيما مضى من الأزمنة التي لا نهاية لها[٢].

وقوله: (أزلًا)، أي: لم يزل ولا يزال كائنًا أبدًا.

ويدل على هذا من الكتاب: قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطَّلَاق: الآية ١٢].

وقوله: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥٩]، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠].

ومن السنة: حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رجل: يا رسول الله، أعُلِمَ أهلُ الجنة من أهل النار؟ «**قال: نَعَمْ**»، قال: ففِيمَ يعمل العاملون؟ قال: «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[٣].

وحديث ابن عباس: سُئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»[٤].

---

(١) انظر: «القضاء والقدر»، للدكتور عبد الرحمن المحمود (ص٥٥).
(٢) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ١٩٤).
(٣) أخرجه البخاري (٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩).
(٤) أخرجه البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠).

وغيرها كثير مما يدل على علم الله المحيط بكل شيء[١].

ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ تعالى في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مَقاديرَ الخَلائِقِ.

٢) مرتبة الكتابة: وهي أن الله كتب مقادير الخلائق وما هو كائن إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، **وإنما وُصِفَ بأنه محفوظٌ لأنه:**

أ- محفوظٌ من أيدي الخلق فلا ينالونه.

ب- محفوظٌ من التغيير؛ فالله كتبه عن عِلم منه، فلا يغيَّر منه شيء.

أما التغييرُ فقد يكون في الكتب التي في صحف الملائكة[٢].

والأدلة على مرتبة الكتابة:

◈ من القرآن: قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨]، على أحد الوجهين أن المقصود بالكتاب هو اللوح المحفوظ؛ فكل ما يجري فالله قد كتبه، وقيل: المراد بالكتاب: القرآن[٣].

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النَّمل: الآية ٧٥].

وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يُونس: الآية ٦١]، وغيرها كثير.

◈ ومن السنة: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: «**كَتَبَ**

---

(١) انظر: «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٥٧)، «معارج القبول» (٣/ ٩٢٠).
(٢) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ١٩٧).
(٣) «زاد المسير» (٢/ ٢٦).

اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»، قال: «**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**»[1].

◈ وإجماعُ الصحابةِ والتابعين منعقدٌ على إثباتها[2].

فَ«أَوَّلُ ما خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ؛ فقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فقَالَ: ما أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ ما هو كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ».

يتعلق بكتابة المقادير أمرانِ:

١) **يتفق العلماء على أن أول المخلوقات العرش، والقلم**، ولكن اختلفوا أيهما خُلق أولًا؟

قال صاحب «الطحاوية»: أصحها: أن العرش قبل القلم؛ لحديث عبد الله بن عمرو المتقدم: «... **وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**».

وأما حديث: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ**»[3]، فقيل في تقديرها: إن المراد أنه عند أول خلقه للقلم قال: اكتب[4].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).
(٢) «شفاء العليل» (ص٣٩ - ٤١).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩)، وأحمد (٢٢٧٠٥).
(٤) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٣٤٥).

فَما أَصابَ الإنسانَ لَمْ يكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وما أَخْطَأَهُ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقلامُ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ.

٢) من أهم الثمار التي يخرج بها المسلم حين يؤمن بكتابة المقادير:

أن يستقر في ذهنه: أن ما يصيب الإنسان مما ينفعه أو يضره، فهو مقدَّر عليه وواقع لا محالة، ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يوقعوا عليك غيره ما قدروا.

وأنه لن يقع عليك أمرٌ لم يُكتَبْ عليك؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التَّوبَة: الآية ٥١].

وأن الأقلام جفَّت، والصحف طُوِيت على ما كتبه الله، فرغ الله منها، فلا تُغَيَّرُ، كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ... رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[(١)].

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال له: «**جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ**»[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٦٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٦).

كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحَجّ: الآية ٧٠].

وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢﴾ [الحَدِيد: الآية ٢٢].

❐ ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاتينِ الآيتينِ مستدلًّا بهما على هذه الدرجة من الإيمان بالقدر، وهي العلم والكتابة.

وقد أفادتنا علم اللهِ الأمورَ كلها، وإحاطته بها، وكتابته الحوادث في اللوح المحفوظ قبل وقوعها، وهذا يتضمن علمه بها قبل الكتابة.

وقوله: ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحَدِيد: الآية ٢٢] أي: نوجدها ونخلقها، والضمير يحتمل أن يعود إلى نفس المصيبة، أو إلى الأنفس، أو إلى الأرض، والكلُّ صحيح، فالمصيبة قد كُتِبت قبل أن يخلقها الله، وقبل أن يخلق النفس المصابة، وقبل أن يخلق الأرض[١].

فالمراد أن ما يقع من شيء فالله قد كتبه، وهذا متى ما استشعره المسلم فإنه يحقق لديه ثمرتين ذُكِرَتا بعد ذلك، حيث قال الله بعدها: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣﴾ [الحَدِيد: الآية ٢٣].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٢٠٢).

وهذا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ ﷻ يكُونُ في مَواضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا. فَقَدْ كَتَبَ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ ما شاءَ.
وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنينِ - قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ - بَعَثَ إلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وشَقِيٌّ أَو سَعِيدٌ ونَحْوِ ذَلِكَ.

❐ لما تكلم المؤلف عن الكتابة في اللوح المحفوظ، **بيَّن أن الكتابة وتقدير الأشياء نوعان:**

١) ما يكون عامًّا: فيكون عامًّا شاملًا لكل الكائنات، وهو تقدير الله وكتابته كل شيء في اللوح المحفوظ، وتقدم ذكر الأدلة عليه.

٢) ما يكون خاصًّا: وهو تفصيل للقدر العام، وهذا أنواع:

أ- التقدير حين أخذ الميثاق على بني آدم وهم في ظَهْر أبيهم آدم، ودليله: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سُئِل عن قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، فقال: سمعت رسول الله ﷺ سُئِل عنها فقال: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ** عليه السلام**، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ**»، فقال رجل: ففِيم العمل يا رسول الله؟! فقال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ...**»[١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٢٦)، =

فالحديثُ فيه أن الله قدَّر أهل الجنة وأهل النار، وتقديرُ أعمالهم تابعٌ لذلك، وهذا التقدير خاصٌّ من جهة كونه لبني آدم دون غيرهم، وعامٌّ من جهة كونه لجميع جنس بني آدم.

ب- تقدير عمري: ويكون عند أول تخليق النطفة.

ودليله: حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «**ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ، فَيُؤْمَرُ بِنَفْخِ رُوحِهِ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ...**»[1].

ج- تقدير حَوْلي: ويكون في ليلة القدر، ودليله قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدُّخَان: الآية ٤]، أي: يُقضى فيها أمر السنة كلها؛ من معايش الناس، ومصائبهم، وموتهم، وحياتهم، إلى مثلها من السنة الأخرى[2].

د- تقدير يومي: ودليله قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: الآية ٢٩]، قال النبي ﷺ عن الآية: «**مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ**»[3]، فيكون فيه ما يقدره الله في كل يوم من حوادث[4].

❋ ❋ ❋

= وأحمد (٣١٠).

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٠٢) من حديث أبي الدرداء، وحسنه البوصيري، وصوب الدارقطني في «علله» (٦/ ٢٢٩) أنه موقوف.

(٤) انظر: «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٦٦ - ٦٩)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٠٨).

فهذا القَدَرُ قَدْ كان يُنْكِرُهُ غُلاةُ القَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُوهُ اليَوْمَ قَلِيلٌ.

❏ هذه الدرجة التي ذكرها - وهي مَرْتَبَتَا العلم والكتابة - كان ينكرها غلاة القدرية سابقًا؛ **لأن القدرية فرقتانِ:**

١/ غلاةُ القدرية: وهم الذين ينكرون العلم والكتابة، فينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها، ولا يعلم بها الله إلا إذا وقعت، ولم يكتبها في اللوح المحفوظ، ويقولون: إن الله أمر ونهى، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، بل الأمر أُنُف - أي: مستأنف، لم يسبق في علم الله وتقديره.

وأول من قال بهذا: معبد الجهني، ثم أخذه عنه غيلان الدمشقي.

وهذا القول هو أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين.

وردَّ عليهم بقية الصحابة كابن عمر وابن عباس، وتبرؤوا منهم، قال ابن عمر: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآءُ مني[(١)]، وكذا كفَّرهم الأئمة، كمالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل.

ولكن هؤلاء القدرية الغلاة قد اندثر مذهبهم، ولم يبق منهم إلا أقل من القليل، **ولذا قال المؤلف:** **(ومنكروه اليوم قليل)**.

٢/ القدرية الذي يقرُّون بالعلم: وإنما خالفوا السلف في زعمهم أن

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

أفعال العباد مقدَّرةٌ لهم، وواقعةٌ منهم على جهة الاستقلال، ويأتي بيان هذا المذهب.

ولا شك أن الفرقة الأولى أشدُّ ضلالًا، بل هم كفارٌ بحكم الأئمة؛ لنفيهم علم الله سبحانه، وأما الفرقة الثانية فإنهم مبتدعون ضالون، لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك(١).

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّهِ النَّافِذَةُ، وقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ.
وهُوَ الإيمانُ بِأَنَّ ما شاءَ اللَّهُ كانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.
وأَنَّهُ ما في السَّماواتِ ولا في الأرضِ مِنْ حَرَكَةٍ ولا سُكُونٍ، إلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يكُونُ في مُلْكِهِ إلَّا ما يُرِيدُ.
وأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ المَوْجُوداتِ والمَعْدُوماتِ.

٣) مرتبة المشيئة: وهي الإيمانُ بأنَّ كل ما يجري في الكون فهو بمشيئة الله سبحانه؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن إرادته الكونية شيء؛ فلا حركة ولا سكون في السماوات والأرض، إلا بمشيئة الله، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

والأدلة على هذه المرتبة:

◈ من الكتاب: قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٤٨]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٨٥).

◈ ومن السنة: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: «**قُلُوبُ بَنِي آدَمَ كُلُّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، يُصَرِّفُهَا حَيْثُ شَاءَ**»[(١)].

وحديث ابن عباس أن رجلًا قال للنبي ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فقال: «**جَعَلْتَنِي للهِ عَدْلًا! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(٢)].

◈ وإجماع السلف منعقد على ذلك[(٣)].

وقد نبَّه هنا فيما يتعلق بالمشيئة إلى أنه سبحانه:

١/ لا يكون في ملكه ما لا يريد، والمراد بالإرادة هنا: الإرادة الكونية، **وتقدم أن الإرادة نوعانِ:**

١- شرعية دينية.

٢- كونية قدرية، وهي المرادة هنا؛ وإلا فقدْ يريد الله أمرًا إرادةً شرعيةً ولا يقع، كإرادته إيمان الكافر؛ فقد أراده شرعًا، ولكنه لم يُرِدْه كونًا وقدَرًا.

٢/ أن قدرته ﷻ محيطة بكل شيء؛ فهو قادر على إيجاد المعدوم الذي ليس بموجود، وعلى إعدام الموجود، وتغيير الأمور، فإذا أراد شيئًا قال له: كُنْ، فيكون.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).
(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٩) وحسن إسناده العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٥٨).
(٣) «شفاء العليل» (ص٤٣).

فَما مِنْ مَخْلُوقٍ في السماواتِ ولا في الأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ ﷻ لا خالِقَ غَيْرُهُ، ولا رَبَّ سِوَاهُ.

٤) **مرتبة الخلق**: وهي الإيمانُ بأن الله خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقعُ في هذا الكون شيء إلا وهو خالقه. وهذه المرتبة هي محلُّ النزاعِ الطويل بين أهل السنة ومن خالفهم؛ من المعتزلة والقدرية والجبرية، كما سيأتي[(١)].

وأدلةُ مرتبة الخلق:

◈ مِن القرآن قوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ - ٩٦]، قيل: خلَقكم والذي تعملونه، فدلت على أن أفعال العبد مخلوقة لله، وعلى أنها أفعال له حقيقة، خلافًا للجبرية الذين يقولون: إن العبد لا فِعْل له، وخلافًا للقدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا.

وقيل: إن معناها: خَلَقَكُم وعَمَلكُم، فتكون (ما) مصدريةً، قال ابن كثير بعد هذينِ القولين: وكلا القولينِ متلازم، والثاني أظهر[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرَّعد: الآية ١٦].

◈ ومن السنة: حديث حذيفة مرفوعًا: «**إِنَّ اللهَ صَنَعَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ**»[(٣)]، وحديث أبي موسى مرفوعًا: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ**

(١) وانظر للزيادة: «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٧٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٦).

(٣) «خلق أفعال العباد» (ص٤٦)، و«السنة» لابن أبي عاصم (٣٥٧).

الجَنَّةِ؟ قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[١].

ووجه الدلالة: أن فيها الاعتراف بأنه لا صانعَ غير الله، ولا رادَّ لأمره، وأن العبد لا يملك من أمره شيئًا، فمعنى الحوقلة: لا حركةَ ولا استطاعةَ ولا حِيلةَ؛ إلا بمشيئة الله، ولا حولَ في دفع شرٍّ ولا قوةَ في تحصيل خيرٍ؛ إلا بالله[٢].

وحديث البراء بن عازب رأيتُ النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب ويقول: «**واللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا، وَلَا صَلَّيْنَا**»[٣].

فهذه المراتب الأربع هي مراتب الإيمان بالقدر التي يؤمن بها أهل السنة والجماعة، ونظمها بعضهم بقوله:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ   وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

وَمَعَ ذلك: فَقَدْ أَمَرَ اللهُ العِبادَ بِطاعَتِهِ، وَطاعَةِ رُسُلِهِ، ونَهاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

ثامنًا: مما يتعلق بالقدر: لمَّا قرر المؤلف أن الله قد كتَب الأفعال على العباد وشاءها وخلقها وعلِمها؛ فقد يتبادر إلى ذهن البعض سؤال؛ وهو: كيف يأمر العبادَ بأمرٍ، وينهاهم عن معصيته، ثم يُقَدِّرُ لهم الوقوع فيها؟!

وإنما وقع هذا الخطأ مِن عدم التفريق بين الإرادة الكونية والشرعية؛ فالله سبحانه أمر عباده أمرًا وأراد لهم شرعًا أن يطيعوه، وأراد لهم قدَرًا

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).
(٢) «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٨٢).
(٣) أخرجه البخاري (٢٨٣٧)، ومسلم (١٨٠٣).

وكونًا أن يقعوا في هذا الأمر لحكمةٍ يعلمها، ولا تنافي بينهما، كما تقدم بيانه.

وهُوَ سُبْحانَهُ: يُحِبُّ المُتَّقِينَ، والمُحْسنينَ، والمُقْسِطِينَ.
ويَرْضى عَنِ الذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.
ولا يُحِبُّ الكافرِينَ، ولا يَرْضى عَنِ القَوْمِ الفاسِقِينَ، ولا يَأْمُرُ بالفَحْشاءِ، ولا يَرْضى لِعِبادِهِ الكُفْرَ، ولا يُحِبُّ الفَسادَ.

يتبع هذا أن نقول: إنه لا تعارض بين تقدير الله وقوعَ المعاصي، وبين بُغْضه لها، وفرقٌ بين أن يحب الله أمرًا، وبين أن يشاء الله وقوعه، ففرْق بين المحبة والإرادة؛ **فقد يشاء الله ما لا يحب**، كمشيئته وجودَ إبليس وجنوده، ومشيئته العامةِ لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه.

وقد يحب الله ما لا يشاء كونًا، كمحبته لإيمان الكفار والفجار، ولو شاء ذلك لوُجِدَ كُله، فلا تعارض بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يريد وقوعه ويشاؤه، وتقدم ذِكرُ نوعي الإرادة.

فإن قلت: كيف يوقِعُ أمرًا لا يرضاه ولا يحبه؟ وهل أحدٌ يُكرِهه على أن يوقِع ما لا يحبه؟

فالجواب: أن الله فاعلٌ ما شاء لا مُكرِهَ له، ولكن لا بد أن تعلم أن المراد نوعانِ:

١) **مرادٌ لذاته**: فهذا مرادٌ إرادةَ الغايات والمقاصد.

٢) **مرادٌ لغيره**: فثَمة أمورٌ لا تكون مقصودةً للمُريدِ لذاتها، ولا فيها

مصلحةٌ له بالنظر إلى ذاتها، وإنما هي وسيلة إلى مقصوده ومُرادِه، فهي مكروهةٌ له من حيث ذاتها، مُرادةٌ له من حيث إنها تفضي وتوصل إلى ما يُريد، فيجتمع فيه أمرانِ: بُغضه وإرادته، ولا يتنافيانِ؛ لاختلاف متعلقهما.

مثال ذلك: الدواء الكريه الذي فيه الشفاء بعد إرادة الله، يشربه الإنسان وهو يكرهه لذاته، لكن يفعله لأجل أنه يوصل إلى مراده، وهو الشفاء.

مثال آخر: العضو المتآكل، أو الرِّجل التي تفشَّى بها المرض، يكره قطعها لذاته، لكنه يقطعها؛ لأنه يعلم أن قطعها يوصل إلى مراده، وهو بقاء نفسه، وهكذا.

إذا تقرر هذا في حال الناس، فاعلم أن الله ﷻ قد يَكرهُ الشيءَ، ولكنه يوقعه لأجل غيره؛ لكونه سببًا لأمرٍ هو أحبُّ إليه من فوته[1].

مثال ذلك: الإيمان محبوب لله، والكفر مكروه له، فأوقع الكفرَ المكروه له لمصالح عظيمة، منها: أنه لولا وجودُ الكُفرِ ما عُرِفَ الإيمانُ، وما عَرف الناسُ قدر نعمة الله عليهم بالإيمان، ولما قام الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولولا وجود الكفر لكان خلق النار عبثًا، ولكان الناس أمة واحدة[2].

مثال آخر: خَلْقُ اللهِ إبليسَ، مع أنه مادةُ فسادِ الأديان والأعمال

(١) انظر: «مدارج السالكين»، لابن القيم (٢/ ١٩٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٣٢٨).

(٢) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٢١٧).

والاعتقادات، وسببُ شقاوة كثيرٍ من الناس، وعملِهم بما يغضب الله، ومع هذا فهو وسيلةٌ إلى محابَّ كثيرةٍ للرب ترتبت على خلقه، ووجودُها أحب إليه من عدمها(١).

فإن قيل: لماذا مَنَّ اللهُ على المؤمنين بالهداية دون الكافرين؟

فالجواب من وجهين:

١- أن الزعم بأن توفيق الله المؤمنين للهداية دون الكفار ظلمٌ منه، باطلٌ **لأمرين**:

١/ أن هذا تفضُّلٌ منه، والمِنَّةُ كلها له سبحانه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٧]، فتخصيص هذا بالإيمان كتخصيص هذا

---

(١) ذكر ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٩٣) بعض الحكم من خلق الله لإبليس، **ومنها**:

١- أنها تُظهِرُ للعبادِ قدرة الله على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرُّها، وخلق ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأطهرها، كما خلق الليل والنهار، والموت والحياة، والخير والشر.

٢- ظهور آثار أسمائه القهرية: كالقهار، والمنتقم، والشديد العقاب، وذي البطش الشديد، وغيرها، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال لا بد لها من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس كلهم على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

٣- ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه، وعفوه، ومغفرته، وستره، وتجاوزه، وعتقه لما يشاء من عبيده، وفي الحديث: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**» أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

٤- حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، وهي عبودية الجهاد، فلو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطَّل الجهاد وتوابعه من الموالاة لله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، ومخالفة الهوى، وغير ذلك من الحكم. انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٣٩٠ - ٣٩١).

بمزيد قوة وعِلم وصحة وجمال ومال، والله تفضَّلَ على عباده بنِعَم لا تُحصى، ولو عبدوه طول أعمارهم ما كافأ ذلك جزءًا يسيرًا من نعمه وأفضاله، فإذا تفضل على بعض عباده بالهداية، كان ذلك له سبحانه، ولا يُعَدُّ ظلمًا.

٢/ أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والله تعالى إنما يضع العقوبة في محلها، فإذا بيَّن الهدى للناس جميعًا، وأقام الحجة عليهم، وأقدرهم على الإيمان وعدمه، كان كل ذلك محضَ العدلِ منه، فحين يمنُّ على البعض بالهداية دون بعض لا يكون ظلمًا.

٢- أن الله قد قامت حجته؛ وذلك لأنه خلَّى بين عباده وبين الهداية، فأرسل لهم الرسل ليردوهم إلى الصراط المستقيم، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرًا أو باطنًا، ولم يَحُلْ بينهم وبين الأسباب الموصلة للهداية، ولم يمنعهم من الهداية، وحين تكون الحجة قائمةً عليهم لا يبقى لمعترض اعتراض على توفيق الله لبعض عباده بالهدى والتوفيق.

فإن قيل: ما الفائدة من التكليف مع سبق الأقدار؟

فالجواب من وجوه:

١) أن هذا سؤالٌ فاسد؛ لأن معناه إنكار أن يكون لله أيُّ حكمة في خلق السماوات والأرض والبشر؛ لأن العلم السابق كان في ثبوت هذه الحكم، وهذا من أبطل الباطل.

٢) أن إقامة الحجة على العباد لا يمكن أن تتم إلا بعد إيجادهم، وتبيين طريق الهدى لهم؛ بإرسال الرسل وإنزال الكتاب، حتى يعرفوا

طريق الخير والشر، فيختاروا أحد الطريقين، ثم ينالوا جزاءهم، ولو لم يقعِ الابتلاء في الدنيا، ثم عُوقبوا في الآخرة لاحتجُّوا على الله[(١)].

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً.

تاسعًا: قرر المؤلف فيما يتعلق بالقدر أن العبدَ هو المباشر لفعله حقيقةً، وهو الذي عمله، وفي نفس الوقت فالله هو الذي خلق العبد وخلق فعله.

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصَّافات: الآية ٩٦]، فدلت الآية على أن أفعال العباد مخلوقةٌ لله، وعلى أنها أفعالُ العبدِ حقيقةً.

فإن قلت: كيف أوفِّق بين كون الأعمال داخلةً في قدر الله تحت مشيئته وهو خَلَقها، وبين كونها مِن فعل العبد؟

فالجواب أن يقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ **فيقال:** هي بقدرة العبد وإرادته، وهذا يعترف به كل أحد.

فيقال أيضًا: مَن الذي خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم؟

فالجواب الذي يعترف به كل امرئٍ: أن الذي خلق إرادتهم وقدرتهم هو الله؛ فهو الذي خلق ما به تقع الأفعال، فهو الخالق للأفعال ﷻ.

(١) انظر: «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٤٤١).

ومع ذلك: فهو سبحانه أمدَّ المؤمنين بأسبابٍ، وألطاف، وإعاناتٍ متنوعة، وصرف عنهم الموانع، كما قال ﷺ: «**وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ**»[(١)]، ووكل الفاسقين إلى أنفسهم، ولم يُعِنْهُم؛ لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يتوكلوا عليه، فولَّاهم ما تولوه لأنفسهم[(٢)].

والعِبادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِم.
والعَبْدُ: هُوَ المُؤْمِنُ والكافِرُ، والبَرُّ وَالفاجِرُ، والمُصَلِّي والصَّائِمُ.

عاشرًا: حينما يفعل العبدُ أيَّ فعلٍ من صلاةٍ أو صيام أو زكاةٍ، أو برٍّ أو فجورٍ، أو إسلام أو كفرٍ؛ فإن هذا الفعل يُنسَب إليه لا لغَيره؛ إذ إنه فاعله، فيقال مثلًا: هذا مصلٍّ، أو صائمٌ، أو فاجرٌ، أو غير ذلك، وهذا يدل على أن العبد هو الذي فعله، وهذا ردٌّ على الجبرية.

والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها: قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٣]، ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ٢٢ - ٢٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [النِّساء: الآية ٥٦]، ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤]، إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على نسبة أفعال العبد إليه، فهو الصائم المصلي، وهل يليق بالله أن يعاقبهم على نفس فعله؟! بل يعاقبهم على أفعالهم التي فعلوها حقيقة ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزُّخرُف: الآية ٧٦].

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).
(٢) «التنبيهات اللطيفة»، للسعدي (ص٩٩ - ١٠٠).

ولِلْعِبادِ قُدْرَةٌ على أَعْمالِهِمْ، ولَهُمْ إرادَةٌ.

هذا ردٌّ على الجبرية الذين ينفون الإرادة والقدرة.

واللَّهُ خالِقُهُمْ وخالِقُ قُدْرَتِهِمْ وإرادَتِهِمْ.

هذا ردٌّ على القدرية الذين يقولون بأن الله ليس خالقًا لفعلهم، ويأتي توضيح مذهبهم بإذن الله.

كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

استدل المؤلفُ في الردِّ على الطائفتين بهذه الآية:

فقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التَّكوير: الآية ٢٨]: أثبتت للعباد مشيئة، خلافًا للجبرية.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التَّكوير: الآية ٢٩]: علَّق الله مشيئة العباد بمشيئته سبحانه، وربطها بها، خلافًا للقدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل دون مشيئة الله.

وهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِها عامَّةُ القَدَرِيَّةِ الذينَ سَمَّاهُمُ السَّلَفُ: «مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ».

الحادية عشرة: بيَّن الشيخُ أن هذه الدرجةَ مِن القدر، والمتضمنةَ

لمرتبتي المشيئة والخلق، وبيانِ عموم مشيئة الله لكل شيء، وعمومِ خلقه لكل شيء؛ **ضلَّ فيها طائفتان**:

١) **القدرية**: وقال: «عامَّة القدرية» وقصد بهم أكثر القدرية، فهمْ يقولون بنفي القدر عن الله، ويقولون: أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما العباد هم الخالقون لها استقلالًا، بدون مشيئة الله وإرادته، فهمْ يغلون في النفي[١].

وهذا يقول به المعتزلة؛ بناءً على أحد أصولهم، وهو (العدل)؛ لأنهم يقولون: كيف يخلق اللهُ الأفعالَ فيهم، ثم يعاقبهم على ما خلق فيهم؟! فاضْطُروا إلى القول بأن العبد يَخلُق فِعلَ نفسِه، ولا يقدِرُ الله منه على شيء[٢].

- وإنما سُمُّوا قدريةً؛ لأنهم ينكرون القدر[٣].

---

(١) انظر: «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٣٠٥).

(٢) انظر: «شرح الواسطية»، للجبرين (٢/ ١٦٨).

(٣) ورد في ذمهم عدة أحاديث في السنن وغيرها، وهي وإن كانت لا تخلو من مقال، إلا أن بعضها يصل إلى درجة الحسن، وبعضها يقوِّي بعضًا، **فمنها**:
حديث ابن عمر مرفوعًا: «**القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**» أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، وأحمد (٦٠٧٧)، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).
وحديث عمر مرفوعًا: «**لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ القَدَرِ، وَلَا تُفَاتِحُوهُمْ**»، أخرجه أبو داود (٤٧١٠)، وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٩٧٤١).
وهذه الأحاديث قال بعض العلماء عنها: أحاديث القدرية المرفوعة كلها ضعيفة، وإنما يصح منها الموقوف. انظر: «القضاء والقدر»، للمحمود (ص١٥٠)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٤١٧)، «التنبيهات السنية» (ص٢٦٠).

- وسموا مجوس الأمة؛ لمشابهتهم المجوس؛ فإن المجوس يثبتون خالقَيْن: خالق الخير، وهو إله النور، وخالق الشر، وهو إله الظلمة، وكذلك القدرية يقولون: الحوادثُ نوعانِ: حوادثُ من فعل الله، فهذه خلق الله، وحوادثُ مِن فعل العباد، فهذه للعباد استقلالًا، وليس لله فيها خلق. وهذا الوصف لم يثبت عن النبي ﷺ، وإنما عن الصحابة؛ لتأخر ظهورهم[(١)].

ويَغْلُو فيها قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإثباتِ، حتى يَسْلُبوا العَبْدَ قَدْرَتَهُ واختِيارَهُ.

٢) **الجبرية:** وقد غلوا في إثبات القدر، حتى قالوا: ليس للعبد قدرة واختيار، ونفوا أفعال العباد، وزعموا أنهم لا يفعلون شيئًا البتَّة، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال حقيقةً، فهي نفسُ فعلِه لا أفعالهم، وأفعالُ العباد هي بمنزلة حركة الجمادات لا قُدرةَ لهم عليها، وبمنزلة حركة المرتعش لا قدرة عليها، **وهاهنا أمور:**

١- **سُموا بالجبرية:** نسبة إلى الجبر، ومعناه: نفي الفعل عن العبد وإضافته للرب، أي: أن الله يجبر العباد على أعمالهم، والعباد مجبورون على أفعالهم ليس لهم دورٌ فيها، وإنما تُضاف الأعمال إليهم على جهة المجاز فقط[(٢)].

---

(١) انظر: «شرح الواسطية»، للفوزان (ص١٦٠).
(٢) انظر: «القضاء والقدر»، للمحمود (ص١٩٩ - ٢٠٠).

٢- أول من قال بالجبر: الجعد بن درهم، وأخذ عنه الجهم بن صفوان(١)، ثم صار الجبر عقيدةً عند الجهمية.

فائدة: الجهمية والمعتزلة يتفقون في باب الصفات؛ فكلهم ينفيها، أما في باب القدر فالمعتزلة يُسمون قدريةً، والجهمية يُسمون جبريةً(٢).

٣- للجبرية شُبَهٌ يطرحونها في باب القدر، وهي:

١- الآيات التي تدل على أن الله خالق كل شيء، كقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٢]، وغيرها.

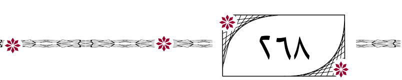
والجواب عنها: أنه لا يُنكر أن الله خالق كل شيء، ولكن ليس فيها أن العبد لا يكون قادرًا مريدًا فاعلًا بمشيئته وقدرته.

٢- الآيات التي تثبت المشيئة لله وحده، وأنه لا مشيئة للإنسان إلا تحت مشيئة الله، كقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ﴾ [القَصَص: الآية ٦٨]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التَّكوير: الآية ٢٩]، فإذا كان الله هو الذي يشاء ويريد، فهو الخالق لأفعال العباد، وهم مجبورون، لا إرادة، ولا مشيئة، ولا خلق لهم.

---

(١) **اعلم: أن الجهم له عدة آراء باطلة، أشهرها ثلاثة:**
❏ قوله بالقدر على مذهب الجبرية، وأخذ هذا عنه الجبرية.
❏ غلوه في الإرجاء؛ حيث زعم أن الإيمان مجرد المعرفة، وأخذ هذا عنه المرجئة.
❏ تعطيل صفات الله، وهو مذهب الجهمية.
فكل قول تبنَّته طائفةٌ، فنعوذ بالله أن نكون مفاتيح للشرِّ.

(٢) انظر: «القضاء والقدر» (ص٢١٢).



والجواب عنها: أن إثبات المشيئة لله حق، ولكن هذه الآيات تثبت المشيئة للعبد، وكلها واقعة وخاضعة لمشيئة الله تعالى.

٣- الآيات التي تنفي الفعل عن العبد وتثبته لله، كقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النِّساء: الآية ٧٨]، فالإنسان لا إرادةَ له ولا فِعلَ.

فيُجاب: بأن آية الرمي فيها أن الله أثبت لنبيه الرميَ والحذفَ والإلقاءَ، وأما إيصالُ ما رَمى إلى الوجوه مع البعد وإلى جميعهم فهو من فِعل الله.

وأما الآية الثانية: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾: فإن المراد بالحسنة والسيئة في الآية هي النعم والمصائب، وهذا ردٌّ على المتثاقلين عن الجهاد؛ وذلك أنهم إن تصبهم حسنة - كخِصب ورزق، وزرع وأولاد - قالوا: هذا من عند الله، أي: من قِبَله، وإن تصبهم سيئة - من قحْط وجدب، وموت الأولاد، ونحو ذلك - قالوا: هذه من عندك، يعني: من شؤمك، فقال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾[١].

ويقال لهم أيضًا:

١- إننا نفرق بالضرورة بين حركة المرتعش وحركة المُختار، ونعلم أن الثاني بالاختيار، دون الأول.

---

(١) انظر: «القضاء والقدر» للمحمود (ص١٢٨، ٣٤٧).

٢- لو لم يكن للعبد فعلٌ أصلًا لما صح تكليفه، ولا ترتب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله، ولا إسناد الأفعال التي تقتضي سابقة قصد إليه على سبيل الحقيقة، مثل: صلى، صام، كتب[(١)].

واعلم أن منشأ الخلاف بين الناس في القدر وفي الاحتجاج به: هو عدم التفريق بين الأمر الشرعي والأمر القدري، وتَوَهُّمُ التعارضِ بين الإرادة الكونية والشرعية.

وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

الله سبحانه لا يفعل أمرًا ولا يقدِّر شيئًا إلا لعلَّةٍ وحكمةٍ، عَلِمها من عَلِمَها، وجَهِلَهَا مَن جَهِلَها، فإنه سبحانه حكيمٌ؛ شَرع الأحكام لحكمة ومصلحة، فما خلق شيئًا عبثًا، ولا أوجده سُدًى، كما في الآيات المعروفة، ومنها قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥].

وأما هؤلاء الجهمية الجبرية: فيزعمون أن الله لا يفعل لحكمةٍ وعِلَّة، وإنما هو محض مشيئةٍ وإرادة مجردة عن الحكمة، ولهذا يثيب أو يعاقب العباد على ما ليس من فِعلهم، ويأمرهم بما لا يقدرون عليه، فاتهموا الله بالظلم والعبث، تعالى الله عن ذلك! وإنما أوقعهم في هذا المعتقد الفاسد أنهم بنَوه على قولهم في الأفعال: إن العبد مجبور عليها، كما تقدم بيانه وردُّه.

---

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص١٣٠)، «التنبيهات السنية» (ص٢٦٠).

واليقين عند أهل السنة بلا امتراءٍ: أن الله أحكم الحاكمين، وأنه نفى الظلم عن نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٦]، فلا يظلم ربك أحدًا، ولا يقدِّر شيئًا عبثًا.

الثاني عشر مما يتعلق بالقدر: لا بد أن يوقن المرء أن مسألة الإيمان بالقدر هي بين العبد وبين ربه، **ولذا فعليه:**

١- التسليم والاستسلام لله، في كل ما يقدِّره له، وما يأمر به وينهى عنه؛ لأن هذا من الإيمان.

٢- الطمأنينة القلبية المملوءة بالإيمان، التي تردُّ مثل هذه الوساوس، لو عُرِضت على القلب.

٣- إتقانُ العقيدة على مذهب السلف يخلص الإنسان من التخبط في مسألة القدر؛ لأنه ما ضلَّ مَن ضل في القدر إلا وتجده قد تخبط في مسائل العقيدة، خصوصًا الأسماء والصفات.

الثالث عشر: هل يصحُّ الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية؟ بأن يفعل الذنْب ثم يقول: إنه مقدرٌ علَيَّ، فما ذنبي ما دام قد كُتِبَ عليَّ؟ ويستدل لذلك بحديث آدم وموسى، وفيه أن موسى قال: «**يَا آدَمُ، خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ... فَقَالَ آدَمُ: .. أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟! فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»(١).

فالجواب: لا يصح الاحتجاج بالقدر على المعصية، وأما ما ذُكِرَ مِن شبهةٍ **فَيُجاب عنها من وجوه:**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢).

١- ما تقدم من الرد على الجبرية، مثل قول: إن الله أضاف الفعل إلى العبد وجعله كسبًا له، كما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غَافر: الآية ١٧]، وجعل له مشيئةً وإرادة، ولو لم يكن له إرادة، ومشيئة، وقدرة، واختيار؛ لم يُنسب إليه.

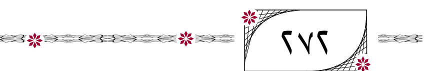
٢- أنه يلزم على الاحتجاج بالقدر لازمٌ باطل؛ وهو تعطيل الشرائع، وعلى هذا يلزم أن يكون إبليس، وفرعون، وقوم نوح، وأبو جهل، وكل مَن عذَّبه الله بسبب مخالفته أمره، معذورًا! **ويلزم كذلك**: ألا يُفَرَّق بين المؤمنين والكفار؛ فكلهم فعل بقدَرِ الله، وهذه لوازم باطلة، ولو كان القدر حُجةً للعباد لم يُعَذَّبْ أحدٌ من الخلق، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولم تُقطَع يدُ سارقٍ، ولا أقيم حدٌّ على زان، ولا جُوهِدَ في سبيل الله.

٣- أن الله ذمَّ المشركين في احتجاجهم بالقدر على شركهم، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٨]، فردَّ الله عليهم: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٨].

٤- لو جاء رجل واحتج بالقدر في أمور الدنيا والمعيشة، كالرزق والولد، فقال: إن كان الله كتب لي ولدًا فسيأتيني، ولن أتزوج ولن أطأ امرأة، أو يقول: لا أبذر البذر، فإن كان الله قدَّر إنبات أرضي نبتت، ونحو ذلك؛ لَعُدَّ هذا من أشد الجهل وأبلغ الحُمق.

٥- يقال للعاصي: ما الذي يدريك أن المعصية مقدَّرة عليك؟ لِمَ لَم تفعل الطاعة وتقول: إنها مقدرة عليَّ؟ فهذا يدل على أن لك إرادة لكن هويت المعصية[1].

(١) انظر: «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٤١٢)، «شرح لمعة الاعتقاد»، للعثيمين.



وأما الجواب عن حديث آدم وموسى:

فقيل: عدة أجوبة، لعل أصحَّها جوابانِ:

١- جواب ابن تيمية، **وخلاصته**: أن آدم لم يحتجَّ بالقدر على الذنب؛ فهو أعلم بربه وبذنْبه، وموسى كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلومه على ذنْبٍ تاب منه وتاب الله عليه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة؛ فإن القدر يُحتج به عند المصائب لا عند المعائب، وهذا أصح الأجوبة[١].

٢- جواب ابن القيم، **وخلاصته**: أن الاحتجاج بالقدر على الذنب إن كان بعد التوبة - كما فعل آدم - فلا بأس به، وإن كان حال مقارفته للذنب وإصراره عليه، فهذا ضلال، كما لو قارف رجلٌ ذنْبًا، فإذا أُنكِر عليه احتج بالقدر[٢].

الرابع عشر: فوائد وثمار الإيمان بالقدر:

١- أنه ركن من أركان الإيمان، لا يتم إلا به.

٢- أن يعرف الإنسان قدر نفسه، فلا يتكبر ولا يفخر إذا فعل الخير؛ لأن هذا بتوفيق الله أولًا، ولأنه لا يدري ماذا يكون عليه في المستقبل ثانيًا، ومن ثَمَّ: يقر الإنسان بعجزه وحاجته إلى ربه دائمًا.

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٢١).

(٢) «شفاء العليل»، لابن القيم (ص١٨)، «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٤٢٠ - ٤٢٣).

٣- يُهَوِّنُ المصائب على العبد؛ لأن المرء إذا أيقن أن ما أصابه فمِن الله، وأن الله يُقدِّر ذلك لحكمة يعلمها، فإن المصيبة تهون عليه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغَابُن: الآية ١١]، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلِّم[١].

٤- يزيل الأحقاد والحسد بين الناس، فلا يحقد أحد على غيره لأنه ناله من الرزق ما لم يَنَل؛ لأن الله هو الذي يقسم الأرزاق، وكل ذلك ابتلاء وامتحان منه لخلقه؛ إن أعطى، وإن منع.

٥- إضافة النعم إلى مُسديها؛ لأنك إذا لم تؤمن بالقدر أضفت النِّعم إلى مَن باشر الإنعام، والحقيقة أن الأصل في الإنعام هو الله، ولكن جعل المخلوق سببًا ويدًا لذلك.

٦- بالإيمان بالقدر يوكِل العبد أموره كلها إلى ربه، ويتوكل عليه، ويؤمن بما عنده سبحانه، فإذا أُصيب بضراء لجأ إلى الله في دفعها، وإذا نالته سراء لجأ إلى الله في شكره عليها[٢].

❋ ❋ ❋

(١) انظر: «السنن الكبرى للبيهقي» (٤/ ١١١)، «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢٩).
(٢) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ١٨٩)، «القضاء والقدر»، للمحمود (ص٤٤٧-٤٥٨).



فَصْلٌ

فِي الإِيمَانِ

وَمِنْ أُصُولِ الفرقةِ النَّاجيةِ:
أَنَّ الدِّينَ والإيمانَ: قَوْلٌ، وَعَمَلٌ.
قَوْلُ القَلْبِ، واللِّسانِ.
وعَمَلُ القَلْبِ، واللِّسانِ، والجَوارِحِ.

❐ هذا الفصل عقده المؤلف لبيان مذهب أهل السنة في الإيمان، وهو من المسائل الكبار التي حصل فيها خلاف بين أهل السنة وغيرهم.

وما ذكره المصنف ينتظمه عدة مسائل:

أولًا: تعريف الإيمان لغةً: قيل: هو التصديق.

بينما يرى ابنُ تيمية أن الإيمانَ ليس هو التصديق، وإنما الإيمان في اللغة: الإقرارُ والطمأنينة، ويتضمن التصديق.

وهذا أحسنُ؛ لأمرَين:

١- أن كلام الله أمرٌ وخبرٌ، فالخبر يستوجب التصديق، والأمر يستوجب الانقياد، وأما التصديقُ فإنما يَعرِضُ للخبر فقط.

٢- أن كلمة: (صدَّقت) لا تعطي معنى كلمة: (آمنت)؛ لأن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت)[١].

شرعًا: عرَّفه المؤلف بقوله: **(قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح)**.

قول القلب: هو العقائد التي يعترف بها القلب ويعتقدها، كاعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وملائكته.

وقول اللسان: النطق، والتكلم بكلمة الإسلام.

وعمل اللسان: كقراءة القرآن، وذكر الله، والثناء على الله.

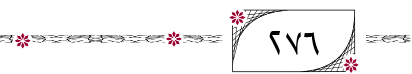
وعمل الجوارح: كالصلاة، والحج، والجهاد وغيرها.

وعمل القلب: هو حركته التي يحبها الله ورسوله، كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والانقياد، والخوف منه سبحانه، والرجاء، والصبر، ونحو ذلك من أعمال القلوب، وهذه الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح وأقوال اللسان.

وهذا هو الفرق بين قول القلب وعمل القلب: أن قولَ القلب هو اعتقادُه، وعملَ القلب حركتُه التي يحبها الله ورسوله، **وضابطها**: محبة الخير، وإرادته الجازمة، وكراهية الشر، والعزم على تركه، وينشأ عنها أعمال الجوارح[٢].

(١) انظر: «الصارم المسلول»، لابن تيمية (ص٥١٩)، «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٢٢٩).

(٢) «التنبيهات اللطيفة»، للسعدي (ص١٠٩).



فعملُ القلبِ: أعمالُ القلوب المعروفة، **وقولُ القلبِ**: اعتقاداته.

فتلخص أن **الإيمان**: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالأركان.

وعلى هذا فالأعمال داخلة في مسمى الإيمان، والدليل على ذلك من الكتاب والسنة والإجماع.

◈ أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: الآية ١٤٣].

فسمى اللهُ الصلاةَ إيمانًا، وهذا في قصة من مات قبل تحويل القبلة، وبوَّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»: بابٌ: الصلاة من الإيمان، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] يعني: صلاتكم عند البيت(١).

وقال الإمام أحمد: جعل صلاتهم إيمانًا، فالصلاة من الإيمان(٢).

◈ ومن السنة: حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهُ قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(٣)، ففي هذا الحديث قولُ اللسان -وهو الشهادة- وعملُ الجوارح -وهو الإماطة- وعملُ القلبِ -وهو الحياء-.

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ١٧).

(٢) «السنة» للخلال (٣/ ٥٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

◈ وأما أقوال السلف: فقد روى اللالكائي بإسنادٍ صحيح عن البخاري، أنه قال: لقيتُ أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص[(١)].

وعليه: فالإيمان يتضمن قول القلب وعمله، وقولَ اللسان وعملَ الجوارح.

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، والمأثورُ عن الصحابة، والتابعين، وهو الذي ظلَّ عليه علماءُ المسلمين في القرن الأول والثاني؛ ولذا فإن الإمام البخاري حين حدَّث عن رحلاته في طلب الحديث قال: «كتبتُ عن ألف وثمانين رجلًا ليس فيهم إلا صاحبُ حديث، كانوا يقولون: الإيمان قول وعمل، يَزيد وينقص»[(٢)]، وهذا يدل على أن هذا هو اعتقاد العلماء في شتى الأمصار التي رحل إليها البخاري، وليست عقيدةَ بلد دون بلد.

ثانيًا: اعلم أن الناس اختلفوا في مسمى الإيمان وتعريفه اختلافًا كثيرًا[(٣)]، وأبرز الأقوال ثلاثة:

القول الأول: قول أهل السنة المتقدم، أن الإيمان: قول، وعمل، واعتقاد.

القول الثاني: قول الجهمية: أن الإيمان هو المعرفة بالقلب، فإذا

(١) انظر: «شرح أصول الاعتقاد» (٣٢٠).
(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي (١٢/ ٣٩٣)، و«هدي الساري»، لابن حجر (ص٤٧٩).
(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٠٥).

عرَف العبدُ ربه بقلبه فهو مؤمن، ولو لم يعمل شيئًا من أعمال الإيمان، وهؤلاء يسمَّون مرجئة الجهمية، ونشأ هذا القول في أول القرن الثاني.

ويلزم على قولهم: أن إيمان إبليس كإيمان أبي بكر، فهذا يقول: (يا رب)، وهذا يقول: (يا رب)، ولازم قولهم: أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين؛ فإنهم عرَفوا صدق موسى وهارون، لكن لم يؤمنوا بهما؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: الآية ١٤].

وهذا القول هو أخبث الأقوال وأفسدها؛ ولذا فإن العلماء كفَّروا الجهمية، وكثير منهم أخرجهم من طوائف الإسلام.

فمِمَّن كفرهم: وكيع بن الجراح(١)، والإمام أحمد(٢)، وغيرهما(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قول جهم في الإيمان قول خارج عن إجماع المسلمين قبله، بل السلف كفَّروا من يقول بقول جهم في الإيمان»(٤).

وقال الإمام أحمدُ في الردِّ على جهم: «يلزمه أن يقول: إذا أقرَّ، ثم شدَّ الزُّنَّار في وسطه، وصلى للصليب، وأتى الكنائس والبِيَع، وعمل عمل أهل الكتاب كله، إلا أنه في ذلك يقرُّ بالله؛ فيلزمه أن يكون عنده مؤمنًا، وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم»(٥)، قال ابن تيمية: «وهذا

(١) «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (٩٣٥).
(٢) «السنة» للخلال (٩٠٠).
(٣) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٣٠٢).
(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٤١).
(٥) «السنة» للخلال (٤/ ٢٦).

الإلزام لا محيد عنه»[(١)].

القول الثالث: قول المرجئة، وهم طائفتان:

الأولى: يقولون: الإيمان هو تصديق القلب فقط، وقال به الماتُريدية.

والمراد بقولهم: التصديق، أي: بالقلب، فيدخل في ذلك المعرفة والإقرار، ويدخل في ذلك أعمال القلوب، كالمحبة، والرجاء وغيرهما.

قال شيخ الإسلام: والمقصود هنا أن عامة فرق الأمة تُدخِلُ ما هو من أعمال القلوب، حتى عامة فرق المرجئة تقول بذلك[(٢)].

ومن هنا تعرف الفرق بين هؤلاء وبين الجهمية: أن الجهمية لا يُدخِلون أعمال القلب، كالمحبة، والإخلاص، والتوكل، والرجاء وغيرها، بل هو مجرد المعرفة والتصديق، وأما المرجئة: فيدخلون أعمال القلب في الإيمان[(٣)].

وأطال شيخُ الإسلام الكلام في بيان أن جماهير المرجئة، على أن عمل القلب داخل في الإيمان[(٤)(٥)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٠١).

(٢) «الإيمان الأوسط» (ص٨٥)، و«مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩٥).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٤٣)، (٧/ ٥٥٥).

(٥) **ما هي شبهة المرجئة؟**

لا بُد أن تعلم أن منشأ الخلاف بين أهل السنة وبين المرجئة هو في مسألة الأعمال، ودخولها في الإيمان. =

وأهل السنة يقررون بأن الأعمال داخلةٌ في مسمى الإيمان، وأنه قد يجتمع في الإنسان طاعةٌ ومعصية، وإيمانٌ وكفرٌ أصغر، وإسلامٌ ونفاق عملي، وأن الإيمان يتبعض، وليس جزءًا واحدًا، فيكون مع الرجل بعض الإيمان لا كله، ويثبت له من حكم أهل الإيمان وثوابهم، بحسب ما معه، كما يثبت له من العقاب بحسب ما عليه[١].

ومن الأدلة على ذلك:

١/ أنه وردت آياتٌ كثيرة تدل على أن العمل لا ينفك عن الإيمان الباطن، وأن العمل الصالح هو مناطُ النجاةِ في الدنيا والآخرة، **ومن ذلك:**

١- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيِّنة: الآية ٥].

وهذه الآية احتج بها الشافعي والحميدي والإمام أحمد، وقبلهم عطاء ابن أبي رباح، على دخول الأعمال في الدين والإيمان[٢].

= **فالمرجئة**: يرَون أن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان، وأن الإيمان لا يتجزأ، بل إذا زال جزءٌ منه زال كلُّه، وأنه لا يمكن أن يجتمع في الإنسان إيمان وكفر، وإسلام ونفاق، وطاعة ومعصية، بل إذا وُجِدَ أحدُهما زال الآخر؛ لأن الإيمان شيء واحد، والأعمالُ دليلٌ أو ثمرةٌ للإيمان، أو من مقتضى الإيمان.

قال شيخ الإسلام: «والأصل الذي أوقعهم في هذا: هو اعتقادهم أنه لا يجتمع في الإنسان بعض الإيمان وبعض الكفر، أو ما هو إيمان وما هو كفر» «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٠٤).

فعندهم إما مؤمن محض، وإما كافر محض، وهذا قول فاسد.

(١) انظر: «العقيدة الأصفهانية» (ص١٨٣)، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (١٣٥١).

(٢) انظر كلام عطاء في «السنة» للخلال (٣/ ٥٨٦) و(٤/ ٢٩)، و«السنة» لعبد الله =

٢- قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧].

٣- قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبَة: الآية ٥]، ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١١ - ١٢]، فجعل إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من الإيمان بالله، وترْك الشرك شرطًا في تخلية السبيل، وعصمة الدم، واستحقاق الأُخوة من المؤمنين، وبهذه الآية استدل أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وردَّ على المرجئة، وهو ممن أدرك ظهورهم[١].

٢/ أحاديثُ تدل على أنه قد يجتمع بالإنسان إيمان ونفاق أصغر،

= ابن أحمد (١/ ٣٨٢).
قال الشافعي للحميدي: ما يُحتَجُّ عليهم - أي: أهلُ الإرجاء - بآيةٍ أحجّ من قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ [التوبَة: الآية ٣١]. «آداب الشافعي ومناقبه» (ص١٤٦).
قال الإمام الآجري: «فالأعمال بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدِّق الإيمان بعمله، مثل الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد وأشباه هذا، ورضي لنفسه بالمعرفة والقول دون العمل - لم يكن مؤمنًا، ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيبًا منه لإيمانه، وكان العمل بما ذكرنا تصديقًا منه لإيمانه، فاعلم ذلك، هذا مذهب علماء المسلمين قديمًا وحديثًا، فمن قال غير هذا فهو مرجئ خبيث، احذره على دينك، والدليل قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟﴾ [التوبَة: الآية ٣١]». «أخلاق العلماء» للآجري (ص١٠٨).

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٣٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١١٢).

وبعض شُعب الإيمان مع شعب الكفر العملي، ومنها: ما في «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»(١)، فأخبر أن الإيمان يتبعض، وأن بعضه يزول، ويبقى بعضه.

وحديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا**»(٢)، وحديث: «**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(٣)، وحديث: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»(٤)، وغيرها كثيرٌ.

٣/ وردت أحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على أن الإيمان والدينَ يدخل فيه العمل، ومنها حديث جبريل المشهور(٥).

ووجه الاستدلال منه: أنه أتى بأركان العمل الظاهر - وهو الإسلام - وأركان العمل الباطن - وهو الإيمان - فإذا فعل أركان الإسلام فهو مسلم، وإذا فعل الأركان الباطنة فهو مؤمنٌ، فلو أنه ترك أركان الإيمان كان كافرًا بالاتفاق، فكذلك إذا ترك أركان الإسلام لا يكون مسلمًا(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).
(٣) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).
(٥) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).
(٦) **فائدة**: **اعلم أن أصل النزاع**: هو مسألة دخول الأعمال في مسمى الإيمان.
ولكي يحرر محل النزاع في المسألة أقول: تعلُّق العمل بالإيمان منحصرٌ في أربع حالات لا خامس لها - علمًا أن هذه قسمة نظرية، وإلا فلا وجود للقسم الرابع في الحقيقة -. =

الطائفة الثانية: مرجئة الفقهاء: وهؤلاء يقولون: الإيمانُ هو تصديق القلب، وقول اللسان، ولا يدخلون الأعمال في الإيمان، وهذا قول أبي حنيفة وأكثر أصحابه.

وينبني على قولهم: أنه لو لم يعمل شيئًا فهو مؤمن، ما دام يعتقد بقلبه ويقول بلسانه، وأما الأعمالُ فهي عندهم ثمرةٌ للإيمان، أو دليلٌ على الإيمان، أو هي مقتضى الإيمان[١].

وهؤلاء - أعني: مرجئة الفقهاء - وإن كان قولهم مبتدعًا إلا أنهم وافقوا أهل السنة في أمور:

◈ أن الله يعذِّب من يعذِّبه من أهل الكبائر بالنار، ثم يخرجهم بالشفاعة.

◈ وأنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه.

◈ وأن الأعمال المفروضة واجبة، وتاركها مستحق للعقاب والذم.

= ❐ أن يجتمع إيمان القلب وعمل الجوارح.
❐ أن ينتفيا معًا.
❐ أن توجد أعمال الجوارح مع انتفاء إيمان القلب.
❐ أن يوجد إيمان القلب مع انتفاء عمل الجوارح.
أما الحالة الأولى: فمتفق عليها أنه مؤمن.
وأما الحالة الثانية: فمتفق عليها أنه كافر.
وأما الحالة الثالثة: فمتفق عليها أنه منافق.
أما الحالة الرابعة: فهي المختلف فيها، بين المرجئة والجهمية من جهة، وبين أهل السنة من جهة.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩٥)

فهؤلاء عندهم: الإيمان تصديقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، فالتصديق بالقلب: بمعنى المعرفة والتصديق، وعمل القلب: بمعنى الخضوع والانقياد، وقول اللسان: التلفُّظ بالشهادتين أو ما يقوم مقامها[١].

ونشأت مرجئة الفقهاء في أواخر عصر الصحابة، في عهد عبد الملك ابن مروان وابن الزبير[٢]، أي: في ثمانينيات القرن الأول الهجري.

وأول من تكلم في الإيمان ونشرَ القول بالإرجاء: ذرُّ بن عبد الله، ثم تابعه حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة، ثم انتشر وتهافت فيه الناس[٣].

وقد ذكر مرجئة الفقهاء أدلةً على إخراج العمل من مسمى الإيمان، كلها ضعيفةٌ، ساق شارح «الطحاوية» منها خمسًا، ثم ردَّ عليها وبيَّن الاعتراض عليها، فراجعها إن شئت[٤].

ومِن الأدلة التي استدلوا بها كذلك، ولم يذكرها صاحب «الطحاوية»:

١-حديثُ الشفاعة في الجَهنَّميين، والشاهد منه: «**فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ**»[٥].

ووجه الاستدلال: أنه أخرج من النار قومًا بتصديقٍ مجردٍ لا عمل

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٤٧)، و«حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة»، لمحمد المصري (ص١٩٧ - ١٩٨).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٥٧)، و«منهاج السنة النبوية» (٣/ ١٤٠).
(٣) «القدرية والمرجئة»، للعقل (ص٧٧ - ٨٣).
(٤) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥١٥)، «تهذيب الطحاوية» (ص١٣٤ - ١٣٩).
(٥) أخرجه مسلم (١٨٣).

معه، فدل ذلك على أن العمل ليس ركنًا في الإيمان؛ إذ الركنُ لا يحتمل السقوط إلا بانتفاء الحقيقة، وهؤلاء حقيقة الإيمان ثابتة عندهم.

والجواب من عدة أوجه، أوجزها في النقاط الآتية:

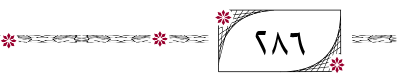
أ- أن هذا الحديثَ من الأدلة على المرجئة في زيادة الإيمان ونقصانه، وهم يؤوِّلونه ولا يأخذون به في ذلك، فمن التحكم أن يردوا أول الحديث، ويستدلوا بآخره.

قال البخاري: (باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال)(١)، وذكر حديث أبي سعيد: «**أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**»(٢)، وبوَّب عليه أيضًا: (باب زيادة الإيمان ونقصانه).

ب- أكثرُ روايات الحديث ليس فيها هذه الزيادة، بل هي مصرِّحةٌ بأن الجهنميين من أهل الصلاة، ومن العاملين، كحديث أبي هريرة: «**فيُعرَفُونَ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِن ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ**»(٣)، وكروايةٍ عند البخاري: «**إِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا الَّذِينَ كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنا**»(٤)، فثبت أن الجهنميين من أهل العمل، ومن أهل الصلاة والصيام، وأن دخولهم النار لاستحقاقهم الوعيد المرتَّب على فعل الكبائر.

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ١٣).
(٢) أخرجه البخاري (٢٢).
(٣) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).
(٤) أخرجها البخاري (٧٤٣٩).



فإن قيل: فكيف يُجاب عن رواية: «لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»؟

فالجواب: ما ذكره ابن خزيمة حيث قال: «هذه اللفظة هي من الجنس الذي تقوله العرب بنفي الاسم عن الشيء؛ لنقصه عن الكمال والتمام، فمعنى هذه اللفظة على هذا الأصل: لم يعملوا خيرًا قطُّ على التمام والكمال، لا على ما أوجب عليه وأمر به»(١).

وهذا التوجيه يشهد له حديث المسيء صلاته «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»(٢)، فنفى صلاته مع وقوعها، والمراد: نفي صحة أدائها، وبه استدل أبو عبيد في مثل هذا(٣).

٢- حديث الجارية، حين قال النبي ﷺ لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قالتْ: فِي السَّماء، قالَ: «**مَنْ أَنَا... أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»(٤)، فقد حكم النبي ﷺ لها بالقول، ولم يبحث عن العمل.

وقد أجاب العلماءُ عن هذا بأجوبة، ولعل من أحسن من تكلم فيها الإمام الخطابي، حيث قال: «هذا السؤالُ عن أمارة الإيمان وسِمَةِ أهله، وليس بسؤال عن أصل الإيمان وصفة حقيقته، ولو أن كافرًا يريد الانتقال من الكفر إلى دين الإسلام، فَوَصَفَ مِن الإيمانِ هذا القدرَ الذي تكلمتْ به الجارية؛ لم يَصِرْ به مسلمًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ويتبرأ من دينه الذي كان يعتقده.

---

(١) «التوحيد»، لابن خزيمة (٢/ ٧٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧).
(٣) «الإيمان» لأبي عبيد (ص٨٣).
(٤) أخرجه مسلم (٥٣٧).

وإنما هذا كرجل وامرأة يوجَدانِ في بيتٍ، فيقال للرجل: مَن هذه منك؟ فيقول: زوجتي، وتُصَدِّقه المرأة، فإنا نصدقهما في قولهما، ولا نكشف عن أمرهما، ولا نطالبهما بشرائط عقد الزوجية، حتى إذا جاءانا وهما أجنبيانِ يريدانِ ابتداء عقد النكاح بينهما، فإنا نطالبهما حينئذٍ بشرائط عقدِ الزوجية من إحضار الولي والشهود وتسمية المهر.

كذلك الكافر إذا عُرِض عليه الإسلام، لم يُقتصَرْ منه على أن يقول: إني مسلم، حتى يصف الإيمان بكماله وشرائطه، وإذا جاءنا من نجهل حاله بالكفر والإيمان، فقال: إني مسلم، قبِلناه، وكذلك إذا رأينا عليه أمارة المسلمين من هيئة وشارة ونحوهما حكمنا بإسلامه، إلى أن يظهر لنا منه خلاف ذلك»[(١)][(٢)].

---

(١) «معالم السنن» (١/ ٢٢٢).

(٢) النزاع بين مرجئة الفقهاء وبين أهل السنة، ذكر شارح «الطحاوية» أنه اختلاف صوري، وقال: فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءًا من الإيمان، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو في مشيئة الله؛ إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، نزاع لفظي. اهـ. «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٦٢)، وكذا (٢/ ٤٤٢).

ولكن الحقيقة **أن الخلاف حقيقي وليس صوريًّا**، ولذا قال ابن باز: وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة، وليس الخلاف بينهم وبين أهل السنة لفظيًّا، بل لفظي ومعنوي، ويترتب عليه أحكام كثيرة، يعلمها من تَدبَّر كلام أهل السنة وكلام المرجئة. «تعليقات على الطحاوية» (ص٢٢).

وكلام ابن أبي العزِّ يمكن اعتباره إذا نظرنا إلى الأحكام، وأن حكم مرتكب الكبيرة عند الله، وأنه لا يُطلَق عليه الكفر في الدنيا، ولا يُخلَّد في النار في الآخرة، بل تحت المشيئة، فكلا الطائفتين يقولون بذلك، وكذا في كون الأعمال مطلوبةً، لكن هي أجزاء من الإيمان، أو مجرد شرائع له وثمرات.

لكن يبقى أن إخراج الأعمال من مسمى الإيمان بدعة، لم يعرفها السلف.

ثم إن ذلك اتُّخِذَ ذريعةً لإرجاء الجهمية، بل أدى إلى ظهور الفسق، كما ذكر ابن =

وقوله: (وَأَنَّ الإيمانَ: يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ).

الأصل الثاني: أن الإيمان يَزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وتقدم بيان ذلك، وأن مذهب أهل السنة أن الإيمان يَزيد وينقص، فيَزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصية، **والأدلة على ذلك كثيرة، منها:**

قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفَتْح: الآية ٤]، ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢]، وحديث أبي هريرة: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَة**...»[(١)]، هذا في الزيادة.

وفي النقص حديث: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ، أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْكُنَّ**»[(٢)].

وعند المرجئة: أن الإيمان شيءٌ واحد، لا يَزيد ولا ينقص، فلو ترك العمل كله يبقى مؤمنًا؛ لأن العمل - كما تقدم - لا يدخل عندهم في الإيمان.

وعند الخوارج والمعتزلة: أن الإيمان لا يَزيد ولا ينقص، فمَن فعل كبيرةً من الذنوب فهو كافرٌ عند الخوارج، وعند المعتزلة هو في منزلة

= تيمية.
وللشيخ عبد العزيز الراجحي كلام جيد في المسألة، وأن الخلاف معنوي لا لفظي، إجابة على سؤال ضمن كتاب «أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر» (ص١٦).

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم (٧٩) من حديث ابن عمر.

بين المنزلتينِ، وهو في الآخرة مخلَّد في النار عند كلا الفريقينِ.

وتقدم الرد على كل طائفة من هؤلاء، وبيان المذهب الحق.

وإذا عرَف المسلم أن الإيمان يتفاضل، وأنه يَزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فعليه أن يتفقَّد نفسه مما ينقص إيمانه من الذنوب والمعاصي.

وقد قسَّم الله الناس إلى أقسام ثلاثة، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: الآية ٣٢]، فالظالم لنفسه: مَن أخلَّ ببعض الواجبات، وانتهك بعض المحرمات.

والمقتصد: مَن اقتصر على فعل الواجبات واجتناب المحرمات.

والسابق بالخيرات: الذي عمل الواجبات والمستحبات، واجتنب المحرمات والمكروهات، فانظر مِن أي الأقسام أنت؟!

وهُمْ مع ذلك لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعاصي والكَبائِرِ، كَما يَفْعَلُهُ «الخَوارِجُ».

الأصل الثالث: مذهب أهل السنة، بل أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم، وجميع الصحابة والتابعين: أن المسلم لا يُكفَّر بمجرد الذنب، وهو الذي أشار إليه المؤلف هنا، حيث قال: **(لا يكفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر)**.

وها هنا أمور أربعة:

١-عبَّر المصنف بقوله: **(بمطلق المعاصي...)** وهذا التعبير من

المصنف له اعتبار، فلم يقل: بالمعاصي؛ لأن من المعاصي ما يكون كفرًا، وأما «مطلق المعصية» فلا يكون كفرًا.

ولهذا انتقد بعض العلماء على الطحاوي قوله: **(ولا نكفر أحدًا بذنب ما لم يستحله)**[(١)]، وزادوا قيدًا، وهو: **(لا نكفر أحدًا بكل ذنب...)**[(٢)].

٢- قول المصنف: **(أهل القبلة)**: يريد بهم من يصلي ويستقبل الكعبة ويدَّعي الإسلام، ويدخل فيهم أهل البدع والأهواء غير المكفِّرة.

٣- خالف أهلَ السنة في هذا الباب طائفتان:

١/ **الخوارج**: الذين يُكَفِّرون بمطلق الذنب، وقريب منهم المعتزلة، وسبق ما بين مذهبيهما من اختلاف يسير.

٢/ **المرجئة**: الذين يقولون: لا يكفر بأي ذنب.

وأهل السنة وسط بين هؤلاء وهؤلاء - كما سبق -.

٤- هذا الكلام من المصنف هو في المعاصي، كالزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر والصغائر، أما مباني الإسلام الأربع من الصلاة والزكاة والصوم والحج ففيها نزاع مشهور بين أهل السنة، ليس هذا مجاله[(٣)].

---

(١) «متن الطحاوية» (ص٦٠).

(٢) «شرح الطحاوية لابن أبي العزِّ» (٢/ ٤٣٤)، «شرح العقيدة الطحاوية للبراك» (ص٢١٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٠٢).

بَلِ الأُخُوَّةُ الإيمانيَّةُ ثابتةٌ مَعَ المَعاصي، كما قال سُبْحانَهُ في آيةِ القِصاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٨].

وقالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

الأصل الرابع: أن الأُخوَّة بين المؤمنين ثابتة، ولو مع المعصية؛ فالزاني أخٌ للعفيف، والسارق أخٌ للمسروق، والقاتل أخٌ للمقتول.

ثم استدل الشيخُ على ذلك بثلاث آيات:

١- آيةُ القصاص.

ووجه الاستدلال: أنه سمَّى القاتل أخًا للمقتول، مع أن القتل كبيرة من كبائر الذنوب، ومع هذا لم تَزُل الأخوة الإيمانية، ففيه دليل على أن العاصي لا يخرج من الإيمان بمجرد الذنوب والمعاصي.

٢- قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحُجرَات: الآية ٩].

ووجه الاستدلال: أنه سمى المتقاتلين مؤمنين مع وجود الاقتتال، وبهذا استدل البخاري على أنه لا يُخرَج من الإيمان بالمعصية، لا كما تقوله الخوارج والمعتزلة.

٣- قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠].

ووجه الاستدلال: كالذي قبله، حيث سمَّاهم مؤمنين مع وجود الاقتتال، فدل على أنهم لا يخرجون من الإيمان بالكبائر.

ولا يَسْلُبُونَ الفاسِقَ المِلِّيَّ اسمَ الإيمانِ بِالكُلِّيَّةِ، وَيُخَلِّدُونَهُ في النَّارِ، كَما تَقوله «المُعْتَزِلَةُ».
بَلْ الفاسِقُ يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمانِ، في مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النِّساء: الآية ٩٢].

الأصلُ الخامس: **مِن أصول أهل السنة والجماعة: أنهم لا يسلبون من الفاسقِ الإيمانَ**، وإنما يدخل في وصف الإيمان المطلَق، أي: مطلق الإيمان الذي يدخل فيه الإيمان الكامل والإيمان الناقص، ويدخل فيه الفاسق والعدل.

وأهلُ السنة متفقون على:

- أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملَّة بالكلية.
- وأنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ويدخل في الكفر.
- وأنه لا يستحق الخلود في النار مع الكافرين.
- وأن من مات على التوحيد، فلا بد له من دخول الجنة.
- وأنه لا يخرج من الدين بالمعصية، كما أنه لا يكمل الإيمان مع المعصية.

والمراد بالفاسق: مرتكب الكبيرة مع اعتقاد حرمة ذلك.

والمِلِّي: الذي على ملَّةِ الإسلام، ولم يرتكب ما يوجب كفره.

وهذا المذهبُ لأهل السنة خالفهم فيه الخوارج والمعتزلة، الذين يخلِّدون مرتكب الكبيرة في النار، أما في الدنيا فالخوارج يكفِّرونه، والمعتزلة يجعلونه في منزلة بين المنزلتَين.

وإذا تقرر هذا، فها هنا أمور:

١/ هذا الخلافُ أول خلاف حدث في الملَّة، قال ابن عبد الهادي في «مناقب ابن تيمية»: «أول خلافٍ حدث في الملَّة في الفاسق الملي، هل هو كافر أو مؤمن؟ فقالت الخوارج: إنه كافر، وقالت الجماعة: إنه مؤمن، وقالت المعتزلة: لا مؤمن، ولا كافر»[(١)].

٢/ الفسقُ قد يأتي ويُراد به الخروج من الملَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٠]، وليس هذا المراد هنا، وإنما يُراد الفسق الذي لا يخرج من الملَّة، **وهو نوعانِ:**

١) **فِسقُ اعتقادٍ**: كالاعتزال، وكثير من الرفض، والقدرية، والخوارج، ونحوهم.

٢) **فِسقُ عملٍ**: ويُراد به مَن ارتكب كبيرةً، كالزنا، واللواط، وشرب الخمر، ونحو ذلك، أو أصرَّ على صغيرة[(٢)].

❐ ثم ذكر المؤلف الأدلة على هذا الأصل من الكتاب والسنة، فقال: **(كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾** [النِّساء: الآية ٩٢]).

٣/ استدل المصنف على ما ذكر بقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

(١) «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» (ص٢٥٠).
(٢) انظر: «مدارج السالكين»، لابن القيم (١/ ٣٦٩).

مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النِّساء: الآية ٩٢].

فلو أن رجلًا أراد إعتاق رقبةٍ، فيُشترط أن تكون مؤمنةً، والمراد أصل الإيمان هنا، ولو كانت فاسقةً، فلو أعتق عبدًا فاسقًا صحَّ عتْقه باتفاق العلماء؛ لأنه يدخل في ضمن المؤمنين.

وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٢].

ساق المؤلفُ دليلين على أن الفاسقَ الملِّي لا يدخل في اسم الإيمان الكامل:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفَال: ٢].

والمراد بالمؤمنين في الآية: المؤمنون الإيمان الكامل، فهم الذين إذا ذُكِر الله وجِلَت قلوبهم، وإذا تُلِي عليهم القرآن زادهم إيمانًا، وعلى ربهم يتوكلون.

وأما من لم يتحقق فيه ذلك، فلا يدخل في المؤمنين في الآية، وعليه فالفساق لا يدخلون؛ لأن إيمانهم ناقص.



وقَوْلِ النبيِّ ﷺ: «لا يَزْني الزَّاني حِينَ يَزْني وَهُوَ مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُها وهوَ مُؤْمِنٌ، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فيها أَبْصارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُها وهو مُؤْمِنٌ»[1].

٢- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المذكور، والمنفي فيه هو كمال الإيمان وتمامه، وهو الإيمان المطلق الكامل، فلا يُطلَق على مثل أهل هذه الأعمال إلا مقيدًا بالمعصية أو الفسق، كما يأتي.

والشاهد من الحديث: أن الإيمان قد يُطلَق ويُراد به الإيمان المطلق الكامل، وقد يُراد به مطلق الإيمان.

وفي الحديث فائدة: وهي أنه دليلٌ على دخول الأعمال في مسمى الإيمان؛ فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمى الإيمان؛ لَما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيء منها؛ لأن الاسم لا ينتفي إلا بانتفاء بعض أركان المسمى وواجباته، ففيه ردٌّ على المرجئة والجهمية[2].



(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).
(٢) انظر: «التنبيهات السنية» (ص٢١٠).

ويقُولون: هُوَ مُؤْمِنٌ ناقِصُ الإيمانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإيمانِهِ فاسِقٌ بِكَبيرَتِهِ، فلا يُعْطى الاسمَ المُطْلَقَ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسمِ.

الأصلُ السادس: أن الفاسِقَ الملِّي يُطلَق عليه عند أهل السنة والجماعة: مؤمنٌ ناقص الإيمان، أو هو مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته.

وهذا جمعٌ بين النصوص التي نفت عنه الإيمان، والنصوص التي أثبتت له الإيمان، كآيةِ القصاص ونحوها.

فلا يُعطى الاسم المطلق، كما تقول المرجئة: إنه كامل الإيمان؛ لأن الإيمانَ كُلٌّ لا يتجزأ.

ولا يُسلَب مطلق الاسم، كما تقول الخوارج: إنه كافر، والمعتزلة: إنه في منزلة بين المنزلتين.

فالخلاصة: أن عندنا أمرينِ:

١) **مطلق الإيمان:** وهو أن يكون عنده أصلُ الإيمانِ الذي لا يتم الإسلام إلا به، وهو مسلم، ولو كان ناقص الإيمان.

٢) **الإيمان المطلق:** وهو الإيمان الكامل، الذي أتى بما يستطيعه من الواجبات، مع تركه لجميع المحرمات.

فالفاسق لا يُسلَب عنه اسم الإيمان على الإطلاق؛ لأنه مؤمن، ولا يثبت له الإيمان المطلق، أي: الكامل.

فائدة: والفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان ما يلي:

١-الإيمان المطلق هو الإيمان الكامل، ولا يُطلَقُ إلا عليه، ومُطلَقُ

الإيمانِ يُطلق على الناقص والكامل، وإذا ذُكِر في مقابل الإيمان المطلق فيُقصَد به الإيمان الناقص، أو من كان معه أصل الإيمان.

وعليه فمرتكب الكبيرة يُوصَف بمطلق الإيمان، لا بالإيمان المطلق.

٢-إذا انتفى مطلقُ الإيمانِ لزم من ذلك انتفاءُ الإيمانِ المطلق، دون العكس.

٣-ثبوت مطلق الإيمان لا يَستلزم ثبوت الإيمان المطلق، دون العكس.

٤-الإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها[١].



(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٢٤- ١٣٢٦).



فَصْلٌ

فِي المَوْقِفِ مِن الصَّحابَةِ رضي الله عنهم

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ:
سَلَامَةُ قُلُوبِهِم وأَلْسِنَتِهِمْ لأَصحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

❏ **من أصولِ أهل السنة وأُسسِ عقيدتهم**: سلامةُ قلوبهم من الغلِّ، والحقد، والبُغض، والعداوة لأصحاب رسول الله ﷺ، وسلامةُ ألسنتهم من كل ما لا يليق بالصحابة؛ من الطعن فيهم، واللعن، والوقيعة فيهم، بل قلوبهم ممتلئة بالحب والتعظيم للصحابة، واعتقاد فضلهم، ومعرفة سابقتهم، وألسنتهم تلهج بذكر محاسنهم، والترضِّي عنهم والاستغفار.

والصحابي: مَن لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك، ولو تخللته رِدَّةٌ.

وإنما كانت سلامة القلب واللسان واعتقادُ المحبة للصحابة من أصول أهل السنة؛ **لأمور**:

١) أنهم خيرُ القرون، كما في الحديث: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»[(١)].

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

٢) أنهم الواسطة بين رسول الله ﷺ وبين أُمته؛ فمنهم تلقت الأمة الشريعة، وهم تحمَّلوها وبلَّغوها.

٣) جهادهم مع رسول الله ﷺ، ونصرته، وما كان على أيديهم من الفتوحات العظيمة.

٤) ما كانوا عليه من الخير، والفضل، والأخلاق في أنفسهم، والنصح لإخوانهم، مما لا يدركهم فيه أحد[(١)].

وهذا الأمر عامٌّ لجميع الصحابة، وأما آل البيت فلهم ذلك، وزيادةُ فضيلة القرابة من رسول الله ﷺ، كما سيأتي.

كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: الآية ١٠].

❏ استدل المؤلف لموقف أهل السنة بهذه الآية؛ حيث ذكر الله تعالى المهاجرين أولًا، وأثنى عليهم بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: الآية ٨]، ثم ذكر الأنصار وأثنى عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: الآية ٩]، ثم أثنى على من بعدهم إلى يوم القيامة ممن اتصف بالصفات الواردة في الآية، التي قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: الآية ١٠]، فأهل السنة يدعون لأنفسهم، ولمن سبقهم من الصحابة بالمغفرة،

(١) «شرح الواسطية» للعثيمين (٢/ ٢٤٨).

ويدعون الله ألَّا يجعل في قلوبهم بُغضًا، وحسدًا، وغشًّا، وغلًّا للذين آمنوا، وهذا دليل على سلامة قلوبهم.

قال السعدي: «وهذا الدعاء الصادر ممن اتبع المهاجرين والأنصار بإحسان، يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول الله، وثنائهم عليهم؛ لأنه مَن دعا في أمر من الأمور، فهو ساعٍ في تحقيقه، مجتهد في تكميله، متضرِّع لربه أن يتم ذلك له، وأَولى مَن دخل في هذا الدعاء: الصحابة الذين سبقوا إلى الإيمان وحققوه، وحصل لهم من براهينه وطرقه ما لم يحصل لغيرهم»[(١)].

والمراد: أن أهل السنة يتبرؤون مِن كل مَن سبَّ الصحابة بلسانه، وأبغضهم بقلبه، ويرَون أن هذا ليس من فِعل المسلمين، كما تفعله الرافضة: الذين يسبون الصحابة ويكفرونهم إلا نفرًا يسيرًا، وكالنواصب: الذين يُبغضون آل البيت، ويأتي الكلام عليهم.

وقد روى جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قيل لعائشة: إن ناسًا يتناولون أصحاب النبي ﷺ حتى أبا بكر وعمر، فقالت: وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم العمل، فأحب الله ألَّا ينقطع عنهم الأجر»[(٢)].



(١) «التنبيهات اللطيفة»، للسعدي (ص١١٥).

(٢) ذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» (٨/ ٥٥٤).

وطاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ في قَوْلِهِ: «لا تَسُبُّوا أَصْحابِي فَوَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ»(١).

❐ أهل السنة يطيعون النبي ﷺ في تسليم قلوبهم وألسنتهم لأصحابه، والكفِّ عن سبِّهم؛ لنهيهم عن ذلك في قوله: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

وسبب الحديث: أنه كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء، فسبَّهُ خالد، فقال رسول الله ﷺ هذا الحديث(٢).

والسبُّ: هو القدحُ والعيب والشتم.

واعلم أن صُحبة النبي ﷺ متفاوتة؛ فمَن صحبه قديمًا أفضل ممن تأخَّر في ذلك، وإذا كان النبي ﷺ ذكر هذا التفاضل بين الصحابة لمن كان له صُحْبة - وهو خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وبيَّن له أنه لا يمكن أن يشارك من سبقه في الفضل؛ لأنه أسلم بعد الحديبية متأخرًا عنهم، فما بالك بمن ليس له صحبةٌ أصلًا؟!

وعلى هذا: فمن جاء بعدهم وأنفق ما أنفق فلن يساويهم في الفضل، ولو قلَّ إنفاقهم، وإنما كان ذلك لسابقتهم في الإسلام، وكثرةِ مناقبهم، وبركة صحبتهم للنبي ﷺ، مما لا يمكن أن يحصل عليه أحدٌ بعدهم.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).
(٢) كما في رواية مسلم.

وقد ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «لا تَسبُّوا أصحاب محمد؛ فَلَمُقام أحدهم ساعة - يعني: مع النبي ﷺ - خيرٌ من عمل أحدكم أربعين سنة»[1].

ويَقْبَلُونَ ما جاءَ بِهِ الكِتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ مِنْ فَضائِلِهِمْ ومَراتِبِهِم.

❐ بعد ما بيَّن فضل الصحابة عمومًا، بيَّن أن أهل السنة يقبلون ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم؛ فالصحابةُ ليسوا على درجةٍ واحدة، بل ورد المفاضلة بينهم، فأفضلُ الصحابةِ: أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، كما سيأتي.

وقد ذكر المؤلف عدة أصول ومسائل في التفضيل بين الصحابة فقال:

فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ - وَهُوَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ - وقاتَلَ، على مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقاتَلَ.

تفضيلُ مَن أنفق قبل الفتح وتقدُّم إسلامه على مَن جاء بعده:

فأفضلُ الصحابةِ: السابقون الأولون الذين آمنوا قبل الفتح، وقاتلوا مع النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، فهم أفضلُ ممن أنفق وآمن بعده، ولا يستوون في الأجر والثواب، كما قال الله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٢)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٥)، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٤): إسناد صحيح، رجاله ثقات.

ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحَدِيد: الآية ١٠].

وإنما كان ذلك الفضل لهم دون من بعدهم؛ لأن الإنفاق قبل الفتح والدخول في الإسلام في حال شدةٍ وضعفٍ، فلم يكن حينئذ إلا الصادقون، أما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا[(١)].

والفتح المراد في الآية قيل: هو فتح مكة، نقله ابن كثير عن الجمهور[(٢)].

والقول الثاني: أنه صلح الحديبية، وهو الذي اختاره المؤلف هنا.

والدليل: حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: «﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفَتْح: الآية ١]، قال: هو صلح الحديبية»[(٣)]، وقول البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتحُ مكةَ فتحًا، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعة الرضوان يوم الحديبية»[(٤)].

وكان صلحُ الحديبية في السنة السادسة، وتُسمَّى البيعةُ بيعةَ الرضوان، وكان عدد الصحابة الذين بايعوا أكثر من ألف وأربعمائة[(٥)].

وإنما سُمِّيَ صلحُ الحديبية فتْحًا؛ لما حصل فيه من الخير الكثير للمسلمين، الذي لا يعلمه إلا الله.

---

(١) «التنبيهات السنية» (ص٢٧٨).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٢).
(٣) أخرجه البخاري (٤١٧٢)، ومسلم (١٧٨٦).
(٤) أخرجه البخاري (٤١٥٠).
(٥) كما في حديث جابر عند البخاري (٤١٥٣)، ومسلم (١٨٥٦).

وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ.

١) تفضيل المهاجرين على الأنصار.

المهاجرون: جمع مهاجِر، والمراد بهم: الذين هاجَروا من مكة إلى المدينة.

والأنصار: قَبيلتَا الأوس والخزرج في المدينة، وسمُّوا بذلك لِما وقع منهم من مناصَرةِ رسول الله ﷺ حين هاجر إليهم.

وأهلُ السُّنةِ يعرِفون للأنصار فضْلَهم ويُحِبونهم؛ لأن النبي ﷺ قال: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**»(١)، وهم الذين ناصروا النبي ﷺ، ومنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

ولكن يُقدِّمون المهاجرين على الأنصار، **ويعتقدون أنهم أفضل منهم لأمرينِ**:

١- أن الله قد شرَّفهم وقدَّم ذكرهم، كما في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التَّوبَة: الآية ١٠٠]، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التَّوبَة: الآية ١١٧]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحَشر: الآية ٨].

٢- أنهم جمعوا بين الهجرة والنصرة، وأما الأنصار فإنهم أتَوا بالنصرة فقط، فزاد المهاجرون عليهم بأجر الهجرة.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤).

ويُؤْمِنُونَ بأَنَّ اللَّهَ تعالى قالَ لأَهلِ بَدْرٍ -وكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وبِضْعَةَ عَشَرَ-: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[١].

٢) تفضيل أهل بدر: وبدْرٌ: قريةٌ مشهورة على نحو أربعِ مراحل من المدينة، حصلت عندها غزوة بدْر، وهي أولُ معركةٍ وقع فيها القتال بين المسلمين والكفار، وهي يوم الفرقان، وكانت في السنة الثانية، في السابع عشر من رمضان، وكان عدد المسلمين: ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا.

وقد كان لمن شارك فيها من المسلمين مكانةٌ عظيمةٌ؛ فقد ورد في «الصحيحَين» في قصة حاطب بن أبي بَلْتعة، وفيه: «**إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[٢].

وقوله في الحديث: «**لَعَلَّ اللهَ**»: صرح العلماء بأن الترجي في كلام الله وكلام رسوله ﷺ للوقوع، كقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٨]، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٩]، ووقع عند أحمد، وغيره في حديث أبي هريرة بالجزم: «**إِنَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ...**»[٣][٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) الحديث السابق.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٣٤٧)، وأحمد (٧٩٤٠).

(٤) تكلم العلماء عن معنى قوله: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، وممن أطال فيها ابن القيم في «الفوائد» (ص٢٠٦)، ثم قال: الذي نظن - والله أعلم-: أن هذا خطابٌ لقوم قد عَلم الله أنهم لا يفارقون دينهم، بل يموتون على الإسلام، وأنهم قد يقارفون بعض=

وقد ورد عن رفاعة بن رافع الزرقي، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «**مَا تعدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ فَقَالَ: مِنْ أَفْضَلِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: وَكَذَلِك مَنْ شَهِدَ بَدرًا مِنَ المَلَائِكَةِ**»[(١)].

وبِأَنَّهُ: «لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»، كَما أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.
بَلْ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عنهُ، وكانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ.

٣) **تفضيلُ أصحابِ بيعة الرضوان:** بيعة الرضوان: هي التي تُسمَّى بيعة الشجرة، وأهلها من أفضل الصحابة، كما في حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا: كنا في الحديبية ألفًا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله: «**أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ**»[(٢)].

ويدل على فضيلة أهلها ما ورد في حديث كعب بن مالك: «ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أُحِبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها»[(٣)].

= ما يقارفه غيرهم من الذنوب، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرِّين عليه، بل يوفِّقهم لتوبة نصوح، واستغفار، وحسناتٍ تمحو ذلك، ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم؛ لأنه قد تحقق ذلك فيهم، وأنهم مغفور لهم، ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقدم بهم، كما لا يقتضي أن يعطلوا الفرائض وقوعًا بالمغفرة، فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر؛ لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة، ولا حج، ولا زكاة، ولا جهاد، وهذا محال. ا.هـ.

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٩)، ومسلم (٢٧٦٩).

وذكر المؤلف لهم مزيتين:

١- أنهم لا يدخلون النار؛ لما في حديث جابر مرفوعًا: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»[١].

٢- أن الله رضي عنهم ورضوا عنه، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨]؛ ولذا سُمِّيت بيعة الرضوان.

واختُلِفَ في عدد أصحاب بيعة الرضوان: فورد أنهم (١٤٠٠)، وورد أنهم (١٥٠٠)[٢]، ويُجمَع بين الروايات: بأن من قال: (١٥٠٠) جَبَر الكسر، ومَن قال: (١٤٠٠) ألغاه، ولهذا فَهُمْ ما بين الأربعمائة، والخمسمائة والألف.

أو يقال بأن التقدير للعدد باعتبار ما يقدِّره كل واحدٍ من الرواة، والتفاوت وارد، والفرق يسير.

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، كَالْعَشَرَةِ.

٥) تفضيل العشرة المبشَّرين بالجنة:

من أصول أهل السنة: أنهم يشهدون بالجنة لمن شهد لهم النبي ﷺ بذلك كالعشرة، وهم الذين وردوا في حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أشهد

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠) وقال: حسن صحيح، وأحمد (١٤٧٧٨).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٣٥٧٦) (٤١٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٨٥٦).

على رسول الله أني سمعته يقول: «**أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الجَنَّةِ** (هو ابن أبي وقاص)، **وَعَبْدُ الرحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ**»، ولو شئتُ لسميتُ العاشر، فقالوا: من هو؟ فسكت، قالوا: من هو؟ فقال: «**سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ**»[1].

وهم الخلفاء الأربعة، والستة الباقون يجمعهم هذا البيت:

سَعيدٌ وَسَعْدٌ وابْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةٌ ... وَعَامِرُ فِهْرٍ وَالزُّبَيْرُ المُمَدَّحُ

وهؤلاء العشرة قد ثبت لكل واحد منهم من الفضائل الخاصة به ما لا يتسع المقام لبسطه، وقد اتفق أهل السنة على تعظيمهم وتقديمهم؛ لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم، خلافًا للروافض.

والعجبُ: أن الروافض يكرهون التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون عشرة؛ لكونهم يُبغِضون خيار الصحابة، وهم هؤلاء العشرة، ما عدا عليًّا[2].

وكَثابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ.

ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطيب رسول الله ﷺ، وقد شهد النبي ﷺ له بالجنة، كما في الحديث عند البخاري حينما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٥٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١٣٣).

(٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٧٤٢).

﴿تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحُجرات: الآية ٢]، ظن أنه المقصود؛ فاختفى في بيته يبكي، ففقَده النبي ﷺ فأرسل إليه رجلًا، فأخبره الخبر، فقال النبي ﷺ له: «**اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(١)، وفي زيادة عن أنس: «فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجلٌ من أهل الجنة»(٢).

وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ.

أي: كذلك غيرهم من الصحابة، ممن شهد النبي ﷺ له بالجنة، ومنهم:

١- عبد الله بن سَلَام رضي الله عنه، فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة(٣).

٢- الحسن والحسين رضي الله عنهما سيِّدا شباب أهل الجنة(٤).

٣- بلال رضي الله عنه، فقد أخبر النبي ﷺ أنه سمع دَفَّ نعليه في الجنة(٥).

٤- عكاشة بن محصن رضي الله عنه(٦).

٥- أمهات المؤمنين في الجنة(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٣) واللفظ له، ومسلم (١١٩).
(٢)أخرجه مسلم (١١٩).
(٣) أخرجه البخاري (٣٨١٢)، ومسلم (٢٤٨٣).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٦٨) وقال: حسن صحيح، وأحمد (١٠٩٩٩).
(٥) أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨).
(٦) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).
(٧) قال ابن كثير: أجمع العلماء قاطبة على أن من تُوفِّي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه: =

وألحق بعض العلماء - كشيخ الإسلام - بهؤلاء مَن اتفقت الأمة على الثناء عليهم[(١)]، كالحسن البصري، والإمام أحمد، وابن المسيب، ونحوهم، وقد ورد في «الصحيحين» في الحديث المشهور: مرُّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: «**وَجَبَتْ... مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُم عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»[(٢)].

ويُقِرُّونَ بِما تَواتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَميرِ المُؤْمِنينَ عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّها أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويُثَلِّثُونَ بِعُثْمانَ، ويُرَبِّعُونَ بِعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ كَما دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثارُ.

❑ أهلُ السنةِ يُقِرُّونَ ويعترفون بما تواتر به النقل عن علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة؛ أن أفضل هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

وهذا الأمرُ متفقٌ عليه بين أئمة أهل السنة، المشهورين بالإمامة في العلم والدين، من الصحابة والتابعين.

قال شيخ الإسلام: «وقد روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من نحو ثمانين وجهًا أو أكثر، أنه قال على منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر،

= أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين. «التفسير» (٦/ ٤٥٥).

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

وعمر»[١].

وقال أيضًا: «ولا ريب أن عليًّا لا يقطع بذلك إلا عن علم»[٢].

وقد روى الترمذي عن أنس، أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «**هَذَانِ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، إِلَّا الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ**»[٣].

وكلام الأئمة في ذلك، وثناؤهم عليهم يطول ذكره.

فكيف يأتي جاهل مبطِل بعد ذلك، ويزعم أن عليًّا أفضل من أبي بكر وعمر؟! إن هذا لمن أعظم البهتان، وقد قال الإمام السمعاني: «أجمع علماء السنة أن أبا بكر أعلم من علي»[٤].

وقال الإمام أحمد: «من فضَّلَ عليًّا على أبي بكر وعمر، وقدَّمه عليهما في الفضيلة والإمامة دون النسب؛ فهو رافضي مبتدع فاسق»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٠٧).
(٢) «منهاج السنة النبوية» (٧/ ٣٨٥).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٦٤)، وقال: حسن غريب، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٩).
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٩٨، ٣٩٩).
(٥) انظر: «لوامع الأنوار البهية».

وكَما أَجْمَعَتِ الصَّحابةُ على تَقْدِيم عُثْمانَ في البَيْعَةِ.
مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا في عُثْمانَ وعليٍّ ﵄ - بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ على تقديمِ أَبي بَكْرٍ وَعُمَرَ - أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟

۞ **هاتان مسألتانِ:**

١) مسألة الخلافة. ٢) مسألة الأفضلية.

فأما مسألة الخلافة: فقد أجمع أهل السنة والجماعة أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي ﵃، قال الإمام أحمد: «ما اجتمعوا على بيعةٍ ما اجتمعوا على بيعة عثمان»[1].

وأما مسألة التفضيل: فقد أجمعوا أن أبا بكر أفضل الأمة، ثم عمَر، واختلفوا في علي وعثمان أيهما أفضل؟ **وذكر الشيخ في المسألة أقوالًا؛ فقال:**

فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمانَ وَسَكَتُوا.
أَو رَبَّعُوا بِعَليٍّ.
وقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًا.
وقَوْمٌ تَوَقَّفُوا.
لكن اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهلِ السُّنَّةِ على تَقْدِيمِ عُثْمَانَ ثُمَّ عليٍّ.

◈ تقديم أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٦/ ١٥٤).

◆ تقديم أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم سكتوا.

◆ تقديم أبي بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم عثمان.

◆ تقديم أبي بكر، ثم عمر، ثم توقفوا.

والرأي الذي استقر عليه أهل السنة هو الرأي الأول، وهو تقديم عثمان على عليٍّ رضي الله عنهما؛ لأمرين:

١- أن هذا هو الذي دلَّت عليه الآثار الواردة في مناقب عثمان، ومن ذلك ما في الصحيح عن ابن عمر: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنهم»(١)، وفي لفظ: «يبلغُ ذلك النبيَّ ﷺ فلا يُنكِره»(٢)، وقال ابن عوف لعليٍّ في بيعة عثمان: «إني نظرتُ أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان»(٣).

٢- إجماع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، وما ذاك إلا لأنه أفضل، وقد قال أيوب السختياني: «من قدَّم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار»(٤)؛ لأنهم قدَّموه في البيعة.

وإِنْ كانَتْ هَذِهِ المَسْأَلَةُ - مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ - لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ التي يُضَلَّلُ المُخالِفُ فيها عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

من فضَّلَ عليًّا على عثمان فإنه لا يُعَدُّ من أهل البدعة، ولا يُحكَم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٥).
(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٨٥٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٩٣).
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٠٧).
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣/ ٣٥٧).

بضلاله؛ لأن التبديع يكون في مسائل الأصول المتفق عليها، وهذه المسألة اجتهادية. فالخلاف فيها موجود حتى بين أهل السنة، لكن تَقَدَّم الراجح فيها[(١)].

لَكِنَّ المسألةَ التي يُضَلَّلُ المُخالِفُ فيها: مَسْأَلَةُ الخِلافَةِ.
وذَلِك أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثمانُ، ثُمَّ عَليٌّ رَضِيَ اللهُ عنهُمْ أَجمَعينَ.
ومَنْ طَعَنَ في خِلافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ الأئمةِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمارِ أَهْلِهِ.

الذي يُضلَّلُ ويُنكَر عليه ويُبَدَّعُ، مَن خالف في مسألة الخلافة، بأن قدَّم عليًّا على غيره، أو شك في خلافة أحدٍ منهم.

قال الإمام أحمد: «من لم يُثبِت الإمامة لعلي فهو أضل مِن حمار أهله»[(٢)].

فالخلاصة: في تقديم علي رضي الله عنه على غيره من الثلاثة أنها حالات:

١- تقديمه في الخلافة: فهذا ضلالٌ بالاتفاق.

٢- تقديمه في الفضيلة على أبي بكر وعمر: فهذا ضلال بالاتفاق.

٣- تقديمه في الفضيلة على عثمان: فلا يُضلَّل، وإن كان خلاف الراجح[(٣)].

(١) انظر: «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٤/ ٤٣٥).
(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٢٢٠).
(٣) انظر: «شرح الواسطية»، للفوزان (ص١٧٦).

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ.

❒ **مِن عقيدة أهل السنة والجماعة**: أنهم يحِبون جميع المؤمنين، ويتولَّونهم، ويخصُّون آل بيت النبي ﷺ بزيادة محبةٍ، وتولٍّ، واحترامٍ، وتكريم؛ لأنهم جمَعوا أمرَين: الإيمان، والقرابة من رسول الله ﷺ.

وقد جاءت النصوص الكثيرة التي تحثُّ على محبة آل البيت، كما سيأتي.

وأهل البيت يُحَبُّون إذا كانوا مسلمين متَّبِعين للسنة، أما مَن خالف السنة ولم يستقم على الدِّين، فلا تجوز محبته.

فإن قيل: مَن هم آل بيت النبي ﷺ؟

فالجواب: هم الذين حَرُمَتْ عليهم الصدقة، كما فسَّر ذلك زيد بن أرقم في الحديث[(١)]، **وهم**:

١- آل علي، وآل جعفر، وآل عَقيل، وآل العباس، وبنو الحارث بن عبد المطَّلب.

٢- أزواج النبي ﷺ من أهل بيته، وهو الصحيح[(٢)].

٣- بنات النبي ﷺ من أهل بيته.

وأما ما ورد أن النبي ﷺ قرأ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٧٦).

أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣]، وكان عليه كساءٌ، فأدخل فيه فاطمةَ وعليًّا والحسن والحسين، وقال: «**اللَّهُمَّ، إِنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ**»(١).

فيُجاب عنه: بأن هذا الحديث يدل على أن هؤلاء أخصُّ بهذا الوصف من غيرهم، وأنهم أفضل من غيرهم، ولا يفيد أن غيرهم ليس من أهل بيته(٢).

وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

❐ أهلُ السنة يحفظون وصية رسول الله ﷺ في أهل البيت، ويعملون بها ويطبقونها، وكانت الوصية منه بهم في الثامن عشر من ذي الحجة، بعد رجوع النبي ﷺ من حجة الوداع، في موضع يُسمى غَدير خُمٍّ، وهو اسمٌ لغَيْضة ومكان، على ثلاثة أميال من الجُحْفة، منسوب إلى رجل اسمه (خُمٌّ)(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠٥، ٣٧٨٧) وقال: «غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ عَطَاءٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ».
وأخرج مسلم (٢٤٢٤) من حديث عائشة قَالَتْ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ، مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣]».
(٢) وهذا الذي قرره ابن تيمية، انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٧٤).
(٣) «معجم البلدان» (٢/ ٣٨٩).

والحديث بتمامه رواه زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: «قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا، بماء يُدْعى خُمًّا، بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ، وذكَّر، ثم قال: «**أَمَّا بَعْد، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ؛ أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الهُدَى والنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**»، فحث على كتاب الله، ورغَّب فيه، ثم قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»[١].

والشاهد من الحديث: أن النبي ﷺ ذكَّر فيه بحق أهل بيته من الاحترام، والإكرام، والقيام بحقهم، وكرر ذلك ثلاثًا؛ مبالغةً في الحث على ذلك، والتأكيد عليه.

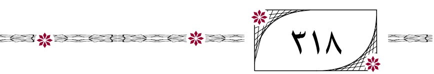
واعلم: أن الرافضة زادوا في هذا الحديث أمورًا كثيرة، كقولهم: إنه ﷺ عهِد إلى عليٍّ رضي الله عنه بالخلافة، فكتم الصحابة هذا. وهذا ضلال وافتراء.

وَقَدْ قَالَ ﷺ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ - وَقَدْ شَكَا إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ - فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ، لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي».

هذا الحديث رواه أحمد وغيره بسندٍ فيه كلام[٢]، وعند الترمذي: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الْإِيمَانُ، حَتَّى يُحِبَّكُمْ للهِ وَرَسُولِهِ،**

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٧).



يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ آذَى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي»[١].

والشاهد مِن الحديث: أنه ﷺ أقسم أنه لا يؤمن أحدٌ الإيمان الكامل حتى يحب آل البيت؛ **لأمرَين**:

١- لله؛ لأنهم مؤمنون، وهذه المحبة يشاركهم فيها غيرهم من المؤمنين.

٢- لقرابتي؛ إرضاءً للنبي ﷺ، وإكرامًا له.

فهذا دليلٌ على عِظَم حقِّهم، ووجوب احترامهم، والتحذير من بُغضهم وجفائهم، وقد كان هذا هدْيَ الخلفاء الراشدين؛ فقد قال أبو بكر لعليٍّ: «والله لَقَرابةُ رسول الله ﷺ أحب إلَيَّ أنْ أصل من قرابتي»[٢]، وقال عمر للعباس حين أسلم: «والله لإسلامُك حين أسلمت، أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب»[٣].



(١) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨) وصححه، وابن ماجه (١٤٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩).
(٣) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٥٤٥٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٢).

وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[١].

هذا الحديث رواه مسلم وغيره عن واثلة بن الأسقع، وقد بيَّن فيه النبي ﷺ فضل بني هاشم: الذين هم قرابته، وهم من قريش، وقريش من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

ففيه: أن قريشًا أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفْسًا، وأفضلهم نسَبًا[٢].

وفيه: فضل بني هاشم، الذين هم قرابة رسول الله ﷺ.

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

❏ **تكلم المؤلف عن هدي أهل السنة تجاه زوجات النبي ﷺ، فقرر أمورًا[٣]:**

١/ مذهبُ أهلِ السنة في أزواج النبي ﷺ: أنهم يحبونهن،

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).
(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم»، لابن تيمية (١/ ٤٢٠).
(٣) **زوجات النبي ﷺ هنَّ:**
١- خديجة بنت خويلد: وهي أول زوجاته، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين.
٢- عائشة بنت أبي بكر: وتزوجها وهي بنت ست، وبنى بها وعمرها تسع أول مقدمه إلى المدينة، ومات وعمرها ١٨ سنة، وتُوفِّيت بالمدينة، ودُفِنت بالبقيع سنة ٥٨هـ. =

ويوقرونهن، ويعظمون قدرهن، ويتبرؤون ممن آذاهن وسبَّهن، ويعتقدون أنهن طاهرات، مبرَّآت من كل سوء.

والدليل على ذلك قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦].

وزوجاتُ النبيِ ﷺ أمهاتُ المؤمنين في:

١- الاحترام والتعظيم.

٢- تحريم نكاحهن على التأبيد، لا في النظرة والخلوة بهن؛ فإنهن

= ٣- سودة بنت زمعة: وتزوجها بعد موت خديجة، ولما أراد طلاقها وهبت يومها لعائشة.
٤- حفصة بنت عمر: وتُوفِّيت سنة ٢٨، وقيل: ٢٧هـ.
٥- أم حبيبة بنت أبي سفيان: واسمها رملة، وتزوجها وهي بالحبشة، وأصدقها عنه النجاشي.
٦- أم سلمة هند بنت أبي أمية: وتُوفِّيت قبل سنة ٦٢هـ، ودُفِنت بالبقيع.
٧- زينب بنت جحش: وكانت تحت زيد بن حارثة، فزوَّجها الله في القرآن، تُوفِّيت سنة ٢٠هـ بالبقيع.
٨- زينب بنت خزيمة الهلالية: وتزوجها سنة ٣هـ، وتُسمى أم المساكين، ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة وتُوفِّيت.
٩- جويرية بنت الحارث: وهي من سبْي غزوة بني المصطلق، وكانت في سهم ثابت ابن قيس، فكاتبها، فقضى رسول الله كتابتها، وتزوجها سنة ٦هـ، وتُوفِّيت سنة ٥٦هـ.
١٠- صفية بنت حيي بن أخطب: وهي مِن ولد هارون أخي موسى، وتزوجها سنة سبع، وهي من سبي خيبر، تُوفِّيت سنة ٣٦هـ، وقيل: ٥٠هـ.
١١- ميمونة بنت الحارث الهلالية: وهي آخر زوجاته، وتزوجها وبنى بها، وماتت في سرف على سبعة أميال من مكة، وتُوفِّيت سنة ٦٣هـ.
تُوفِّي النبي ﷺ عن تسع منهن، وأولهن لحوقًا به: زينب بنت جحش، وآخرهن: أم سلمة، وقيل: ميمونة.

فيه كغيرهن في المحرمية.

وَيُقِرُّونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ.

٢/ يعتقدون بأنهن زوجاته في الآخرة كما في الدنيا، والدليل:

١- أنه لما بَعَث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمارًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الكوفة ليستنفرهم، خطب وقال: «إني لأعلم أنها زوجته - أي: عائشة - في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها»(١).

٢- أنه لما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فراق سودة، قالت: «يا رسول الله، والله مالي بالرجال من حاجة، ولكن أحب أن أُبعث مع نسائك يوم القيامة»(٢).

ومِن هذا تعلم أنهن يبْقين على إسلامهن، ومنزلتهن، خلافًا لما يزعمه الروافض من أن بعضهن ارتددن بعده، وهذا كذب وافتراء.

خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
أُمَّ أَكثَرِ أَوْلادِهِ.
وأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ، وعاضَدَهُ على أَمْرِهِ.
وكانَ لَها مِنْهُ المَنْزِلَةُ العالِيةُ.

٣/ اختص الله خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخصائص:

١- أنها أم أولاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما عدا إبراهيم، فَمِنْ سُرِّيَّتِهِ مارية.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٧٢).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٠/ ٥٣).

٢- أنها أول امرأة آمنت به وأعانته على الدعوة، وكان لها الأثر الكبير في ذلك.

٣- أنه لم يتزوج عليها غيرها.

٤- أنها لم تسؤه قط، ولم تغاضبه أبدًا.

ولأجل ذلك: كان رسول الله ﷺ يحبها، ولها منه المنزلة العالية الرفيعة، وكان يذكرها.

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يثني عليها، فقالت عائشة: وما تذكر من عجوز، حمراء الشِّدقَين، هلكت في غابر الدهر، أبدلك الله خيرًا منها؟ فقال: «**واللهِ مَا أَبْدَلَنِي خَيْرًا مِنْهَا؛ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ ﷻ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ**»[(١)].

وعن عائشة: «ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة؛ لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها بقصر من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن»[(٢)].

والصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا التي قال فيها النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلُ عائشةَ على النِّساءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائِرِ الطَّعامِ».

٤/ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا اختصها الله بخصائص، منها:

١- أنها أحبُّ أزواج النبي ﷺ إليه.

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٨، ٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧)، وأحمد (٢٤٨٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥).

٢- وأنه لم يتزوج بِكرًا غيرها.

٣- وأن الله برَّأها من السماء.

٤- أنه كان ينزل عليه الوحي في لحافها[(١)].

٥- أن النبي ﷺ أُري صورتها قبل أن يتزوَّجها في سَرَقةٍ من حريرٍ[(٢)].

٦- أن والدها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب رسول الله ﷺ.

ولأجْل ذلك فقد أثنى عليها النبي ﷺ، كما في «الصحيحينِ» عن أبي موسى الأشعري: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»[(٣)].

ووجه تفضيلها: أن الثريد أفضل الأطعمة؛ لأنه خبز بُرٍّ، ولحم، والبُر أفضل الأقوات، واللحم أفضل الإدام[(٤)].

وفي الصحيح عن عمرو بن العاص: قلت: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عَائِشَةُ**»، قلت: من الرجال: قال: «**أَبُوهَا...**»[(٥)].

فإن قيل: فأيُّهما أفضل خديجة أم عائشة؟

فالجواب: في المسألة خلاف، ولعل من أحسن ما يقال ما ذكَره ابن تيمية: إن كل واحدةٍ منهما قد اختُصَّت بفضلٍ لم تشاركها فيه غيرُها،

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).
(٤) انظر: «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٤/ ٣٠٢).
(٥) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

فسبقُ خديجة، وتأثيرها في أول الإسلام، ونصرها، وقيامها في الدين لم تشركها فيه عائشة، ولا غيرها من زوجات النبي ﷺ، وتأثير عائشة في آخر الإسلام، وحمل الدين، وتبليغه إلى الأمة، وإدراكها من العلم، ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها[١]. فالتوقف فيها هو رأي ابن تيمية.

ومما ذكره العلماء في هذا السياق حكْمُ قذف زوجات النبي ﷺ، فقالوا:

أ) أما قذْف عائشة رضي الله عنها: فكفْرٌ، ومن قذَفها فهو كافر؛ لأن الله برَّأها منه.

ب) وأما قذْف غيرها من نساء النبي ﷺ: ففيه قولان؛ قال ابن كثير: والأصح أنهن كعائشة[٢].

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ «الرَّوافِضِ» الذينَ يُبْغِضُونَ الصَّحابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ.

❑ أهلُ السنة وسطٌ تُجاه صحابةِ رسول الله ﷺ، كما سبق بيان ذلك، **وهم يتبرَّؤون من طرَفَين مَذْمومَين:**

أولهما: طريقة الروافض: الذين يسبُّون الصحابة، ويطعنون فيهم، ويزعمون أنهم عصَوا الرسول ﷺ وارتدُّوا بعده، إلا بضعة عشر منهم، **وقد انقسم الرافضة تُجاه الصحابة ثلاثة أقسام:**

١- **غُلاة**: غَلَوا في علي بن أبي طالب حتى زعموا أنه إله، أو أن الله

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٩٣)، و«منهاج السنة النبوية» (٤/ ٣٠٣).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٢)، «التنبيهات السنية» (ص٢٩٤).

حلَّ فيه، أو أنه هو الرسول، ولكن جبريل غلط أو أخطأ في إعطاء الرسالة إلى محمد، وأنه خان الأمانة، وغير ذلك.

٢- **مفضِّلة**: يفضِّلون عليًّا على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة.

٣- **سبَّابة**: يسبُّون أبا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة، ويزعمون أن عليًّا هو الوصي، وأن الصحابة ظلموه بتقديم أبي بكر وعمر وغصبوه حقه.

وقد ذكر ابن تيمية أن موقف علي رضي الله عنه من هذه الفرق كان على النحو الآتي:

أ) **أما الغُلاة**: فأمر بإحراقهم، حينما رآهم يسجدون له، ويعتقدون أنه الإله، وكان قد أخَّرهم ثلاثة أيام؛ لأن المُرتَدَّ يُستتاب، فلما لم يرجعوا أمَر بأخاديد من نار.

ب) **وأما المفضِّلة**: فرُوِي أنه قال: لا أُوتَى بأحدٍ يفضِّلني على أبي بكر وعمر إلا ضربتُه حدَّ المفتري.

ت) **وأما السَّبَّابة**: فلما بلغه سبُّ ابن سبأٍ طلبه، وقيل: إنه أراد قتله، فهرب منه إلى قرقيسيا[١].

وطَرِيقَةِ «النَّواصِب»: الذينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ البَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

ثاني الطرَفَين: **النواصب**، وهم الذين ينْصِبون العداوة لعليٍّ وآل

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» (١/ ٣٠٦).

البيت، ويتبرؤون منهم، ولا يحبونهم، ويكفِّرونهم أو يفسِّقونهم كالخوارج، وهم على ضلال، إلا أن الروافض شرٌّ منهم.

ومذهب أهل السنة في الصحابة وآل البيت وسطٌ بين الروافض وبين النواصب.

واعلم أن أهل السنة لم يَسْلموا من اتهام الروافض والنواصب لهم.

فالرافضة: يُسَمون أهل السنة ناصبةً؛ لأنهم لم يوافقوهم في باطلهم، وتكفير الصحابة ومعاداتهم؛ لأنه عندهم لا ولاءَ إلا ببَراءٍ، فمَن تولى الصحابة لم يتولَّ القرابة.

والنواصب الخوارج: يزعمون أن الرفض هو محبة أهل البيت، ويذمُّون الرفض بهذا المعنى، وما أحسن ما قال الشافعي:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

وقال غيره:

إِنْ كَانَ نَصْبًا حُبُّ صَحْبِ مُحمد فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي نَاصِبِي

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحابةِ.

❐ **من أصول أهل السنة والجماعة**: مذهبهم فيما شجَر بين الصحابة، **ويتلخص هذا في أمور**:

١/ مذهب أهل السنة والجماعة: **الكفُّ عما جرى بين أصحاب رسول** الله ﷺ، **والإمساك عما شجر بينهم من النزاع والحروب**؛ لأن الخوض في هذه الأمور يُولِّد الحقد على بعض أصحاب رسول الله ﷺ،

والحزازات، وهذا من أعظم الذنوب.

قال ابن حمدان من الحنابلة: «يجب حبُّ كل الصحابة، والكفُّ عما جرى بينهم، كتابةً وقراءةً، وإقراءً وسماعًا، وإسماعًا...»[١].

واعلم أن الناس في وقت تلك الفتن والحروب أقسامٌ ثلاثة:

١- أناسٌ رأوا الحق مع علي، فوجب عليهم اتباعه؛ بموجب اعتقادهم، والقتال معه.

٢- أناس رأَوا الحق مع معاوية، فوجب عليهم اتباعه؛ بموجب اعتقادهم، والقتال معه.

٣- أناس لم يظهر لهم شيء؛ فتوقفوا واعتزلوا، وهذا الواجب عليهم.

وهذا الصِّنف هو الذي كان عليه أكثر الصحابة، كما قال ابن سِيرين: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله عشرة آلاف، فما حضرها منهم مِائة، بل لم يبلغوا ثلاثين[٢].

قال شيخ الإسلام: «وهذا مِن أصح إسناد على وجه الأرض»[٣].

وقال الشعبي: لم يشْهد الجَمَل من أصحاب النبي ﷺ غير علي وعمار وطلحة والزبير، فإن جاوزوا الخامس فأنا كذَّاب»[٤].

---

(١) «نهاية المبتدئين» (ص٦٦).
(٢) «العلل ومعرفة الرجال» رواية عبد الله (٣/ ١٨٢).
(٣) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢٣٦، ٢٣٧).
(٤) «العلل ومعرفة الرجال» رواية عبد الله (٣/ ٤٥)

واعلم: أن طريق السلامة هو الكفُّ عما شجر بينهم، والترضِّي عن الجميع، كما قال عمر بن عبد العزيز حين سُئِل عما وقع بين الصحابة: «تلك دماء طهَّر اللهُ منها يدي، فلا أُحِبُّ أن أُخَضِّب بها لساني»[(١)].

ويَقُولُونَ: إنَّ هَذِهِ الآثارَ المَرْوِيَّةَ في مَساوِئِهِم
مِنها: ما هُوَ كَذِبٌ.
وَمِنها: ما قَدْ زِيدَ فيهِ وَنُقِصَ، وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ.
وعامَّةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ هُمْ فيهِ مَعْذُورُونَ:
إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ.
وإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

٢/ **أهل السنة يرَون أن الآثار المروية في مساوئ الصحابة ومثالبهم، لا تخلو من أقسام ثلاثة:**

١- **ما يكون كذبًا محضًا**: فهذا لم يقعْ منهم، وإنما افتراه أعداؤهم؛ ليشوِّهوا سمعتهم، وهذا موجود فيما يرويه النواصب في آل البيت، وما يرويه الروافض في غير آل البيت.

٢- **ما له أصل، لكن حُرِّف فيه وزِيد فيه ونقص، وغُيِّر عن وجهه، فأفضى إلى الذم والطعن**: فهذا محرَّف لا يُعتمَد عليه؛ لأن فضل الصحابة معلوم، وعدالتهم متيقنة، فلا يُترَك المعلوم المتيقن لأمر محرَّف مشكوك فيه؛ فيجب ردُّه.

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٥/ ١٤٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٣٤).

قال ابن تيمية: «وأكثر المنقول من المطاعن الصريحة هو من هذا الباب[(١)] يرْويها الكذَّابون المعروفون بالكذب»[(٢)].

٣- ما هو صحيحٌ من هذه الآثار: فهمْ فيه مجتهدون، مَن أخطأ منهم فله أجرٌ، ومَن أصاب فله أجرانِ، كما ورد في حديث أبي هريرة، وعمرو ابن العاص مرفوعًا: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»[(٣)].

قال شيخ الإسلام: «وأكثر هذه الأمور لهم فيها معاذير، تُخرِجها من أن تكون ذنوبًا، وتجعلها من موارد الاجتهاد، التي إن أصاب المجتهد فيها فله أجرانِ، وإن أخطأ فله أجر، وعامة المنقول الثابت عن الخلفاء الراشدين من هذا الباب، وما قُدِّرَ من هذه الأمور ذنْبًا محققًا، فإن ذلك لا يَقدح فيما عُلِم من فضائلهم، وسوابقهم، وكونهم من أهل الجنة؛ لأن الذنب المحقق يرتفع عقابه في الآخرة بأسباب متعددة، منها: التوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفِّرة، ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة نبيهم»[(٤)].

فائدة: اعلم أن هذا المنهج مع ما حصل بين الصحابة، ينبغي أن يكون في كل شجار بين المسلمين.

قال شيخ الإسلام: «يُنْهى عما شجر بين هؤلاء، سواء كانوا من

(١) يعني: القسم الأول والثاني.
(٢) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٨١).
(٣) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).
(٤) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٨٣).

الصحابة، أو ممن بعدهم، فإذا تشاجر مسْلمانِ في قضية ومضت، ولا تعلُّق للناس بها، ولا يعرفون حقيقتها؛ كان كلامهم فيها كلامًا بلا علم ولا عدل، يتضمن أذاهما بغير حق»(١).

وهُمْ مع ذلكَ: لا يَعْتَقِدُونَ أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحابةِ مَعْصُومٌ عَنْ كبائِرِ الإِثْمِ وَصَغائِرِهِ، بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ في الجُمْلَةِ.

٣/ أهلُ السنة لا يرَون عِصمةَ أحدٍ من الصحابة أو مِن القرابة، ويعتقدون أنهم ليسوا معصومين من صغائر الذنوب وكبائرها.

قال شيخ الإسلام: «ولم يقل أحدٌ يُعتَد به: إن الصحابة أو غيرَهم من الأولياء أو القرابةِ معصومٌ من كبائر الذنوب أو من صغائرها، بل يجوز عليه وقوع الذنب، واللهُ يغفر لهم، وقصة حاطب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في «الصحيح»، فقد غُفِر له الذنْب العظيم بشهوده بدرًا، وكذلك ما وقع من حسان، ومِسْطح بن أثاثة، وحمْنة بنت جحش»(٢).

والمراد أن الصحابي قد يبقى على الخطأ، وقد يجتهد ويخطئ، فالعصمة ليست لأحد إلا للنبي ﷺ، فتقع الذنوب من الصحابة، لكن لهم من المكفِّرات للذنوب الشيءُ الكثير.



(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١٤٦).
(٢) «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» (٧٨).

وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ - إِنْ صَدَرَ -.

٤/ **إذا وقع من الواحد من الصحابة ذنبٌ، فإنه يُغفَر له بجانب ما له من الحسنات العظيمة**، كما في قصة حاطب[(١)]، وكما في حديث النبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ اليَوْمِ**»[(٢)].

حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

٥/ **لمَّا كان للصحابة مِن المقامات العظيمة التي لم تكن لغيرهم، كجهادهم في الله مع رسوله ﷺ، ونصرتهم لدينه، وكونهم أولَ مَن حمل الدين، وبلَّغه للعالمين، بعد وفاة النبي الأمين ﷺ، فإن الله يَغفِر لهم ما لا يغفر لغيرهم**؛ لأن لهم من الحسنات ما ليس لغيرهم، فمَحبةُ الله لهم أعظمُ مِن محبته لغيرهم.

وقد قال ابن القيم: «إنه يُعْفى للمحبِّ ولصاحبِ الإحسان العظيم، ما لا يُعْفى لغيره، ويُسامَح بما لا يُسامَح به غيره»[(٣)].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠١) وقال: حسن غريب، وأحمد (٢٠٦٣٠).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٧).

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ.

كما عند البخاري ومسلم، من حديث عمران بن حصين مرفوعًا: «**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»، قال عمران: لا أدري أذكر بعده قرنين أو ثلاثًا[(١)].

وقوله: «**قرني**»، **القَرْن**: أهل زمان واحد متقارب، اشتركوا في أمرٍ من الأمور المقصودة، ويُطلَق على المدة من الزمان، واختلفوا في تحديده، ووقع في حديث عبد الله بن بُسْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يدل على أن القرن مِائة عام[(٢)]، وهو المشهور، والمراد بقرن النبي ﷺ: الصحابة، ثم يليهم التابعون.

وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ، كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ.

تقدَّم الكلام على الحديث، وهذا من شرف الصحابة وفضلهم.



(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٩٩) من حديث عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: زار رسول الله ﷺ منزلنا مع أبي بكر، قال: وكنت أختلف بين أبي وأمي فهيأنا له طعامًا، فأكل ودعا لنا بدعاء لا أحفظه، ثم مسح يده على رأسي فقال: يعيش هذا الغلام قرنًا. قال: فعاش مِائة سنة.

ثُمَّ إذا كانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ، فَيَكُونُ:
قَدْ تابَ مِنْهُ.
أَوْ أَتى بِحَسَناتٍ تَمْحُوهُ.
أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سابِقَتِهِ.
أَوْ بِشَفاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الذينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفاعَتِهِ.
أَوْ ابتُلِيَ بِبَلاءٍ في الدُّنْيا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

٦/ إذا افترض وقوع الذنب من الصحابي، فإن ثَمة أمورًا يرتفع بها عقاب الذنب والمؤاخذة به، وهي:

١- **التوبة**: فإذا تاب منه تاب الله عليه، كما هو معلوم مِن الآثار الكثيرة في التوبة، ومَن تاب من الذنب فهو كمَن لا ذنْب له، وهذا الأمر وقع من بعض الصحابة، كما حدث لأبي لُبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

٢- **الحسنات الماحية**: كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤].

٣- **أن يُغْفَرَ له بفضل سابقته**، كما تقدم في قصة حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[(٢)].

٤- **بشفاعة محمد** ﷺ: فهم أحقُّ الناس بها.

٥- **أن يُبْتلى ببلاء في الدنيا يكفِّر عنه**: والبلايا والمصائب مكفِّرات،

(١) أخرج قصته سعيد بن منصور في «سننه» (٥/ ٢٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

كما في الحديث: «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُّهَا - إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(١).

فهذه أسباب قلَّ أن تفوت على أحدٍ، والصحابة همْ أحق بها من كل أحد ممن بعدهم.

فَإِذا كان هذا في الذُّنُوبِ المُحَقَّقةِ؛ فَكَيْفَ في الْأُمُورُ التي كانُوا فيها مُجْتَهِدِينَ:
إِنْ أَصابُوا، فَلَهُمْ أَجْرانِ.
وإِنْ أَخطَؤُوا، فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، والخَطَأُ مَغْفُورٌ.

ما تقدَّم من المكفِّرات هو في الذنْب المحقَّق، الذي قد يُغفَر بأسباب عديدة، وإذا كان هذا في المحقَّق، فما بالك بالأمر الذي صدر عن اجتهاد من الصحابة؟! فهم إنْ أصابوا فلهم أجرانِ، وإن أخطؤوا فلهم أجرٌ واحد، وخطؤهم في الاجتهاد مغفور، وهذا شأن كثير مما وقع بين الصحابة، فكلها عن اجتهاد.

ثُمَّ القَدْرُ الذي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ، مَغْمورٌ في جَنْبِ فَضائِلِ القَوْمِ وَمَحاسِنِهِمْ: مِنَ الإِيمانِ بِاللَّهِ، وَرَسُولِهِ، والجِهادِ في سَبيلِهِ، وَالهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالعِلْمِ النَّافِعِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ.

الأفعال التي تُنكَر على بعض الصحابة وتُعَد ذنوبًا، هي قليلة، ومع هذا فإن ما أتَوا به من الحسنات، وما لهم من الفضائل والسوابق؛ غمَر

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

ما وقع منهم، وجعله كقطرةٍ وقعت في بحر.

ثم عدَّ المؤلف شيئًا من فضائلهم ومحاسنهم؛ فذكر الإيمان الذي هو في قلوبهم كالجبال، والجهاد الذي هو من أفضل الأعمال، والهجرة، والنصرة لنبي الله ﷺ ولدين الإسلام، وعلمهم النافع، وعملهم الصالح.

وَمَنْ نَظَرَ في سِيرَةِ القَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ وعَدْلٍ، وما مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الفَضائِلِ، عَلِمَ يَقِيناً أَنَّهُمْ خَيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ، لا كانَ ولا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُم الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ، التي هيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُها على اللَّهِ.

مَن تأمَّل وتفكَّر في سِيَر الصحابة وأخبارهم، وما كانوا عليه من الأحوال والأعمال، من الإيمان، والجهاد، والدعوة، وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاءِ كلمة الله، مع ما هم عليه من الصدق مع الله، والمسارعة إلى الخير، وغير ذلك من فضائلهم الكثيرة - عَلِم يقينًا جازمًا لا مريةَ فيه أنهم خير الخلْق بعد الأنبياء، وأنهم أكملُ هذه الأمةِ عقلًا وعِلمًا ودِينًا، وأنهم أكرمُ هذه الأمة التي هي أكرمُ الأممِ على الله، كما قال النبي ﷺ: «**خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي...**»[(١)].

وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد بعْد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خيرَ قلوب العباد، فجعلهم وُزراء نبيِّه، يقاتلون على دِينه، فما رآه المسلمون حَسَنًا فهو عند الله حَسن، وما رآه

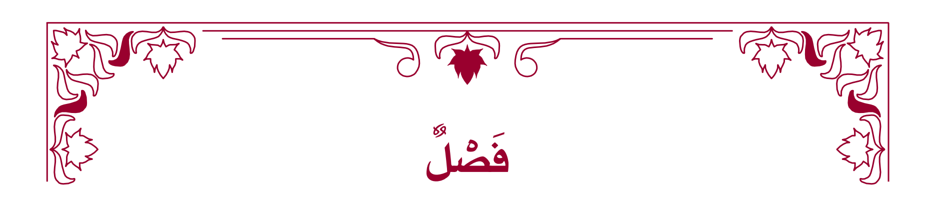
(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

المسلمون سيئًا فهو عند الله سيِّئٌ»[١].

ومعلوم أن أفضل كل أمة أتباع نبيهم؛ فالحواريون خير أصحاب عيسى، والنُّقباء خير أصحاب موسى، والصحابة خير منهم كلهم، ومن كل مَن آمن مع الأنبياء.



(١) أخرجه أحمد (٣٦٠٠)، والطيالسي (٢٤٦).



فَصْلٌ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ:
التَّصْدِيقُ بِكَراماتِ الأَوْلِياءِ.
وما يُجْرِي اللَّهُ على أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوارِقِ العاداتِ، في: أَنْواعِ الْعُلُومِ، والمُكاشَفاتِ، وأَنْواعِ القُدْرَةِ، والتَّأْثِيراتِ.

❏هذا الفصلُ عقَده المؤلف لبيان عقيدة أهل السنة والجماعة في كرامات الأولياء، والتصديق والإيمان بها.

وهاهنا ثمان مسائل:

أولًا: تعريف الكرامة: أمرٌ ممكن عقلًا، خارق للعادة، يُجريه الله على يد وليٍّ من أوليائه، غير الأنبياء.

وقولنا: خارقٌ للعادة، أي: أنها خرَقت العادة، وخالفت مُقتضاها، وجاءت على خلاف مألوف الآدميين، كإحياء ميت، أو غير ذلك.

والخوارق للعادات ثلاثةُ أنواع:

١- **المعجِزة:** وهي أمرٌ ممكن عقلًا، خارقٌ للعادة، يُجريه الله على يد نبيٍّ من أنبيائه ورسله؛ لإظهار صِدق نُبوته، وصحة رسالته.

٢- **الكرامة:** وهي - كما سبق - أمرٌ ممكن عقلًا، خارق للعادة،

يُجريه الله على يد وليٍّ من أوليائه، غير الأنبياء.

٣- **الأحوال الشيطانية**: وهي أمرٌ خارق للعادة، ولكنه يقع على يدِ غيرِ وليٍّ من أولياء الله، كما وقع لبعضهم أن الشياطين حملته إلى مكة يوم عَرَفة للحج وأعادته، وغير ذلك من الأمور التي هي في حقيقتها استعانة بشيطان.

فتجتمع الثلاثة في كونها خارقةً للعادة، وتمتاز المعجزة في كونها على يد النبي، والكرامةُ في أنها على يدِ المؤمن التَّقي، التابعِ لشرع محمد ﷺ.

ثانيًا: لمن تحصل الكرامة؟

تحصل لأولياء الله، فإذا وقع الأمرُ الخارقُ لم يُعتبَر كرامةً حتى يكون من جرى على يديه ذلك وليًّا من أولياء الله، متبعًا للسُّنة(١).

والوليُّ: هو التقيُّ، قال شيخ الإسلام: «مَن كان مؤمنًا تقيًّا: كان لله وليًّا»(٢). ويدل له قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، ولا يعني هذا أنه لا بُدَّ أن يكون مَعصومًا من الذنوب، بل مَن ادعى العصمةَ لأحدٍ من الأولياء فقد كذَب.

ثالثًا: الحكمةُ مِن إجراء الكرامة على يد بعض العباد:

١- تقويةُ إيمان العبد.

---

(١) انظر: «التنبيهات السنية» (ص٨٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩٠).

٢- الحاجةُ إلى ذلك: كما وقع لصِلة بن أشيمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين مات فرسه، وهو في الغزو، فقال: اللهم لا تجعلْ لمخلوقٍ عليَّ مِنَّةً، فأحْيا الله له فرَسه، فلما وصل إلى بيته قال: يا بُنَي، خُذْ سرْجَ الفرس؛ فإنه عاريةٌ، فأخذ سرْجه، فمات الفرس[1].

٣- إقامةُ الحجةِ على خصمه المعارض له في الحق: كما جرى لسعيد ابن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لما دعا على من رماه بخلاف الحق، فأجاب الله دعوته[2].

٤- إنقاذ المسلمين من مأزقٍ وقعوا فيه: كما في قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «حين كان يخطب على المنبر، فقال: يا سارية، الجبلَ، ثلاثًا، وكان سارية على جيش المسلمين فأحاط بهم الأعداء، فسمع صوت عمر (يا سارية، الجبل) أي: الزم الجبل، فاعتصموا به فنجوا بإذن الله»، وهذا من الحاجة[3].

رابعًا: الناس في كرامات الأولياء ثلاثة أصناف:

١) **قومٌ غَلَوا في إثباتها**: وهم أصحابُ الطُّرق الصوفية، والقبوريون،

---

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٦٣، ١٦٤)

(٢) أخرج البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) - واللفظ له -: عن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل، أن أروى خاصمته في بعض داره، فقال: دعوها وإياها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أخذ شبرًا من الأرض بغير حقه، طُوِّقه في سبع أرضين يوم القيامة**»، اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واجعل قبرها في دارها، قال: فرأيتها عمياء تلتمس الجدر تقول: أصابتني دعوة سعيد بن زيد، فبينما هي تمشي في الدار مرت على بئر في الدار، فوقعت فيها، فكانت قبرها.

(٣) انظر: «التنبيهات السنية» (ص٣١٢)، و«شرح الطحاوية»، للخميس (ص٤٤٢).

الذين يأتون بأمورٍ يدَّعونها لأصحاب القبور، كدخول النار، وإمساك الثعابين، وضربِ البدن بالسلاح، ويدَّعون أنها كراماتٌ، وهي في الحقيقة خوارق شيطانية!

٢) **قومٌ نفوها**: وهم المعتزلة والجهمية، وسيأتي ذِكرُ شُبهتهم والرد عليها.

٣) **أهل السنة**: وهم وسط؛ فيثبتونها على مقتضى ما جاء في الكتاب والسنة[1].

خامسًا: أورد نفاة الكرامات من المعتزلة والجهمية ومن تابعهم شبهة فقالوا: لو سلَّمنا بوجود الكرامات - وهي مُشْبِهة للمعجزات في أن كلًّا منها أمر خارق للعادة -، لأدَّى ذلك إلى الْتباس النبي بالولي، ولذا فالأمرُ الخارق لا يكون إلا للأنبياء.

والجواب عن هذه الشبهة الباطلة أن يقال: لا يُسلَّم لهم ما ذكروه؛ لأن الولي لا يدَّعي النبوة مهما كانت كراماته، والالتباس إنما يكون فيما لو سلَّمنا بأن الولي يدَّعِي النبوةَ، أما من ادَّعى النبوة بعد محمد ﷺ، وكان معه أمر خارق للعادة؛ فكذبه سيظهر لكل من تتبع أحواله[2].

❍ **فائدة**: ذكر العلماء رحمهم الله: أن كل كرامةٍ لولي، فهي آية ومعجزة للنبي الذي اتبعه؛ لأن الكرامة شهادة من الله على أن طريق هذا الولي صحيح، ولأنها لم تقع إلا بسبب اتباعه له[3].

---

(١) انظر: «شرح الواسطية»، للفوزان (ص١٨٨).
(٢) «شرح الطحاوية»، للخميس (ص٤٤٤ - ٤٤٥).
(٣) «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام»، للقرطبي (ص٣٨١).

وعلى هذا: فما جرى من الكرامات للأولياء من هذه الأمة، فإنها آيات لرسول الله ﷺ.

كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ.

سادسًا: أشار المصنف هنا إلى أمثلة من الكرامات، فذكر نوعين:

١/ **كراماتٍ وقعت للأمم السابقة**: فذكر قصة أصحاب الكهف الذين مكثوا في الغار ثلاثمائة وتسع سنين، والله يقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال، حتى استيقظوا.

وكذلك: قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة[(١)].

وما وقع للذي عنده علمٌ من الكتاب عند سليمان؛ حين أحضر عرش بِلْقيس، وغير ذلك.

٢/ **كرامات وقعت للصالحين في صدر هذه الأمة، من الصحابة، والتابعين، وسائر قرون الأمة، وهذا كثير جدًّا، فمن ذلك:**

١) خبرُ الحسن البصري: حين تغيَّب عن الحَجاج، فدخلوا عليه ست مرات، فدعا الله فلم يَرَوْهُ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخرَّ ميتًا[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٢) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٦٣).

٢) خبرُ أسيد بن الحضير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وسماع الملائكة قراءته[١].

٣) خبرُ العلاءِ بن الحضرمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: حين مشى وأصحابه على ظَهر الماء، فعبروا النهر بالجيش[٢].

٤) خبرُ صلة بن أشيم: حين جاءه الأسد، وهو يصلي في غيضة بالليل، فلما سلم، قال للأسد: اطلب الرزق في غير هذا الموضع، فولَّى الأسد[٣].

وغير ذلك كثير يطول تتبعه.

قال ابن تيمية: «وهذا باب واسع، ... وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه في هذا الزمان فكثير»[٤].

وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

سابعًا: الكرامات مستمرة لا تنقطع إلى يوم القيامة؛ لأمرين:

١) **دليلٌ سمعي**: وهو ما ورد في قصة الدجال، أنه يَعجِز عن قتل الرجل الذي يخرج عليه[٥]، وهذه كرامة للرجل.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦).
(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٩/ ١٦٢).
(٣) انظر: «الزهد والرقائق» لابن المبارك (١/ ٢٩٥)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢/ ٢٤٠).
(٤) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٦٦).
(٥) أخرجه البخاري (٨٨٢)، ومسلم (٢٩٣٨).

٢) **دليلٌ عقلي**: أن الكرامة معلقة بالولاية، والولاية لا تزال موجودة إلى قرب قيام الساعة[(١)].

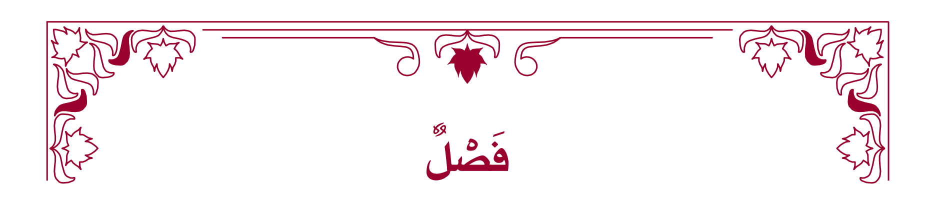
ثامنًا: عدمُ حصولِ الكرامة للمسلم لا ينقص مرتبته عند الله، ولا يعني أن غيره ممن حصل له الكرامة أفضل منه؛ لأن الكرامة تأييد وتثبيت، أو إعانة للشخص، أو نصرٌ للحق؛ ولهذا فهي في التابعين أكثرُ منها في الصحابة؛ لأن عند الصحابة من الثبات والتأييد، ما يستغنون به عن الكرامات، وأما التابعون فدونهم؛ ولذا كثرت عندهم[(٢)].

ولذلك فإن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أفضل الصحابة، ولم يُنقَل عنه كرامات كما نُقِل عن غيره من التابعين.



(١) انظر: «شرح الواسطية» للعثيمين (٢/ ٣٠٦).

(٢) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص٣٢١).



فَصْلٌ

ثُمَّ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

❐ لما فرَغ المؤلفُ من ذِكر طريقةِ أهلِ السنة العقدية، شرع في ذِكر طريقتهم العملية.

والكلام هنا في مسائل:

أولًا: الأصول التي يستند عليها أهل السنة والجماعة في طريقتهم ثلاثة:

١) **كتاب الله**: وهذا أصل الأمور، ورأسها، وأولها.

٢) **سنة رسوله ﷺ.**

٣) **الإجماع.**

وسيتكلم عن الثاني، ويشير إلى الثالث.

والدليل على ذلك: قوله ﷺ: «**أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»[(١)]، والإجماع مستند إلى الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (١٧١٧٤).

واعلم أن اتباع هدي رسول الله ﷺ، والسير على نهجه، هو منهج أهل السنة والجماعة.

والسُّنَّة لغة: الطريقة.

وشرعًا: أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته.

والأدلة على مشروعية الاتباع كثيرة، منها قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: الآية ٧]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٦٥].

وقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وغيرها من الآثار، فأهل السنة يتابعون رسول الله ﷺ فيما أُثِرَ عنه من قول، أو فعل، أو تقرير.

ولا يخفى أنه يُشترط لقبول كل عبادةٍ: تحقُّق شرْطَي الإخلاص والمتابعة، فإذا تخلف أحدهما لم تُقْبَل.

ثانيًا: اعلم أن آثار رسول الله ﷺ أقسام:

١) ما فعَله رسول الله ﷺ على سبيل التعبد: فهذا إن دل دليل على عدم اختصاصه ﷺ به فنحن مأمورون باتباعه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

٢) ما فعله اتفاقًا: فهذا لا يُشرَع لنا التأسي فيه؛ لأنه غير مقصود.

مثاله: البول بعد النَّفْرة من عرفة، والوضوء وُضوءًا خفيفًا(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٩)، ومسلم (١٢٨٠).

٣) **ما فعَله موافقةً لعادة أهل زمنه:** فهذا ينبغي لنا أن نتأسى به بجنسه لا بنوعه، **مثال ذلك:** كان النبي ﷺ يلبَس العمامة ليغطي رأسه، ونحن نوافقه في الجنس، وهو موافقة عادة البلد، فنغطي الرأس، ولكن نلبَس ما يوافق أهل بلدنا، وهذا يختلف باختلاف البلدان.

فمعنى موافقة النبي ﷺ فيما يفعله بمقتضى العادة: أن نتأسى به، بأن نفعل ما تقتضيه العادة التي عليها الناس، إلا أن يمنع ذلك مانع شرعي.

٤) **ما فعَله بمقتضى الجِبِلَّة:** فهذا ليس من العبادات قطعًا.

مثاله: مجرَّدُ الأكل إذا لم يقترن بِنية[(١)].

بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

ثالثًا: اتباعُ هديِ النبي ﷺ يكون في الأعمال الظاهرة: كالعبادات الفعلية من الصوم، والصلاة، وفي الأخلاق، ونحو ذلك، **وفي الأعمال الباطنة:** كالتوكل، والرجاء، وغيرهما.

وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

رابعًا: من طريقة أهل السنة: اتباع طريق السابقين الأولين من الصحابة، من المهاجرين والأنصار.

وإنما كان اتباعُ سبيلِهم من منهج أهل السنة؛ لأنهم أقرب إلى الحق والصواب ممن بعدهم؛ لما خصَّهم الله به من العلم والفضل والفقه عن

(١) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٣٠٩ - ٣١٠).

الله وعن رسوله ﷺ؛ فقد شاهدوا التنزيل، وسمعوا التأويل، وتلقوا عن الرسول بلا واسطة أحد، فهم أحق بإصابة الصواب، وأجدر باتباع الكتاب والسنة[(١)].

قال ابن القيم: «ومن المُحالِ أن يكون الصوابُ في غير طريق من سبق إلى كل خير على الإطلاق»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التَّوبَة: الآية ١٠٠]، قال الإمام أحمد: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ»[(٣)].

وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنْ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[(٤)].

خامسًا: من منهج أهل السنة: أنهم يأخذون بما ورد في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي ساقه المصنف، وفيه أمران:

١- الأمر بلزوم سنة النبي ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده،

(١) انظر: «التنبيهات السنية» (ص٣١٧).
(٢) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٤/١٠٦).
(٣) «أصول السنة» (ص١٤).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢).

والتمسك بها، والعَض عليها بالنواجذ(١)، وهذا كناية عن شِدَّةِ التمسك بها.

٢- التحذير من محدَثات الأمور، ومن الابتداع في الدين؛ لأن كل بدعةٍ في الدين فهي ضلالة، والمحدَثات: هي البدع.

وعُرِّفَتِ البدعة بتعاريف كثيرة، وأحسن ما قيل في تعريفها ثلاثة تعاريف:

١- تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية: «البدعة في الدين: هي ما لم يشرعه الله ورسوله ﷺ، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب»(٢).

٢- تعريف الشاطبي: الطريقة المخترعة في الدين تضاهي الشرعية، يُقصَد بها التقرب إلى الله، ولم يقم على صحتها دليل شرعي أصلًا أو وصفًا(٣).

٣- تعريف العثيمين: «ما أُحدِث في الدين على خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، من عقيدة، أو عمل»(٤).

والبدعة نوعان:

١) **بدعة اعتقاد:** كبدعة الأشاعرة، والمعتزلة، وأضرابهم.

---

(١) وهي أقصى الأضراس.
(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٠٧).
(٣) انظر: «الاعتصام»، للشاطبي (١/ ٣٧).
(٤) «شرح لمعة الاعتقاد»، للعثيمين (ص١٠).

٢) **بدعة عمل**: وهي التعبد لله بغير ما شرع الله ورسوله ﷺ، وأمثلتها كثيرة.

واعلم أن كل بدعة فهي ضلالة، وقد أخطأ في هذا صنفانِ من العلماء:

الأول: مَن قسَّم البدعة إلى بدعة محمودة، وبدعة مذمومة، فما وافق الشرع والسنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم، وقال بهذا الشافعي[(١)] محتجًّا بقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نعمت البدعةُ»[(٢)]، وأقرَّه الصحابة على ذلك.

وهذا التقسيم حادثٌ، وما حدث إلا بعد القرون الثلاثة.

وأيضًا ليس مراد الشافعي بالبدعةِ البدعةَ في الاصطلاح المعروف، وقد ذكر ابن رجب كلام الشافعي هذا، وقال: «ومراد الشافعي ما ذكرناه قبلُ أن البدعة المذمومة: ما ليس له أصل في الشريعة يُرجع إليه، وهي البدعة في إطلاق الشرع، وأما البدعة المحمودة فما وافق السنة، يعني: ما كان لها أصل من السنة يُرجع إليه، وإنما هي بدعة لُغة لا شرعًا؛ لموافقتها السُّنةَ»[(٣)].

ولكن يبقى أن الذي عليه السلف، بل ما ذكره المصطفى ﷺ أن كل بدعة فهي ضلالة.

الثاني: مَن قسَّم البدعة إلى خمسة أقسام: واجبة، ومحرَّمة،

(١) انظر: «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص٢٠٦).
(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٣٠١).
(٣) انظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٣١).

ومكروهة، ومستحبة، ومباحة، وممن قال به العزُّ بن عبد السلام[(١)].

وهذا التقسيم حادث ومردود؛ بما تقدم مِن أن كل بدعة ضلالة.

وأيضًا: ردَّ الشاطبي بما معناه أن هذا التقسيم أمر مخترع، لا دليل عليه، بل هو في نفْسه متناقض؛ لأن البدعة في الأصل: ما ليس عليه دليل شرعي، لا من نصوص الشرع، ولا مِن قواعده، وإلا فلو كان لها دليلٌ من الشرع على وجوبٍ، أو ندبٍ، أو إباحةٍ، أو نحوه لَما صارت بِدعةً[(٢)].

❍ **إشكال**: إذا كانت كل البِدَع مذمومةً، فكيف نجيب عن حديث: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**....»[(٣)]؟

الجواب عن هذا الحديث من عدة أوجه:

١/ **أن المراد بالحديث**: مَن سَنَّ في العمل، لا في التشريع، بمعنى: أنه عمل ما هو مشروع مُبتدَأً، ثم تابعه غيرُه، فله مثلُ أجرهم، ويشهد لهذا قصة ورود الحديث؛ فإنها في قصة القوم الحفاة العُراة من مُضَر، والقصة معروفة.

٢/ **أن المرادَ بذلك**: من سنَّ في الوسائل، لا في المقاصد، أي: الوسائل والطرق الموصلة إلى العبادات؛ فإن له أجرها، وأجر من عمل بها.

(١) «قواعد الأحكام» (٢/ ١٧٣).
(٢) «الاعتصام» (١/ ٣٢٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧).

مثاله: تبويبُ العلماء تآليفَهم، وقولهم: أركان الصلاة عددها كذا، ومثاله كذلك: المحاضرات الدعوية، ونحوها من وسائل إيصال الدعوة.

٣/ **أن الحديث يُراد به** من أحْيا سُنةً ثابتةً قد هُجرت، ويوضحه ما ورد في الحديث: «**مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِها**»(١).

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

أهلُ السنة لا يقدِّمون على كلام الله كلامَ غيره، ويعتقدون أن هدْي نبيه محمد ﷺ أفضل الهدي، ويفضلونه على سائر الأديان.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٢]، وقال ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ...**»(٢).

فَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ؛ وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

أهل السنة لهم عدة تسميات، كلها تدل على ارتباطهم بالوحْيَين:

١- **يُسمَّون أهل الكتاب والسُّنة**: لأنهم يقدِّمون كلام الله على كلام

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٧)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢٠٩، ٢١٠).
(٢) أخرجه مسلم (٨٦٧).

غيره من خلْقه كائنًا من كان، ولا يعدلون به، ولا يعارضونه بمعقول ولا منقول.

ويتبعون الكتاب والسنة، ويلتزمونها، ويأخذون بها في الفروع والأصول، ويُؤْثِرونها على غيرها.

وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الِاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ.

٢- **يُسمَّون أهل الجماعة**: لأن الجماعة هي الاجتماع، فهم مجتمِعون على السنة وآثار رسول الله ﷺ، ولا يضلِّل بعضُهم بعضًا.

وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

لفظ «الجماعة» صار يُطلَق عُرفًا على القوم المجتمعين، وإلا فالأصل أن الجماعة هي الاجتماع.

واعلم: أن طريق الجماعة لا يُعرَفُ بالكثرة، بل كما قال بعض السلف: الجماعةُ من كان على الحق، ولو كنت وحْدك؛ لأن الحق هو ما كان عليه الجماعة في الصدر الأول.

وَالْإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ.

سادسًا: أشار المصنفُ إلى الأصلِ الثالث من أصولِ أهل السنة، التي

يستدلون بها في الأحكام، وهو الإجماع.

والإجماع لغة: يُطلَق على معنيين:

١) **العزم والتصميم**، قال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ [يُونس: الآية ٧١]، أي: اعزموا عليه.

٢) **الاتفاق**، يقال: أجمع القومُ على كذا، أي: اتفقوا.

واصطلاحًا: اتفاق علماء العصر من الأمة على أمر ديني.

والإجماع حُجَّةٌ قاطعةٌ يجب العمل به عند الجمهور.

والدليل: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النِّساء: الآية ١١٥].

◈ ومن السُّنة حديث ابن عمر مرفوعًا: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي** - أَوْ قَالَ: **أُمَّةَ مُحَمَّدٍ** ﷺ - **عَلَى ضَلَالَةٍ**»[1].

واعلم أنه لم يخالف في حُجية الإجماع إلا بعضُ المبتدعة من الشيعة، والخوارج، وإلا فجماهيرُ المسلمين على أنه حُجة، يُعتمَد عليه في أمور الدين.

❋ ❋ ❋

(١) رواه الترمذي (٢١٦٧) وحسنه البعض وضعفه آخرون، لكن تشهد له الآية السابقة.

فَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ، بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ، مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ.

❑ **أهل السنة والجماعة يَزِنُونَ بالكتابِ والسنةِ والإجماعِ، جميعَ ما عليه الناسُ، مما له عَلاقة بالدين،** من أمور ظاهرة، أو باطنة، ويجعلون هذه الأصول الثلاثة هي المعيارَ الذي تُوزَن به الأعمال.

أما أمور العادات والتي لا تعلُّق لها بالدين - كأمور المعايش ونحوها - فإن الأصل فيها الإباحة.

وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الِاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَ الْأُمَّةُ.

❑ لمَّا قرَّر حُجيةَ الإجماع، ذكر أن العلماء اختلفوا في إمكانية وقوعه، والذي اختاره شيخ الإسلام هنا: أن الإجماع الذي يمكن العلم به، ويُحفظ، وينضبط، ويحاط به: هو ما كان عليه السلف الصالح، وهم القرون الثلاثة: الصحابة، والتابعون، ومَن بعدهم.

وإنما قال ذلك لعلَّةٍ، وهي:

١) أنه بعد هذه القرون الثلاثة كثُر العلماء، وانتشر الإسلام، وتفرَّق العلماء في البلدان، وفي مشارق الأرض ومغاربها.

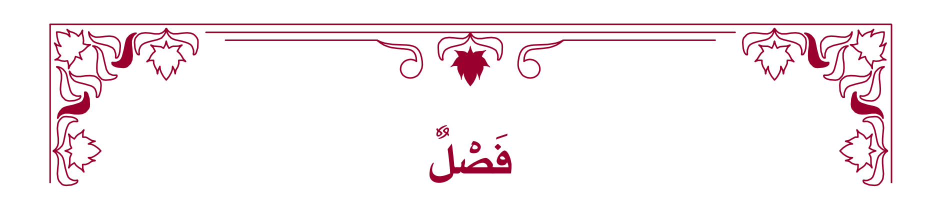
٢) كثرة الاختلاف، وكثرة الطوائف والفِرَق بين المسلمين، فيتعذَّر أن يعلم كل المجتهدين بالحادثة الواحدة، ويتفقون على حكم واحد فيها،

فهذا متعسِّر، وهذا الذي ذهب إليه الإمام أحمد[١].

وإنما اقتصر المؤلف على ذِكر الأصول الثلاثة، ولم يذكر الرابع - وهو القياس -؛ لأنه مختلَفٌ فيه.

❊ ❊ ❊

(١) «أصول مذهب الإمام أحمد»، للتركي (ص٣٤٩).



فَصْلٌ

بعد ما ذكَر المصنِّف منهجَ أهل السنة في عقيدتهم وأصول دينهم، ذكَر في هذا الفصل ما تميز به أهل السنة والجماعة في مسلكهم العملي، وقد ذكر في هذا الفصل أبرزَ الخصائص السلوكية المنهجية لأهل السنة والجماعة.

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

❐ **أول خصائص أهل السنة وسماتهم في السلوك والأخلاق:** الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، على عِلم وبصيرة، كما أثنى عليهم الله بذلك في كتابه، فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: الآية ٧١].

والمعروف: اسم جامعٌ لكل ما أمر به الشرع.

والمُنكَر: اسم جامع لكل ما نهى عنه الشرع.

وهمْ بهذا يحققون الخيرية التي نالتها هذه الأمة بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠].

ويطيعون أمر النبي ﷺ بذلك؛ حيث قال: «**لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا...**»[(١)].

وقد قال ابن تيمية: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو من أَوْجَبِ الأعمال، وأفضلها، وأحسنها»[(٢)].

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ، وَالْجِهَادِ، وَالْجُمَعِ، وَالْأَعْيَادِ، مَعَ الْأُمَرَاءِ، أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا.

❑ **ثاني الخصائص لأهل السنة:** إقامةُ الأعمالِ الصالحة من الحج، والجهاد، والصلاة، مع الأمراء، أبرارًا كانوا أو فُجارًا، **وحُجتهم في ذلك أمورٌ:**

١) عمومُ الأدلةِ التي تحثُّ على طاعة ولاة الأمور، في غير معصية الله، كقوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٥٩].

وحديث: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ... وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**»[(٣)].

٢) أن هذه الأمور لا يقوم بها عادةً إلا ولاةُ الأمور، ولو اشترطنا كونهم أبرارًا وصالحين، لتعطَّلت هذه الشعائر.

٣) أن هذا هو فِعل الصحابة ومن بعدهم؛ فقد صلى أنسٌ خلْف

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجه (٤٠٠٦) وقال الترمذي: حسنٌ غريب.

(٢) «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣٥).

الحَجاج، وصلى ابن عمر خلفه كذلك، ولما قيل له: أتصلي مع ابن الزبير والحجاج؟ قال: إذا دعونا إلى الله أجبناهم، وإذا دعونا إلى الشيطان تركناهم، فقلت: يا أبتاه، وما تعني الشيطان؟ قال: القتال[(١)].

٤) أن هذا الأمر به جمعُ كلمة المسلمين، وبه صلاح أمر الدين، وفيه سدٌّ لِباب الفُرقة والاختلاف، كما قال الحسن في الأمراء: «هم يَلُون من أمورنا خمسة: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، واللهِ ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا أو ظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون»[(٢)].

وأهل السنة بهذا الأمر يخالفون الخوارج والرافضة:

فالخوارج: يرَون أنه لا طاعةَ للإمام إذا كان عاصيًا، بل إن الكبيرة تُخرِجه من الملَّة.

وأما الرافضة: فيقول كثيرٌ منهم: لا إمامَ إلا المعصوم، ولذا فهمْ لا يصلُّون مع المسلمين، بل يُصلُّون فُرادى، وهذا لضلالهم، قبَّحهم الله[(٣)].

ويُحافِظُونَ على الجَماعاتِ.

❐ ثالث الخصائص: أنهم يحافظون على إقامة الجمعة، وصلاة

(١) كما في «مسند الشافعي» (٣٢٣)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٤١٧٥)، «الأوسط لابن المنذر» (٤/ ١١٥).

(٢) انظر: «الشريعة» للآجري (٤/ ١٧٠٨)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ١١٧).

(٣) انظر: «شرح الواسطية»، للعثيمين (٢/ ٣٣٧).

الجماعة مع المسلمين، ولا يعتزلون الناس فيها، وهي من أوكد العبادات، ومن شعائر الإسلام الظاهرة، وتقدَّم أنهم يصلونها خلف كل إمامٍ، برًّا كان أو فاجرًا.

وهذا كله لا يتعارض مع مناصحتهم لولاتهم العصاة، ولا يتعارض مع بُغْضهم بقدْر ما هم فيه من المعاصي، كما تقدَّم أن العاصي يُحَبُّ بقدْر ما عنده من إيمان، ويُبْغَضُ بقدْر ما عنده من الذنوب.

ولكنهم مع ذلك لا يخرجون على أمرائهم، ما داموا يقيمون فيهم الصلاة، كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[(١)].

ولما تكلم النبي ﷺ عن أمراء السوء، وقال: «**فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ**»، قالوا: أفلا ننابذهم؟ قال: «**لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ**»[(٢)]، وفي الحديث الآخر: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ...**»[(٣)].

قال ابن تيمية: «ولعله لا يكاد يُعرف طائفةٌ، خرجت على ذي سلطان، إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الذي أزالته». ا.هـ[(٤)].

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ.

❏ **رابع الخصائص: أن أهل السنة يتعبَّدون بالنصيحة للأمة كلها**، كما

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥).
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).
(٤) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٣٩١).

ورد ذلك في حديث تميمٍ الداري مرفوعًا: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» (ثلاثًا) قلنا: لمن؟ قال: «**للهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**»(١).

وهم بهذا يقومون بحق إخوانهم المسلمين عليهم، كما ورد ذلك في حديث أبي هريرة: «**حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ سِتٌّ: ... وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ**»(٢).

ومِن آكَدِ مَن ينصحون له: ولاة الأمر، فيأمرونهم، وينكرون عليهم، بما يليق بمقام الوالي. وللسلف في هذا أخبارٌ تطول.

وكذا ينصحون لعامة الناس، والميزان في ذلك هو حديث أنسٍ مرفوعًا: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٣).

وَيَعْتَقِدُونَ قَوْلَهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ(٤)، وَقَوْلَهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ؛ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»(٥).

❏ **خامس الخصائص: أن أهل السنة يطبِّقون مفهوم هذين الحديثين،** فيحققون التآخي، والترابط، والتواد، والتناصر، فالمسلمون - كما

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه، دون قوله: «**المرصوص**».

(٥) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

شبَّههم النبي ﷺ - بالبِناء الواحد المُحكَم المتماسك، كلُّ جزء منه يشد الآخر، ويعينه، وينصره، قال القاضي عياض عن تشبيك النبي ﷺ يديه: «هو تمثيل وتقريب للفهم، يريد الحث على التعاون، والتناصر، فيجب امتثال ما حثَّ عليه»[(١)].

ويعتقدون أن المسلمين ينبغي أن يكونوا كالجسدِ الواحد، الذي إذا أُصيب عضوٌ منه بألمٍ، تداعى بقيةُ الأعضاء، بمشاركته بالألم والسهر.

وأورد المصنف في هذا حديث النعمان بن بشير، والحديث غايةٌ في تقريب الصورة، وتوضيح المراد، فالإنسان إذا أُصيب إصبعه بوجع، تألم الجسد كله، والمسلمون إذا أُصيب الواحد منهم بأذى، تألَّم المسلمون كلهم، وأعانوه على دفع أذاه ورفعه، وإذا أُصيب الواحد بخير، فرح المسلمون جميعًا.

والحديث خبرٌ معناه الأمر، أي: كما أنه إذا تألم بعض جسده، سرى ذلك الألم إلى جميع الجسد، فكذا المؤمنون، ينبغي أن يكونوا كنفْس واحدة، إذا أصاب أحدهم مصيبةٌ، اغتم بها جميعهم، وسعَوا لإزالتها.

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَى بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

❏ **سادس الخصائص: أنهم يصبِرون عند البلاء، ويشكرون عند الرَّخاء، ويرضَون بمُرِّ القضاء،** وهذه الخصال الثلاث مما يحققونه،

(١) «إكمال المعلم» (٨/ ٥٧).

ويندبون له.

فأما الصبر عند البلاء فالمراد به: حبْس النفْس عن التسخط بالقلب، أو اللسان، أو الجوارح، عند الامتحان بالمصائب والشدائد.

فإذا أُصيب أحدهم بمصيبة، فإنه يصبر عليها، والصبر واجب، وثوابه جزيل بلا حدٍّ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وأما الشكر عند الرخاء: فإنهم إذا نالهم الرخاء - وهو اتساع النعمة، وسَعة العيش - يشكرون الله على نعمه وأفضاله، والشكرُ عندهم يقوم على ثلاثة أركان - كما قال ابن القيم -:

١- التحدث بالنعمة ظاهرًا.

٢- الاعتراف بها باطنًا.

٣- صرفها في طاعة موليها ومُسديها، وهو الله[(١)].

وهم بهذا يمتثلون قول المولى سبحانه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٢]، وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

وأما الرضا بمُرِّ القضاء: فإنهم يرضَون بما يجري عليهم من الأقدار المؤلمة، والعبد لا بد أن يعتريه من ذلك شيء: كالمرض، والفقر، والآلام، وأذى الخلْق.

وقد ذكر العلماء أن للإنسان مع المصيبة أربعَ حالات:

١) **السخط**، وهو حرام.

(١) «الوابل الصيب» (ص١١).

٢) **الصبر**، وهو واجب، وهو: تحمُّل المصيبة، مع أنه ربما كره وقوعها.

٣) **الرضا**، وهو مستحب، وهو: الذي لا يكون معه تحسُّر، أو ندم، بل يرضى رِضاءً تامًّا؛ لأنه يعلم أنها من عند الله[١].

٤) **الشكر**، وهو أرفع الدرجات، ولا يكون إلا للقليل من الناس.

وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[٢].

❐ **سابع الخصائص: أن أهل السنة يدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسنها، ويرغِّبون فيها، ويدعون إلى محاسن الأعمال:** كالكرم، والشجاعة، والصدق، وغير ذلك؛ لأنهم يعلمون من مقول النبي ﷺ أن «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»، ويضعون في تخلُّقهم بالخُلق الحسن، ما صح من الأحاديث في حسن الخلق، كحديث أبي الدرداء مرفوعًا: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ**»[٣]، وحديث: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ**»[٤]، وغيرها.

---

(١) الرضا مستحب من حيث كونه مفعولًا علينا، أما من حيث كونه فعلًا لله فهو واجب، فالمرض - مثلًا - باعتبار كون الله قدَّره يجب الرضا به، وباعتبار المرض نفسه يُستحَب الرضا به.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وقال: حسن صحيح، وأحمد (٧٤٠٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٢٥٥٣٧).

فَيَدْعُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

❏ **ينبني على تحلِّيهم بالخُلق الحسن أمورٌ عدَّة من محاسن الأخلاق، ومنها:**

أنهم يدعون، ويُرَغِّبون في صلة رحمك، وإن قطعك، كما في الصحيح: «**لَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الوَاصِلَ: الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا**»(١).

إعطاء مَن حرَمك، فلا تقابل إساءته إلا بالإحسان، وهذا من كمال الإيمان.

الصفح عمن ظلمك، والتجاوز عن ذنْبه، وظُلْمه لك، ولا تؤاخذه بما نال منك؛ لأن ذلك من خصال الإيمان، وسبب للرفعة والعزة، وجالب للمودة، ومُكْسِب للأجر، وفي الحديث: «**وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»(٢)، وحديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْفِذَهُ: دَعَاهُ اللهُ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الحُورِ شَاءَ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١٨٦).

وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ.

❑ أهل السنة والجماعة **يأمرون ببر الوالدين**، وطاعتهما، والإحسان إليهما بالقول، والفعل، بما لا يخالف الشرع، وخفْض الجناح لهما، والشفقة عليهما، والتلطف بهما؛ لعِظَم حقهما.

ولذا قرن الله حقهما بحقه، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: الآية ١٤].

وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ.

❑ يأمرون **بالإحسان إلى الأرحام**، وصلتهم، وليس لهذا ضابط، وإنما ما سمَّاه الناس عُرفًا صلةً، فهو صلةٌ، وهذا يكون بوصلهم بالزيارة، وعدم القطيعة، وبالإحسان إليهم بالقول، وبالفعل، والهدية، والتفقد، ونحوه.

والأرحام: جمع رَحِمٍ، وهو مَن تجمعك به قرابة؛ سُمُّوا أرحامًا لأنهم خارجين من رَحِمٍ واحدة.

وَحُسْنِ الْجِوَارِ.

❑ يأمرون **بالإحسان إلى الجوار**؛ بإيصال ضروب الإحسان إلى مَن جاورك بحسب الاستطاعة؛ مِن طلاقة الوجْه، والسلام، والهدية، والمعاوَنة، وكفِّ الأذى بأنواعه؛ فإن هذا من خصال الإيمان، كما قال

النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ**»[١]، وعند البخاري: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ**» ثلاثًا، قيل: من؟ قال: «**مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[٢]، وعند مسلم: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ**»[٣].

وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.

❏ يأمرون **بالإحسان إلى اليتامى، والمساكين، وابن السبيل**، كلٌّ بحسبه.

واليتيم: هو مَن مات أبوه قبل بلوغه، وقد رغَّب الشرع في الإحسان إليه، كما في الحديث: «**كَافِلُ الْيَتِيم لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**» وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى[٤]، ورهَّب من الإساءة إليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [المَاعون: الآية ٢].

والمسكين: هو المحتاج الذي أسكنته الحاجة، والفقر، فيتصدَّق عليه، ويرفق به، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٣].

وابن السبيل: هو المسافر المنقطع به سفره، الذي نفِدت نفقته، أو ضاعت، أو سُرِقَتْ، والسبيل: الطريق، وسُمِّي ابنَ السبيل؛ لملازمته السبيل.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٦).
(٣) أخرجه مسلم (٤٦).
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٨٣).

وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ.

❑ يأمرون **بالرفق بالمملوك بالقول، وبالفعل**؛ عملًا بوصية الله، حيث قال: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٣٦]، ويدخل فيه: الرقيق، وهو الذي يتبادر له المعنى، وكذا يدخل فيه المملوك من البهائم.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلَاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالِاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ، بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

❑ **مِن صفات أهل السُّنة أنهم ينهَون عن كل خُلق مذموم، ومنها:**

الفخْر: وهو المُباهاة بالمكارم والمناقب؛ من حسبٍ، ونسبٍ، وغير ذلك.

والخُيَلاء: وهو الكِبر، والعُجْب.

والبغْي: وهو العدوان على الناس.

والاستطالة على الخلْق: وهو الترفع عليهم، واحتقارهم، والوقيعة فيهم؛ وسواءٌ كانت الاستطالة بغير حق، أو كانت بحقٍّ، فهمْ يجتنبونها.

ومثال الاستطالة بحق: أن يُخبِر أنه رفيع، وهو مُحِقٌّ، ونحو ذلك.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا.

❑ **أهل السنة يأمرون بمعالي الأخلاق، وينهَون عن سفسافها.**

والسَّفْساف: هو الأمر الحقير الرديء من كل شيء، وضدُّه: المعالي.

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ أَوْ يَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

❑ كلُّ ما يقوله ويفعله أهل السنة، ويأمرون به، وينهَون عنه، مما تقدم ذِكرُه في هذه الرسالة، وما لم يُذكَر؛ فإنهم قد أخذوه من الكتاب والسنة، وهم متَّبِعون لهذينِ الأصلينِ؛ ولذلك سُمُّوا أهلَ الكتاب والسنة؛ لأنهم جعلوا الكتاب والسنة: هما الإمام الذي يجب اتباعه، والرجوع إليه عند التنازع. فأهل السنة منهجهم وطريقهم: هو طريق الإسلام، الذي أتى به محمد ﷺ.

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً[(١)]، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ؛ صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»[(٢)].

❑ لمَّا أخبر النبيُّ ﷺ عن الاختلاف الذي سيقع في أُمته - أمةِ

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد (٣٩٩٣).
(٢) أخرجه الآجري في «الشريعة» (١/ ٣٠٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٨٨٦، ٧٨٤٠) وفي «الصغير» (٧٢٤).

الإجابة -، **وبيَّن أن الطائفة الناجية**: همُ الذين كانوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، صارت علامة أهل السنة: أنهم على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، أما ما عداهم من الفِرَق فهم مسلمون، لكنهم ليسوا من أهل السنة والجماعة.

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَفِيهِمْ أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ.

❑ أهل السنة فيهم الصدِّيقون - وهم المبالِغون في الصِّدق، والتصديق - وفيهم الشُّهداء، وفيهم أئمة الإسلام، وهُداة الأنام، الدالُّون للأمة على نهج الرسول ﷺ، الكاشفون لهم عن معاني الكتاب والسنة، المُستضاء بهم في ظُلمات الجهل والشِّرك، والذين اتصفوا بكل وصفٍ حميدٍ عِلمًا وعمَلًا.

وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ.

❑ **الأبدال**: جمع بَدَلٍ، وهم الأولياء والعُبَّاد. وقد أورد المصنف هذه اللفظة التي وردت عند بعض السلف. **وللكلام عليها هاهنا ثلاثةُ أمور**:

أولًا: هذا المصطلح (الأبدال) ورَد على لسان بعض السلف، ومرادُهم به: الرجل الصالح، قال يَزيد بن هارون: الأبدالُ هم أهل العلم[١]، وكذا وُصِفَ بعض العلماء بأنهم من الأبدال[٢].

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ١٨٢).
(٢) يُنظَر على سبيل المثال: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٩٣، ٤٢٥) (٩/ ٧٩، ٢٨٢، ٣٠٣).

والمقصود: أنهم أبدالٌ عن الأنبياء، وخُلفاء لهم، وورثتهم، يخلفونهم في سُننِهم، ويحملون الأُمة على طريقهم.

وأما الصوفيةُ: فإنهم يطلِقون لفظ (الأبدال) ويريدون به: سبعة رجال يحفظ الله بهم الأقاليم - أي: القارات - السبع، لكل بَدلٍ إقليم، وكلما غاب منهم أحدٌ، أبدله الله بآخر على صورته[١].

وهذا لا يصح البتة، وليس عليه أيُّ دليل، بل هو مِن خُرافات الصوفية.

ثانيًا: لم يثبت في هذا اللفظ حديثٌ عن النبي ﷺ صحيح، ولا حسن، وإنما رُوِي في هذا حديثٌ ضعيفٌ لا يَثبت، ولفظه: عن شُريح بن عُبَيد قال: ذُكِرَ أَهْلُ الشَّامِ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ بِالْعِرَاقِ، فَقَالُوا: الْعَنْهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: لَا؛ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ رَجُلًا، يُسْقَى بِهِمُ الْغَيْثُ، وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمُ الْعَذَابُ**»[٢].

وهو ضعيفٌ سندًا؛ فهو منقطع؛ لأن شريح بن عبيد لم يدرك عليًّا. وضعيفٌ متنًا كذلك، كما أشار إلى ذلك ابن تيمية، فقال: «معلومٌ أن عليًّا ومَن معه مِن الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومَن معه بالشام، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر عليٍّ»[٣].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٦٧).

وأحاديث الأبدال ضعَّفها العلماء؛ قال الألباني: «أحاديث الأبدال لا يصح منها شيء، وكلها معلولة، وبعضها أشدُّ ضعفًا من بعض»[(١)].

وقد أفردها السخاوي وبيَّن عللها في جزءٍ سمَّاه: «نظم اللآل في الكلام على الأبدال»، ذكر ذلك في كتابه «المقاصد الحسنة».

ثالثًا: يَذكر الصوفية مع مصطلح (الأبدال) مصطلحاتٍ أخرى كلّها تعود إلى أقوامٍ لهم تصرُّف وأثرٌ وصلاح، **وهي**:

القُطْب: ويريدون به واحدًا، هو موضع نظَرِ الله من العالم.

والإمامانِ: وهما اللذان عن يمين وشمال القطب.

والأوتاد: وهم أربعة.

والنجباء: وهم أربعون، مشْغولون بحمل أثقال العالم.

والنُّقباء: وهم ثلاثمائة.

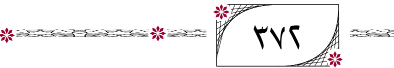
وكل هذا لا يصح.

قال ابن تيمية: «كل حديث يُروى عن النبي ﷺ في عِدَّةِ (الأولياء)، و(الأبدال)، و(النقباء)، و(النجباء) و(الأوتاد)، و(الأقطاب)، مثل أربعة، أو سبعة، أو اثني عشر، أو أربعين، أو سبعين، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو القطب الواحد؛ فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ، ولم ينطق السلف بشيءٍ من هذه الألفاظ إلا بلفظ: (الأبدال).

ورُوِي فيهم حديث: أنهم أربعون رجلًا، وأنهم بالشام، وهو في

---

(١) «السلسلة الضعيفة» (٢/ ٣٣٩).



«المسند» من حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو حديث منقطع ليس بثابت»[١].

وقال ابن القيم: «وكذلك أحاديث الأبدال، والأقطاب، والأغوات، والنقباء، والنجباء، والأوتاد؛ كلُّها باطلة على رسول الله ﷺ»[٢].

وَمِنْهُمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ.

❐ أهلُ السنة والجماعة ينتسب لهم أئمة الدين الذين اشتهرت إمامتهم، وأجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم؛ كالأئمة الأربعة، وغيرهم من أهل العلم، الذين أطبقت الأرض على الثناء عليهم، كالفقهاء السبعة، وأمراء المؤمنين في الحديث: ابن المَدِيني، وسفيان الثوري، وابن عُيَينة، وشُعبة بن الحَجاج، وأصحاب الكتب السِّتة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنَّسائي، وابن ماجه، وغيرهم من أعلام الدِّين: كابن تيمية، وابن القيم، وابن رجب، وغيرهم كثير، جمعنا الله وإياهم مع نبينا محمد ﷺ في الفردوس الأعلى من الجنة.

وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ، الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[٣].

❐ أهل السنة يُسَمَّون الطائفة المنصورة؛ أخذًا من قوله ﷺ: «**لَا تَزَالُ**

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٠١).
(٢) «المنار المنيف» (ص١٣٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧).

طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

وفي حديث معاوية بن قرة، عن أبيه مرفوعًا: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»[(١)].

وهذه الطائفة غير محصورة بعددٍ، ولا بمكان، ولا بزمان.

فَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً، إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.
وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وصلَّى على خيرِ خَلْقِهِ مُحمَّدٍ.

❐ ختَم المؤلف هذه الرسالة المبارَكة بالدعاء، ثم بالصلاة والسلام على النبي ﷺ كما بدأها بذلك.

وبهذا تم الكلام على «العقيدة الواسطية»، أسأل الله أن يرزقنا العلمَ النافع والعمل الصالح، والإخلاص في القول والعمل.

وصلى الله على محمد، وآله، وصحبه أجمعين.



(١) أخرجه الترمذي (٢١٩٢)، وابن ماجه (٦).



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

